كولن ولسون

الاستحواذ..

رواية







الاستحواذ

هذه الرواية التي وضعها «كولن ولسون» في قالب بوليسي وعبر شخصية مفتش بوليس يبحث عن حلّ لغز مقتل بحّار في حديقة عامة، تدور حول فتاة مزدوجة الشخصية.. ومن هذا المنطلق يعالج «ولسون» حالة غريبة من الشذوذ النفسي سجلها الأطباء منذ أوائل القرن التاسع عشر وعرفت بـ «الشخصية المتعددة».

إن أغلب حالات «الشخصية المتعددة» تبدأ بصدمة عنيفة، فتستحوذ شخصية غازية متغلبة على الشخصيّة الأصلية.. وما من تناقض جوهري بين القائلين بالاستحواذ ووجهة نظر علماء النفس الذين يعتبرون «تعدد الشخصيات» مجرد مسألة «شخصية محطمة» تنقسم إلى جزءين أو أكثر. ولسون نفسه يتحاشى الخوض في هذه المعضلة ليعترف بأنه يبدو من المستحيل إنتاج تفسير مقنع تماماً لظاهرة «الشخصية المتعددة» سواء بواسطة التفسير النفسي أو التفسير الغيبي.





كولن ولسون

الاستحواذ..

رواية

ترجمة

غسان رملاوي





هذه ترجمة لكتاب

Colin Wilson

The Jenus Murder Case

الطبعة الأولى
١٩٩٥م/ ١٤١٥هـ



بيروت - لبنان ص.ب ١٤/٥٦٤٥
هاتف ٨١٤٧١٦ - ٨١٤٦٩٧ - ٨١٨٦٠٠ فاكس ٤٦٦٥٢٨ (٠١)
Dar. Al - Manahel Beirut - Lebanon P.O. Box: 5645 - 14
Tel: 814716 - 814697 - 818600 Fax: (01) 466528



ص.ب ٦٤٨٠ - ١١٣
بيروت - لبنان

فهرس

1

لم يكتشف سلتفليت ما الذي أيقظه في تلك الساعة . كان يغطّ في نوم عميق ، فارتبك للوهلة الأولى ولم يدرِ أين هو ، كان يرقد في سريرٍ فردي ، والنافذة تبدو في غير مكانها المعتاد . ثم تذكّر أنّه في منزل شقيق زوجته في « لادبروك تراس غاردنز » وليس في غرفة نومه الخاصة في « التايمز ديتون » . كانت ميرندا تنام بسلام على السرير الفردي الآخر في الغرفة ، وبدت ذراعها العارية تتكىء على وسادة الريش . وكان يستطيع أن يسمع الأصوات المتقطعة لحركة السير في شارعي لادبروك وهولند بارك ، إلاّ أنّ هذه الأصوات لم تكن هي التي أيقظته ، إذ أشارت دقّات قلبه المتسارعة إلى أنّ شيئاً ما قد أيقظ في داخله غريزته البوليسية التي تبرز في حالات الطوارئ .

نزل من السرير واتّجه إلى النافذة ، واطئاً بقدميه الحافيتين السجادة السميكة التي تمددت كالعشب . كانت الحديقة في ذلك الوقت خالية تماماً حتى بدت أشجارها والعشب الأخضر الذي يغطيها أشبه بديكورٍ مسرحي مضاء بنور القمر الساطع . فتح النافذة بهدوء وأطلّ إلى الخارج ، فتناهى إليه وقع خطوات على الرصيف المقابل بينما كانت الشاحنة المحمّلة تبتعد . كان سياج الحديقة يحول دون رؤية أيّ شخصٍ ، إلاّ أنها كانت خطوات امرأة ، كأنها امرأة عاملة متجهة نحو عملها . لكنّ ما استثار غريزة التحرّي لديه أنها بدت وكأنها انطلقت من وسط الحديقة لكنه لم يسمع صوت بابٍ يُقفل يدلّه على المكان الذي انطلقت منه . وعندما خفت الصوت لدى وصولها إلى المنعطف ، أقفل النافذة وعاد إلى السرير .

كان يعلم أن عودته إلى النوم أمر صعب . فخلال الأسبوع الماضي كان

يمضي أكثر من ساعة من كلّ ليلة في التفكير بجيرالدين ، ابنته الوحيدة . فلقد اكتشف في عيد ميلادها الخامس عشر ، قبل أسبوع ، أنها لم تعد عذراء . ولا تزال هذه الفكرة تهزّ كيانه وتصيب قلبه بانقباضٍ شديد ، وهو يعرف أنّ موقفه أحمق ، فقد حدث ذلك لبنات الآخرين بل إنّه يعلم أن نصف زميلات صفها لسن عذراوات ، إلاّ أنّ الأمر لا يزال يثيره ويحزنه . فهي ليست كباقي البنات ، بجسمها المديد النحيل الذي لا يحتمل الشمس ، وشعرها الأشقر الطويل الذي يصل إلى منتصف ظهرها ، واندفاعاتها العاطفية المفاجئة ، عندما تحيط عنقه بيديها أو عندما تجلس على ركبتيه وهو جالس على الكنبة ، فمن الصعب جداً أن يراها إلاّ فتاة صغيرة .

رجع إلى منزله يوم الجمعة الفائت بعد يومٍ حافلٍ في المحكمة ، إذ تأكد له بعد أن قدّم القاضي استنتاجاته الأخيرة إلى هيئة المحلفين . أن الأخوة سانتيني ـ أسوأ عصابة في لندن منذ عصابة كراي وعصابة ريتشاردسون ـ الذين تطلّب إعداد ملف قضيتهم من سلتفليت والفريق الذي يعمل معه ستة أشهرٍ كاملة ، سيدانون بجرم الابتزاز وإحداث الأذى الجسدي البالغ للقاصرين بعد اختطافهم .

كان من المفترض أن يصل إلى البيت في تمام الرابعة ليحضر حفلة عيد ميلاد جيرالدين ، إلاّ أنه كان من المستحيل عليه أن يصل قبل السابعة . وضع هديته لها ، وهي عبارة عن ستيريو متطوّر ، في غرفة نومها ثمّ نزل ليبحث عنها في الطابق السفلي ، فوجد في غرفة الجلوس ثمانية أو تسعة من أصدقائها يشاهدون برنامجاً تلفزيونياً إلاّ أنها لم تكن بينهم . أخبروه أن ميرندا ذهبت لتوصل أحد المدعوين إلى هامبتون ، فمضى نحو الحديقة ونادى « جيرالدين » ثم مشى إلى النهر ليرى ما إذا كانت تستمع إلى الموسيقى في القارب كعادتها ، فوجد المركب خالياً ، وقف هناك لبرهة متمتعاً بالسكون اللذيذ ورائحة النهر الخريفية . كان في طريقه إلى البيت عندما فُتح باب حظيرة المركب ، وخرجت جيرالدين منه يتبعها فتى . سيطر عليهما الذهول والإحراج ، وتحاشى الفتى الأشقر النظر في عينيّ سلتفليت بينما قالت جيرالدين :

« كنت أرى تشارلي زورقنا السريع » .

وعندما أخبرها أنّ ثمّة هدية لها في غرفة نومها ، تقدمت منه وعانقته عناقاً خلا من تلقائيتها المحببة .

وبينما كانا في طريقهما إلى البيت فتح سلتفليت الباب ليتأكد من أن النور مطفأ ، فوجد وسائد المقاعد وأحزمة النجاة ملقاة على الأرض خلف القارب ، على شكل فراش ، أخذ يحملها ليضعها في مكانها في القارب ، فوقع شيء ما على الأرض ، واقٍ مطاطي زهري اللون ، فأخذ يحدّق فيه ، ملأه شعور بالغثيان ، ثمّ أخرج محرمة ورق من جيبه والتقطه بها ، كان واضحاً من رطوبته أنه استخدم منذ وقتٍ قصير . ورغم وضوح المسألة في ذهنه فقد انتابه الشك ، فأسرع ووضع المحرمة في سلّة المهملات .

كانت جيرالدين في غرفتها ، والباب مفتوح على مصراعيه ، وأدركت من ملامح وجهه أنه يعرف . كان لديه شعور غريب بأنه حتى لو أشاح بنظره إلى الناحية الأخرى فإنّ مشاعره ستنتقل إليها برقياً ، كما لو كان ثمّة جهاز لاسلكي بينه وبينها .

كان يغيّر ثيابه عندما دخلت جيرالدين إلى غرفته ، ووقفت أمامه تحيد بنظرها عنه ، وبدت نحيلة جداً في ثوب الحفلة الأبيض . فأحسّ لوهلةٍ أن شكوكه سخيفة ثم قالت :

ـ « أنا آسفة » .

فتيقّن من صحّة مخاوفه وسألها بصوتٍ مختنق :

ـ « منذ متى يحدث هذا ؟ » .

ـ « حوالى الشهر » . كانت هادئة ومستسلمة كما كانت تفعل في طفولتها ، عندما ينتابها شعور بالقلق والاضطراب .

وجد أنه من الصعب التفكير بشيء لا يثير في نفسه عاصفة من الغضب والألم ثم قال أخيراً :

ـ « من الأفضل أن تنزلي إلى أصدقائك . فلا بدّ من أنهم قد لاحظوا غيابك » .

فأجابت : « نعم » ومضت بهدوءٍ مبدية ذلك الاعتزاز بالنفس الذي تمتعت به دائماً .

والآن ورغم مضي أسبوع ، فالمسألة لم تحلّ بعد ، لقد اكتشف أنّ ميرندا

كانت تشكّ بالأمر منذ فترة . وفي اليوم الذي تلا الحفلة كان لها حديث مطوّل مع جيرالدين ، والظاهر أن صديقها تشارلي ليس الأوّل في حياتها . حدث ذلك قبل ستة أشهر مع صديقها دافيد ، وهو شاب خجول بدا أن اهتمامه ينحصر في الكومبيوتر ونماذج الطائرات ، وقد تخلّت عن عذريتها معه على سجادة منزله بينما كان أهلُه في السينما ، ثم أصبح دافيد متطلباً جداً وأخذ يتحدث عن الزواج ، مما جعلها تتركه وتتجه نحو تشارلي الأكثر خبرة والذي لا يحمّل الأمر أكثر مما يستحق .

وجد سلتفليت الوضع مستحيلاً ، فلو أنها أكبر بعدة سنوات ، لكان الحلّ يتمثل في امتلاكها شقتها الخاصة ، إلاّ أنها بالتأكيد ما تزال صغيرة . ثم فكّر في أن يطلب منها أن تعده بألا تمارس الجنس لعام آخر أو نحو ذلك ، إلاّ أن ميرندا ترى بأنّ هذا سيدفعها إلى الكذب والخداع ؛ ويبدو أنها كانت تمارس الحبّ ثلاث مرّات في اليوم فمن الصعب أن تقلع عنه نهائياً . تلقّت ميرندا الأمر بهدوئها المعتاد واقترحت حلاً أغاظه ، فهي تريد إرسال جيرالدين إلى الطبيب كي يضع لها جهازاً لمنع الحمل . إنّ مجرّد كون ابنته تُمارس الجنس في الأكواخ وعلى السجادات ، يكاد يخرجه عن طوره ويفقده أعصابه .

كان انتقاله إلى بيت شقيق زوجته قد تقرّر قبل عدّة أشهر ، بحيث لم يعد من الممكن الرجوع عن ذلك . فجيرالد ، وهو سمسار أسهم غني ، يحب قضاء شهر تشرين الأول (سبتمبر) في الكاريبي ، ووجود شرطي في منزله يناسبه جدّاً كما يُناسب ميرندا لقرب البيت من محلات الوست إند ، أما جيرالدين فقد كان من المقرّر أن تسكن مع عائلة فتز موريس وهي زميلة ابنتهم في المدرسة . قبل أسبوع كانت هذه التدابير تبدو رائعة ، أما الآن فهي أشبه بفخ نصبه القدر ، فلدى جيرالدين نسخة عن مفتاح المنزل ، وهم بذلك يقدّمون لها فندقاً تقضي فيه شهر العسل .

عندما تواجه سلتفليت قضية معقّدة ، فإنّه يحاول أن يزيل من رأسه الأفكار كافّة ثم يعود إلى البحث في القضية منطلقاً من نقطة الصفر ، كما لو كان ينظر إليها من الخارج نظرة شاملة تستوعب جميع الجزئيات . ولقد حاول ذلك في قضية جيرالدين ، صحيح أنه استطاع أن يتعمّق في المسألة لكن دون أي شعور بالارتياح . فلقد رأى بعد أن نظر إلى الأمر نظرة حيادية ـ نظرة من

لا علاقة له بالأمر ـ أنّ المسألة واضحة ؛ فجيرالدين فتاة طبيعية في الخامسة عشرة من عمرها ، تعيش في ضاحية هادئة ، وهي تستطيع إنجاب الأطفال ، إلاّ أنّه كان من المتوقع منها أن تذهب إلى المدرسة ثم تعود إلى البيت كلّ مساء لتدرس دروسها وتكتب فروضها . لكنها كانت تودّ أن تدخل إلى عالم الكبار الراشدين ، وأن تعيش حياتها . فكان من الطبيعي أن تجرّب الجنس ، وهو لا يزال يذكر البهجة والسعادة التي أدخلتها إلى نفسه علاقة الحبّ الأولى التي أقامها وهو الشرطي ذو التسع عشرة سنة . كان اسمها غريتا بارلو وكانت صديقة ميرندا المفضلة . وهو لا يزال حتى الآن يشعر بالحماسة والإثارة كلما تذكّر كيف مارس الحب معها خلف نادي التنس تحت شجرة صفصاف على ضفّة نهر التايمز . ولا يزال يذكر كيف أُصيب بصدمة لدى اكتشافه أنها تنام مع السرجنت فيسون ، إنه الشعور بالخيانة نفسه الذي ينتابه الآن مع جيرالدين . كانت ميرندا حنونة وعطوفة وفجأة اكتشف أنها الفتاة التي كان يبحث عنها دائماً : هادئة ، وخجولة ، إلاّ أنّها قوية الشخصية ، ولا تنتمي إلى أحد سوى نفسها ، وهو ما دفعه لجعلها تنتمي إليه . كان والدها موظفاً كبيراً في دائرة الجمارك ، وكانت هي من ذلك النوع من الفتيات اللذي يلعب السكواش في النادي ويعرف جنوبي فرنسا عن ظهر قلب . عارض أهلها فكرة زواجها من شرطي ، إلاّ أن قبلتهما الأولى جعلتهما يدركان أنّ ثمّة كيمياء تشدّ كلاً منهما إلى الآخر . وطالما امتدح نفسه بعد الزواج لتوفقه في اختيار الفتاة القريبة جدّاً من المثال الذي كان يطمح إليه ، وغالبا ما كان يشعر عندما كان يعمل على حل قضية صعبة أنّه يعمل من أجلها ، كفارس « يقاتل دفاعاً عن شرف امرأته . وهذه ، كما تبادر إلى ذهنه ، هي المشكلة ، فهو ينظر إلى جيرالدين بالطريقة نفسها ؛ نسخة مصغّرة عن امرأته المثالية ، بالضبط كما لو كانت ميرندا قد اتخذت عشيقاً لها ، وأخذ يتخيل جيرالدين نائمة ، فاتحة فخذيها العاريتين . ثم أخذت صورة جيرالدين تتلاشى وتحلّ محلّها صورة ميرندا . وهو لايزال يذكر ذلك الشعور الذي تولّد عنده عندما خانت الملكة زوجها مع السير لانسلوت في قصّة « موت آرثر » التي قرأها أيام صباه ، ولكن هل يمكن حقاً أن يكون خطأ جيرالدين أنها ليست نسخة عن المثال الذي رسمه في خياله . بل لعل « الجنفيفيات » الصافيات لسن أكثر من وهم ، ولا بدّ أنّ سنوات الخبرة في قسم مكافحة الجرائم الأخلاقية قد علّمته

أنّ النساء من لحم ودم . . . رغم كلّ ذلك لم يستطع أن يقنع نفسه بتخفيف حدّة غضبه وتهدئة ثورته .

ظلّ يفكّر بالأمر أكثر من ساعتين ولمّا نام أخيراً لم يكن قد اقترب من الوصول إلى أيّ حلّ .

قالت ميرندا « ثمّة شيء يجري في الشارع » .

ففتح عينيه ، ببطء وتكاسل ، كانت تقف بالقرب من النافذة .

ـ « أين ؟ » .

ـ « أظنّ أنهم وجدوا جثّة . . . » .

ـ « ماذا ! » وقفز من سريره وأسرع إلى النافذة ، تاركاً اللحاف الفاخر يقع على الأرض .

كانت ميرندا على حقّ . وأخذ يراقب المشهد ، فرأى سيارة للشرطة تقترب ، وشاهد مفتش تحري المنطقة يخرج من السيارة ، إنّه المفتش فيتش من مركز هامر سميث .

ـ « اللعنة ! » .

ـ « لماذا ؟ » .

ـ « أيقظني شيء ما في الليل ، إلاّ أنني نسيت أن أنظر إلى ساعتي » .

ـ « هل سمعت ضجة ؟ » .

ـ « لا أدري ما الذي أيقظني ، إلاّ أنّي قمت من فراشي لكي أنظر من النافذة » .

ـ « أهو أمر مهم ؟ » .

ـ « قد يكون مهماً » .

أخذ يرتدي ثيابه بسرعة ، قالت ميرندا :

ـ « ها هي سيارةٌ أخرى » .

فوقف بجانبها وبدأ يزرر قميصه .

ـ « إنه . . . ماذ يُدعى ؟ . . . الطبيب الشرعي » .

حمل سترته وقال : « سأعود بعد بضع دقائق » .

نظر إليها بحسرةٍ وهو يغادر الغرفة ، بدت تفاصيل ساقيها الجميلتين من

خلال ثياب النوم الشفافة .

كانت بوابة الحديقة الحديدية مواجهةً تقريباً للباب الرئيسي . وقد تجمّع عدد من المارّة يحاولون معرفة ما يجري . قال الشرطي الذي يحرس المدخل :

ـ « لا يمكنك أن تدخل يا سيدي » .

ـ « المفوّض العام سلتفليت : قسم التحقيق الجنائي » .

ـ « آه ، متأسف يا سيدي » وتنحّى جانباً ليدعه يمرّ ، من المفروض أن يطلب إثباتاً للهوية ، إلاّ أنّ لهجة سلتفليت الآمرة كانت كافية .

نظر إليه فيتش بضيق ثمّ تذكره فقال :

ـ « مرحباً سيدي ، ماذا تفعل هنا ؟ » .

ـ « أُقيم في المنزل المجاور ، ما الذي يجري ؟ » .

ـ « قُتل أحد البحارة البولنديين ، طعناً حتى الموت » .

كان أحد أفراد معاينة مسرح الجريمة راكعاً بالقرب من الجثة وقد انتهى لتوّه من تحديد مكانها بالأوتاد والخيطان ، وكان الشرطي المنتدب من مكتب الطبيب الشرعي يقف بعيداً بانتظار أن تنتهي المعاينة ، ولم يكن الشرطي المنتدب من قسم معاينة مسرح الجريمة أكثر من شرطي تحريّ ، إلاّ أنّه كان يقوم بعمله بتأنّ ، حريصاً على أن لا يفوته أيّ دليل ، وإلى أن ينتهي من عمله فإنّ سلطته كانت مطلقة . بالاضافة إلى مساعد فيتش وهو تحرّ برتبة رقيب ، ففي هذه المرحلة من مراحل التحقيق كلما قلّ عدد الموجودين على مسرح الجريمة كلّما كان ذلك أفضل .

كانت الجثّة ممددة تحت شجرة دلب بدأت أوراقها بالتساقط . وكانت شجيرات الغار والكوبية والوردية تعزل ذلك الجزء عن باقي الحديقة ، أمّا الأشجار المرتفعة فتعني أنّه لا يمكن أن ترى ما يجري داخل الحديقة من المنازل المجاورة وهذا ما يفسّر أنّ سلتفليت لم يستطع أن يرى شيئاً عندما نظر من نافذة منزله خلال الليل . فقال في نفسه : لقد اختار القاتل مكاناً جيداً . . . .

وسأل فيتش :

ـ « هل لديك فكرة عن طريقة دخولهم ؟ » .

ـ « ليس بعد ، يمكن أن يكونوا قد تسلقوا السور . . » .

مشى سلتفليت إلى الجهة البعيدة من الحديقة ، ثمّ سار بمحاذاة أحواض العشب المواجهة لحوض الزهور الرئيسي ، فوجد فجوة بين الشجيرات . أوحت آثار التراب والأغصان المكسورة بأنّ هذا هو المكان الذي دخلوا منه فانحنى على العشب بحذرٍ شديد لئلا يزيل أي أثر ، ونظر من خلال الأغصان ، فبدا له أنّ بعض قضبان السور الحديدية منحنية ، إلّا أنّ الفجوة ليست كبيرة بما يكفي لمرور الإنسان . كانت هذه النقطة في منتصف الحديقة تقريباً حيث بدأت الخطوات خلال الليل . مشى سلتفليت إلى الأمام بحرص شديد ، محاولاً ألّا يلمس الأغصان ومضى نحو السور الحديدي وشدّ أحد القضبان نحوه فانزاح من مكانه بحيث أصبحت الفجوة واسعة بشكل كافٍ ، وعندما دفعه إلى مكانه ، نزل في ثقب صغير في الإطار السفلي . وبدا من لمعان الحديد الذي يعلوه الصدأ أنّ أحدهم قد أحدث هذا الثقب مؤخراً بواسطة منشار . وعاد إلى فيتش ، الذي كان يتحدّث إلى الرقيب التحرّي ، فرأى أنهم قد كشفوا الغطاء عن الجثة وبدأ مسؤول الطب الشرعي بمعاينتها معاينة أوليّة . كان القتيل قصير القامة ممتلىء الجسم ، ذا شعرٍ أحمر ، قصيرٍ جداً ، تذكّر عظام فخذيه البارزتين بالجزّارين . أما شفتاه فقد انفرجتا عن أسنانه من شدّة الألم . ونزل سرواله إلى ركبتيه كاشفاً عن فخذين بنيين محمد عليهما الدم ، وقد غطى الدم المتجمد أيضاً الأعضاء التناسلية والمعدة العارية والجزء الأمامي من قميصه . لقد نزف البحار كثيراً حتى سال الدم من جنبه الأيسر وغطّى العشب من حوله .

كان الشرطي الذي يُعاين مسرح الجريمة يدوّن ملاحظاته ، فالتفت حوله ورأى سلتفليت فعرفه . وهو رجل ضخم الجثّة ذو لحيةٍ سوداء . تذكّر سلتفليت أنّه من أفراد شرطة مخفر نوتنغ هيل .

ـ « مرحباً يا سيدي ، لم أكن أعرف أنّ هذه منطقتك » .

ـ « ليست منطقتي ، ولكني أقيم في ذلك البيت » .

كان الشرطي يعرف حقّ المعرفة أنّ منطقة « أف » ليست إحدى المناطق التي تقع تحت إمرة سلتفليت ، لكنها كانت طريقة الشرطة في تحديد المسؤول ، فحتى لو كان سلتفليت برتبة مفوّض عام ، فليست له أيّ صفة رسمية في هذه القضية .

ـ « أظنّك لم تسمع شيئاً خلال الليل ؛ يا سيدي » .

ـ « كلا » لم ير سلتفليت أي ضرورة لإخباره بما حدث خلال الليل ، إلا أنه أضاف « لكني أظنّ أني أعرف كيف دخلوا » .

قاد الشرطي وأراه الدرابزين وأخذ يراقبه وهو يتفحص المعدن المنشور بعدسته المكبّرة .

ـ « هل رأيت ما يشبه هذا من قبل ؟ » .

ـ « لا يمكنني أن أقول إنني رأيت مثله يا سيدي » .

ـ « مرّت بي حادثة كهذه عندما كنت لا أزال في شرطة الأخلاق ، نشر أحدهم قضبان الدرابزين في « تشلسيا » كي يتمكن من رفعها ، بحيث يصبح من الصعب ملاحظته بعد إعادة تركيبه » .

ـ « بائعة هوى » .

ـ « أجل » .

ـ « ومتى كان ذلك يا سيدي ؟ » .

ـ « حوالى عام ١٩٦٥ ، لماذا ؟ » .

ـ « لقد تغيّرت الأشياء منذ ذلك الوقت يا سيدي ، وخصوصاً في هذه المنطقة ، فكلّ المومسات يتمتعن الآن بحريّة أكبر في العمل ، حتى أن بإمكانهن الإعلان عن أنفسهن ، ولدى معظمهنّ غرفة أو شقّة وحتى خادمة ، فلسن بحاجة إلى حديقةٍ عامّة » وأضاف وهو ينظر إلى العشب : « لعلّهم من المراهقين يبحثون عن مكان منعزل » .

ـ « ولكنّ الأمر لا يخلو من بعض الهواة » .

ـ « معظمهنّ يتخذنَ من ردهات الفنادق الكبرى مقرّاً لهنّ » وأخذ يرسم الدرابزين في دفتر ملاحظاته ، فتركه سلتفليت ليكمل عمله . وصل المصوّر وأخذ صوراً للجثّة ، ثم أرخى عضلات الوجه ليلتقط صورة أخرى لعرضها على الشهود . وكان من المنتظر أن يحضر جرّاح الشرطة وخبير البصمات . لم يكن ثمّة ضرورة لأخذ بصمات القتيل ، إذ إنّ هويته معروفة . لكن يجب رفع البصمات عن الدرابزين ومعاينته بدقّة بحثاً عن آثار دماء .

نظر سلتفليت إلى الساعة فوجد أنها تخطت الثامنة والنصف ، لا شك أنّ ميرندا الآن قد فرغت من إعداد القهوة ، ولعله من الممتع أن يكون في مسرح الجريمة دون أن يتورّط بل هو يستطيع الذهاب إلى حيث يشاء . إلا أن شمس

الخريف الدافئة ورائحة اللافندر التي تعطر الجو أغوته بالبقاء لبضع دقائق أخرى .

لو كان القاتل قد رجع عن طريق الدرابزين المنشور لكان لا بد له من أن يمرّ بطريقه على حوض الزهور ، وهو المكان الطبيعي لمن هو في عجلة من أمره وذلك لدفن السلاح أو لرميه فيه . دار سلتفليت ببطء حول الحوض إلاّ أنه لم يتمكن من رؤية وسطه نظراً لكثافة الزهور المسورة بشجرات اللافندر . ثم لاحظ في الجهة الأخرى من الحوض زهرة مكسورة ، فانحنى وأزاح أغصان اللافندر فوجد أثراً لقدم رجل على التراب الرطب .

وجاء ضابط مسرح الجريمة ووقف وراء سلتفليت فنظر المفتش إلى حذائه ومن ثمّ إلى أثر القدم وسأله :

ــ « هل بحثت هنا ؟ » .

ــ « ليس بعد » .

ــ « لقد سبقك أحد إلى ذلك ، انظر ! » .

ركع الشرطي على ركبتيه وأخذ يتفحص أثر القدم ثم دار حول الحوض حتى وجد طريقاً واضحاً بين الزهور ، فمشى على أطراف أصابعه برشاقة غير متوقعة ، ثم قال :

ــ « أظن أننا وجدنا شيئاً » .

ــ « سكين ؟ » .

ــ « كلا » وقال وهو يبعد الزهور « ولكنها كانت هنا » .

فقفز سلتفليت من فوق شجرة اللافندر وأخذ يحدّق في المكان الذي ينظر إليه الشرطي فوجد شجيرة أضاليا مكسورة وعلى أوراقها بقع دم كان الندى قد ساعد على احتفاظها بلونها الأحمر .

لحق بهما المفتش فيتش « هل وجدتما شيئاً ؟ » .

ــ « المكان الذي رمى فيه السكين لكننا لم نجد السكين نفسها ، يبدو أنه خاف فرماها هنا ثم عاد فاسترجعها ، وهذه آثار قدمه » .

فقال فيتش بحرارة « عمل جيد يا إيفانز » .

فاحمرّ وجه الشرطي ونظر إلى سلتفليت قائلاً : « شكراً يا سيدي » فقال سلتفليت : « حسناً ، أنا ذاهب ، إذا رغبت في فنجان قهوة فأنت تعلم

مكاني ـ رقم ١١ ـ » .

فقال فيتش « شكراً ، لعلّ هذا ما سوف أفعله » .

فالتفت سلتفليت إلى الشرطي وقال له :

ــ « بالمناسبة ، هل تعلم إن كانت ألفي لا تزال تعمل في هذه المنطقة ؟ » .

ــ « ألفي !! لم أسمع بهذا الاسم » .

قال مساعد فيتش : « هل تعني بائعة الهوى حمراء الشعر ألفي . . . لا أذكر اسمها . . . أجل إنها لا تزال هنا » .

وقال فيتش : « آه ، أنتم تتحدثون عن هذه ، تلك التي نظّمت المظاهرة ، بلى انها لا تزال تعمل في هذا الحي ، هل تظن أن بامكانها أن تساعدنا ؟ » .

ــ « لا ، لقد التقيت بها عندما كنت أعمل في قضية جرائم التايمز . . . وفكرت في أن التقي بها مرة أخرى . . . إلى اللقاء » .

شمّ رائحة اللحم المقلي لدى دخوله إلى البيت وكانت القهوة تغلي على النار . التقته ميرندا وقالت له :

ـ « كنت أتحدّث إلى الشرطي ، إنه يجري تحقيقاً في المنازل المجاورة كافّة » .

ـ « هل أخبرك ما الجريمة ؟ » .

ـ قال : « إنها جريمة قتل » .

ـ « صحيح هي كذلك » وجلس إلى طاولة المطبخ ، فصبّت له القهوة .

ـ « إنه بحارٌ مسكين » .

ـ « كيف قُتل ؟ » .

ـ « طعناً حتى الموت » .

ـ « من أجل المال ؟» .

ـ « لا أظن ذلك ! بل أعتقد أن ثمّة دافعاً جنسياً وراء الجريمة » .

ـ « لماذا ؟ » .

ـ « كان سرواله مشدوداً إلى ركبتيه » وقرر ألاّ يسترسل في الوصف قبل تناول الفطور .

- « إنه أمر فظيع ، هل تظن أن حوادث كهذه تحدث كثيراً في هذه الناحية ؟ » .

أحسّ بأنها بحاجة إلى من يطمئنها فقال : « ليس أكثر من أي مكانٍ آخر !! إلا أن البغاء كثير بالطبع ، هل تذكرين جرائم عاريات التايمز في منتصف الستينات - جاك نازع الملابس الذي كان يخنق بائعات الهوى ويترك جثثهن على ضفة نهر التايمز . معظم الضحايا كنّ يستخدمن الماخور نفسه في شارع بورتربيلو » .

- « لماذا قتل هذا البحار في رأيك ؟ » .

هزّ كتفيه باستخفاف وقال : « ربما حدث شجار ، لعلهم من مدمني المخدرات ، هناك شيء واحد يحيرني ! » .

- « ما هو ؟ » .

- « من المؤكد أنه رمى السكين في وسط حوض الزهور وهو يهرب مذعوراً ثم عاد ليأخذها ، وذلك على الأرجح لأنه أدرك أنها قد تحمل بصمات أصابعه ، ومن المنطقي أن يجد طريقه بسرعة إلى وسط الحوض ليأخذ السكين ثم يسرع بالهروب ، إلا أنه مشى على أطراف أصابعه وحرص على ألا يخلف وراءه أي أثر ، فلماذا فعل ذلك ؟ » .

- « لعلّه أراد أن يخفي الأمر عنكم » .

- « لكن لماذا ؟ ما الفرق ؟ إن كان يريد إخفاء آثاره فلماذا لم يُخفِ السكين في الشجيرات ، حيث يمكن أن يتأخر اكتشافها ليوم أو يومين ، ولماذا لم يأخذ أوراق البحار الثبوتية حتى لا تُعرف هويته ؟ عندها قد لا تُكتشف السكين قبل أن يبدأ التحقيق » .

- « لعلّه كان على عجلةٍ من أمره » .

- « لا ، وإلا كان ترك آثاراً في حوض الزهور تدلّ عليه » .

- « إذاً ، فكيف تفسرّ ذلك ؟ » .

- « ليس لدي تفسير محدد ، إنما لدي مجرد شعور . . . شعور بوجود شيء غريب . . . » .

وضعت الفطور أمام زوجها وقالت : « لست مضطراً للتفكير بالأمر ، فهي ليست قضيتك ، والمفروض أنك في إجازة » .

أدرك سلتفليت ما ترمي إليه وتوقف عن الخوض في موضوع القضية . وهو لا يحاول أساساً أن يفكر بالحلّ عندما يكون التحقيق في مرحلته الأولية ، بل يحاول أن يطلق حدسه وغرائزه التي قد تكون أحياناً بمثابة الحاسة السادسة ، ففي قضية عاريات التايمز مثلاً ، كان يشعر منذ البداية أنهم لن يمسكوا بالقاتل ، بل إنه سوف ينتحر بمجرد دنوهم منه . وفيما بعد ، عندما أقدم المشبوه الرئيسي على الانتحار وتوقف سيل الجرائم ، حاول أن يفسر لنفسه كيف عرف من قبل . فرأى أن الرجل الذي يقتل النساء وهو في قمة شهوته الجنسية - يخنقهن وهنّ يمارسن الجنس عن طريق الفم - مختلف بشكلٍ ما عن القاتل الجنسي المعتاد . وأن رجلاً كهذا لا بد أن تنتابه هستيريا الشفقة على نفسه عندما يشعر بدنو الشرطة منه . إلا أنه عندما التقى بقاتل جنسي آخر - جونز مغتصب الأطفال - شعر بأنه يقف مرة أخرى أمام قاتل تغلب عليه نفسية الولد الفاسد ، الذي تهمه رغباته الخاصة أكثر من أي شيء في العالم . لكن جونز لم يكن بالتأكيد من النوع الانتحاري . كان سلتفليت مرغماً على الاعتراف بأن حدسه لا يمكن أن يوصف بشكلٍ منطقي . فهو ببساطة طريقة غريبة في « المعرفة » . كأنه يتصل بطريق الصدفة بعقل المجرم ، كأنه يستمع بطريق الصدفة إلى حديث هاتفي للمجرم مع شخصٍ آخر . أما في هذه الحالة فإن حدسه يقول له إن هناك شيئاً غريباً بالنسبة إلى الرجل الذي عاد من أجل السكين .

كان يشرب فنجانه الثالث ويقرأ صحيفة « التلغراف » عندما قرع جرس الباب ، سألت ميرندا من الداخل : « من يمكن أن يكون ؟ » .

- « لعله فينش مفتش التحري من قسم هامرسميث لقد دعوته إلى تناول القهوة » .

فتحت ميرندا الباب ، وسمعها تقول وفي صوتها وقع المفاجأة :

- « أهلاً فرانسيس » .

وأجابها الرجل : « مرحباً يا عزيزتي ، يا لها من مفاجأة سارّة » .

ثم عرف صاحب الصوت ، إنه اسبينال طبيب الباثولوجي في مستشفى كليّة الجامعة .

قالت ميرندا : « جريجوري في الداخل » .

دخل اسبينال ، ومعه فيتش ، وهو رجل طويل نحيل ، دائم السخرية يذكر بمدير مدرسة رسمية يسخر من كلّ شيء . كان العديد من زملاء سلتفليت لا يحبونه . إلا أن سلتفليت كان يرى من خلال تعاونه معه في اثنتي عشرة قضية أنه شخص مفيد وجدير بالثقة .

ـ « فرصة سعيدة يا مجرجوري ، هل تعرف جورج فيتش ؟ » .

ـ « بالطبع ، اجلسا ، أتريدان قهوة ؟ » .

ـ « بدون حليب » قال اسبينال وأضاف :

ـ « قضيت ليلة جدّ مرهقة البارحة » .

تحاشى سلتفليت سؤاله عمّا حدث . كان اسبينال عازباً وقد أقام علاقات مع مجموعة من النساء الفاتنات ، حتى أن سلتفليت لم يكن متأكداً إن كان يحسده أو يشفق عليه .

ـ « هل أضع قليلاً من البراندي في القهوة ، لعلّه ينعشك ؟ » .

ـ « فكرة رائعة » .

أحضر سلتفليت الزجاجة من الغرفة الأخرى وبدأ يصبّ البراندي في القهوة فأوقفه اسبينال قائلاً :

ـ « هل تضع لي كوباً من البراندي فقط ، أظنها زجاجة « ريمي مارتن » ومن المؤسف أن تفسد مذاقها » .

وبدون أن تتفوه بكلمة ، ذهبت ميرندا لإحضار أقداح البراندي .

التفت سلتفليت إلى فيتش وسأله : « هل تريد براندي ؟ » واضعاً فوّهة زجاجة البراندي على فنجان قهوته .

ـ « شكراً ، كمية قليلة جدّاً » .

بالطبع كانت فخامة البيت قد أذهلت فيتش ، إلا أنه قرر عدم استخدام لقب « سيدي » بما أنها زيارة اجتماعية . كان فيتش من التحريين الذين يبدو عليهم الكبر قبل الأوان ويميلون إلى البدانة ، وكأن سنوات كفاحهم سعياً وراء منصب المفتشية في المناطق لا تستأهل كل هذا التعب .

كان يبدو تعباً ، إلا أن رائحة البراندي ما لبث أن أنعشته .

سأله اسبينال « هل أنت في إجازة ؟ » .

ـ « حتى الأربعاء القادم ، إننا نحافظ على بيت شقيق ميرندا » .

ابتسم اسبينال لميرندا وقال : « لا بدّ أنك سعيدة بالجريمة التي حصلت في الجوار فهي أمر يشغل جرجوري عن البقاء في البيت » .

كان دائماً يطريها بأدب وكانت تعرف أن الأمر لا يعدو كونه نوعاً من المجاملة .

ـ « لا تقل هذا ، بل إني آمل في أن نخرج للتسوق معاً ونذهب إلى بعض المسارح » .

فابتسم سلتفليت وقال : «أعدك بذلك » ثم توجه إلى فيتش : « هل لديكم أي فكرة عن الدافع ؟ » .

فتنهدت ميرندا واستأذنت .

فقال فيتش بعد خروجها : « يعتقد الدكتور أن الغيرة هي الدافع » .

ـ « مجرّد تخمين » قال اسبينال بصوتٍ منخفض حتى لا تسمع ميرندا إن كانت في مكان قريب . وأضاف : « لم تمرّ عليّ سوى ثلاث حوادث من هذا النوع ، تتعرض فيها الأعضاء الجنسية للجذم وفي الحالات الثلاث كانت الغيرة هي الدافع » .

ـ « لم ألاحظ أي جذم ؟ » قال سلتفليت .

ـ « إنها محاولة فقط ، إلا أنها واضحة » .

ـ « إذا افترضنا أنه بحار بولندي يمضي إجازة قصيرة على اليابسة ، فلن يكون لديه الوقت للتورط في علاقة حب ثلاثية » .

ـ « هذا ما علينا أن نعرفه » قال فيتش وهو يفتح دفتر ملاحظاته ! .

ـ « لقد تتبعنا السفينة « ستيفان باتوري » ، ووجدنا أنها رست في ميناء تلبوري يوم الخميس الماضي ، وأرسلنا تحرياً إلى الميناء ومن المفترض أن يكون قد وصل » .

سأل سلتفليت اسبينال : « لماذا لم يصرخ ؟ » .

ـ « لقد طُعن في قلبه ، لا بدّ أنه مات على الفور » .

ـ « كم كانت زاوية الجرح ؟ » .

قام اسبينال وضرب سلتفليت ضربةً خفيفة على كتفه وقال :

ـ « عظيم ، يا مجرجوري عظيم جدّاً » .

لم يتمكن فيتش من إخفاء حيرته ، ثم قال اسبينال : « كانت باتجاه الأعلى ، من تحت القفص الصدري » .

فقال سلتفليت « هه » .

فأخذ فيتش ينظر إلى سلتفليت تارةً وإلى اسبينال تارةً أخرى . فأوضح سلتفليت : « ليس من السهل طعن المرء في القلب فالأضلاع تردّ الضربة ، هل تذكر جوني برمان ؟ » .

هزّ فيتش رأسه : « كان أحد رجال العصابات في الإيست أند ، وكان يقوم بعملية خيانةٍ مزدوجة ، تلقينا معلومات تفيد بأن زعيمه ، وهو رجلٌ يُدعى رويس ، أمر بقتله ، ثم وجدنا الجثة بعد ذلك بعدّة أشهر في غاية بالقرب من أوكهوست . كانت الجثة في حالة سيئة جداً ، إلا أن فرانسيس استطاع أن يبين أنه طُعن من الأسفل باتجاه الأعلى بسكينٍ طويلة الحدّ . كان ساعد رويس الأيمن رجلاً كورسيكياً يُدعى ألفردو . . . اتصلنا بشرطة كورسيكا ، تذكرت اسمه ألفردو روسيني ، فأخبرونا أن روسيني هذا متهم بعدّة جرائم قتل في مرسيليا ، وأن ضحاياه تُطعن دائماً في القلب ومن الأسفل . وأن هذا الرجل يتقن استخدام السكين ، بحيث تصيب الطعنة القلب دائماً . لم نستطع أن نثبت أن روسيني هو القاتل ، إلا أننا طردناه من البلاد بناءً على تهمة أخرى . . . » .

سأل فيتش : « هل تظنّ أن هذه إحدى جرائم العصابات ؟ » .

ـ « ممكن ، لعلّ هذا البحار متورطٌ بأمرٍ ما . . . تهريب مخدرات ربما ، إلا أن ذلك ليس ما أرمي إليه ، فإن كان القاتل قد طعن القتيل من الأسفل باتجاه الأعلى فلا بد أن لديه الخبرة باستعمال السكين » .

ـ « إنها إذاً طريقة كورسيكية » .

ـ « لست متأكداً ، فهي منتشرة بين اللصوص والمجرمين في منطقة المتوسط » .

قال اسبينال : « إن كنت لا أزال أذكر فإن رجال العصابات اليونانيين كانوا يستخدمون الطريقة نفسها لقطع القصبة الهوائية » وأعاد تمثيل الطعنة بيده .

رنّ الجرس ، وسمعا ميرندا تفتح الباب ، ثم توجهت إلى المطبخ

وقالت : « حضرة المفتش فيتش يريدونك أن تخابر المركز » .

ـ « شكراً سيدتي ، هل يمكن أن أستخدم هاتفكم ؟ » .

قال سلتفليت : « يوجد هاتف في الغرفة المحاذية » .

وعندما انفردا سأل سلتفليت اسبينال : « ماذا تظن ؟ » .

ـ « إنها قضية محيرة ، قد أستطيع أن أزوّدك بمزيد من المعلومات بعد تشريح الجثة ، إلاّ أني أشكّ في ذلك » .

دفع سلتفليت زجاجة البراندي نحوه .

فقال اسبينال : « شكراً ، جرعة صغيرة فقط ، الجواب على هذه التساؤلات يوجد على الأرجح في حياة القتيل الخاصة ، فربما كانت له عشيقة في لندن ، أو عشيق ، وقد يكون من المتورطين بتهريب المخدرات أو التجسس ، وفي هذه الحال يكون العنصر الجنسي مجرد محاولة للتضليل والتمويه . . . على أي حال أنت محظوظ فهي ليست قضيتك » .

فابتسم سلتفليت وهزّ رأسه قائلاً : « أكاد أشعر أنها قضيتي فعلاً » ثم أقفل باب المطبخ وقال : « سأخبرك شيئاً لم أحدّث فيتش به ، أيقظني شيء ما في الليل ـ فغرفة نومنا تطلّ على الحديقة » .

ـ « ولكن لم يسمع أحد سواكَ شيئاً ! » .

ـ « حتى أنا لا أعرف إن كنت سمعت ، كل ما في الأمر أني صحوت من نومي ، حتى أني لا أعرف متى حدث ذلك » .

ـ « هل حاولت أن تنظر إلى الحديقة ؟ » .

ـ « أجل ، ذهبت إلى النافذة ، كان ضوء القمر ساطعاً إلا أني لم أرَ شيئاً ، بل سمعت وقع أقدام امرأة » .

ـ « كانت تركض ؟ » .

ـ « لا كان وقع أقدام طبيعية لامرأة تمشي برشاقة ، إنما بدون عجلة » .

هزّ اسبينال رأسه وقال : « لا أعرف كيف يمكن لهذا أن يكون وقع أقدام امرأة ، لقد أراني فيتش أثراً للقدم في حوض الزهور ، إلا إذا كان هناك اثنان ، هل ستخبر فيتش ؟ » .

ـ « لا أرى جدوى من ذلك ، قد أرسله وراء دليل خاطىء ، وأجعله يبحث عن امرأة بينما . . . » .

فُتح الباب ودخل فيتش : « عليّ أن أذهب أيها السيدان » .

ـ « هل من جديد ؟ » .

ـ « ليس بالكثير ، يقول رجلنا في تلبري إن البحار غادر باخرته حوالى الساعة الثانية من عصر البارحة ، وهو معروف بحبه للوحدة فغالباً ما يخرج وحيداً ، وهم يعتقدون أنه كان يحاول أن يجد امرأة ، ويمكن أن يكون سلاح الجريمة سكينه الخاص ، إذ يبدو أنه يحمل عادة نوعاً خاصاً من السكاكين ـ سكين كباس ـ النوع الذي يُستخدم في البلطيق لإفراغ أحشاء السمك . يقول أصحابه أنه كان يحمل دائماً سكيناً من هذا النوع ، على أثر الاعتداء عليه بقصد السرقة في غلاسكو . لكننا لم نجدها في جيوبه » .

فسأل سلتفليت : « وماذا عن المال ؟ » .

ـ « أخذ مائة ليرة استرلينية من محاسب السفينة قبل تركه الباخرة ، وكان لا يزال يحمل ثمانين ليرة في محفظته » .

أفرغ فيتش بقية فنجان القهوة في جوفه وقال : « شكراً ، هذا ما كنت بحاجة إليه بالضبط ، عليّ أن أذهب الآن » .

رافقه سلتفليت إلى الباب قائلاً : « سأحاول أن أتصل بتلك المرأة القي ، هل تريد أن تعرف أي شيء منها ؟ فهي على معرفة بكل ما يدور في الجوار » .

ـ « شكراً ، تعرف أين تجدني ، أو تجد مساعدي الرقيب لارسن » .

ـ « أرجو أن لا يعتبر « سكوتي » ذلك تطفلاً مني » .

المفوض « سكوتي » هو رئيس فيتش في السكوتلانديارد وكان يتزعج من أي تدخل في منطقته .

قال فيتش « أنا لن أخبره إن لم تفعل أنت » .

في المطبخ كان اسبينال يكمل فنجان قهوته فقال سلتفليت :

ـ « غريب أمر الثمانين ليرة » .

ـ « غريب ؟ » .

ـ « لو كان عضواً في عصابة ما ، لكانوا سرقوا أمواله كي يبدو أن القضية قضية سرقة » .

وقف اسبينال وقال : « هل تحب أن أطلعك على ما قد أكتشفه من جديد

من خلال التشريح ؟ » .

ـ « لا ، شكراً » .

ـ « هل أنت متأكد ؟ » .

ـ « متأكد جداً ، فهي ليست قضيتي ، أليس كذلك ؟ » .

2

عندما رجعا من السوق ، بعد حوالى ثلاث ساعات ، وجدا جيرالدين جالسة على عتبة الباب . فأحسّ سلتفليت بالسرور يملأ نفسه إلا أنه ما لبث أن انقلب إلى خوفٍ شديد : « ماذا تفعلين هنا ؟ » .

فقبّلته وقالت : « لقد مللت حي التايمز ديتون ففكرت بأن آتي لأراكما » .

مضوا إلى المطبخ ووضعت ميريندا مشترياتها على الطاولة ، ففتحت جيرالدين البراد وصبّت لنفسها كوباً من الحليب وقالت : « أكاد أموت من الجوع . . . ما هي مشاريعكما لفترة ما بعد الظهر ؟ هل لديكما أيّة فكرة جيّدة ؟ » .

ـ « فكّرنا بالذهاب إلى حديقة ريجني لتناول الشاي » .

ـ « جيد ، وهل نستطيع الذهاب إلى حديقة الحيوانات ؟ » .

ـ « أظن ذلك » .

قال سلتفليت : « لن أتناول الغداء في البيت ، يجب أن أرى شخصاً ، سأعود بعد ساعة » .

* * *

كانت آثار الجريمة قد أزيلت ، ولم يعد هناك أي أثر يدلّ على حدوث شيء . فتساءل سلتفليت عمّا فعلوا ببقع الدم . لعلّهم غطّوها بأوراق الأشجار . لعلّ اسبينال قد انتهى من تشريح الجثة الآن . وبينما كان يمشي في شارع بورتوبيلو ، قادته أفكاره مرّة أخرى نحو جيرالدين ، إنه يفهم لماذا جاءت : انتابها الشعور نفسه بالحزن والرغبة بإصلاح الأمر بينهما ، إلا أنه

ليس بوسعها القيام بأي شيء ، فهما ليسا عاشقين كي يقبّلا بعضهما ويجددا العلاقة بينهما . أحسّ بالقلق عندما تراءى له أن ليس ثمّة حلّ لهذا الوضع لكنه على الأقلّ يشعر بالامتنان لقيامها بهذه المحاولة .

كان البار مكتظاً . ورأى ألفي تجلس في زاوية برفقة فتاتين أخريين . كان شعرها الأحمر علامة فارقة لا يمكن أن يخطئها أحد ، إلا أنه فوجىء لدى اقترابه منها . بمدى التغيّر الذي أصابها . كانت جذّابة بل وشبه جميلة وإن كان جمالها معدنياً صلباً ، بخدّيها المرتفعين وشفتيها الممتلئتين ، أمّا الآن فهي امرأة « أربعينية » تميل إلى البدانة .

ـ « مرحباً ألفي ، هل أقدّم لك كأساً » .

ـ « أهلاً جريج » ردّت ألفي بصوتها المبحوح الجميل الأكثر اختناقاً من صوت المرأة الطبيعي ، وتابعت :

ـ « تسرّني رؤيتك » .

فوجىء سلتفليت وهو يلاحظ أنها فعلاً تعني ما تقول .

ـ « كأسك فارغ » .

ـ « شكراً . جين وتونك » .

ـ « وماذا عن صديقتيك ؟ » .

هزّت المرأتان رأسيهما وقالتا : « لا ، شكراً » .

وعندما عاد بالمشروب كانت المرأتان قد رحلتا .

ـ « آمل ألاّ أكون أنا السبب » .

ـ « كانتا ذاهبتين على أيّ حال ، في صحتك » .

أنعشه الشراب البارد إذ كان يشعر بجفاف في حلقه بعد مشوار السوق الصباحي : « كيف حال جو ؟ » .

ـ « ليس سيئاً ، إننا متزوجان الآن ، كما تعلم » .

ـ « أجل ، سمعت بذلك » .

ـ « إنه مصاب في ظهره وعليه أن يقضي معظم أوقاته مستلقياً » .

ففكّر في نفسه« أليس هو نفسه جو الأميركي الجنوبي أحد أقوى القوادين الذين التقى بهم وأكثرهم وحشية » .

تحدّثا عن الأيام الماضية وعن معارفهما المشتركين ، كانت لا تزال على حيويتها وصراحتها الهجومية اللتين طالما أعجب بهما ـ إلا أنه حزن لمدى تغير شكلها . فعندما رآها آخر مرّة قبل ست عشرة سنة ، كان لها قوام خارق ، نهدان كبيران مدوّران . كان شعرها الأحمر يحمل الجميع على الإلتفات إليها ، إلا أن الأنظار كانت لا تتحوّل عن وركيها وفخذيها . كانت معتادة أن تلبس تنورة ضيقة وتلوي وسطها بطريقة تجعل وركيها يشدّان على فخذيها مما يبرز مفاتنها الأمامية . وكان جو يصفع ردفيها ويقول إنها تملك منجم ذهب داخل تنورتها ، وفي الحقيقة كانت تؤمن له أكثر من مئة ليرة استرلينية في الليلة . واليوم لا يزال النهدان على حالها . إلا أنهما لم يعودا بارزين كالسابق . واختفى الخصر وتهدّل جلد عنقها . الوجه وحده لم يتغير ، إلا أنه لم يكن جميلاً أساساً . فمكها كبير وأسنانها غير منتظمة بفعل إحدى المشاجرات .

كان قد أخبرها عن الجريمة على الهاتف ، إلا أنه قرر ألاّ يتحدث عنها ما لم تبادر هي إلى ذلك . كان يريدها أن تثق به ، فهي أكثر أهمية كحليف منها كمرشد ، وبينما كانت تشرب كأسها الثاني أخذت تخبره عن المومسات المحليات ، للاحتجاج على مضايقة الشرطة لهنّ ، فدخلن الكنيسة واعتصمن فيها أسبوعاً . قال : « إلا أن عددهن قلّ كثيراً الآن » .

ـ « أنا لا أتحدّث عن هذه الأيام ، بل عمّا كان قبل عشر سنوات . ولقد تغيّر الوضع كثيراً منذ ذلك الحين ، كان أغلبنا لا يعرف ماذا يجري في البداية . كان جو يقرأ مجلة في أحد الأيام فرأيت فيها صورة فتاة أنزلت بنطلونها ووضعت اصبعها في داخلها فقلت له : « يا إلهي من أين أتيت بها ؟ » فردّ قائلاً : « من بائع المجلات في نوتنغ هيل غايت » . لم أستطع أن أصدّق ما رأيت فأرسلت لإحضار المزيد من المجلات ، وكانت جميعها متشابهة ـ مليئة بصور نساء يبرزن كلّ ما لديهنّ . فبدأنا جميعاً بالإعلان في هذه المجلات ، بدلاً من الإعلان داخل الماخور ، ولم نلتفت أبداً إلى الوراء ، وهناك من تحصل الآن على أكثر من ألف ليرة استرلينية في الأسبوع » .

ـ « إلا أن إيجار الغرف مرتفع » .

ـ « خمسون ليرة يومياً في المعدّل ، إلا أنه عندما تطلب بين العشرين والمائة ليرة لقاء مرّة واحدة ـ حسب طلبه ـ فإن هذا المبلغ لا يعني شيئاً ، وبالطبع فإن

العديد منهن يتشاركن في الغرفة فتصبح الأجرة خمساً وعشرين ليرة في الليلة » .

ـ « اثنتان في غرفة واحدة ! » .

ـ « ليس في الوقت نفسه ، فالكثيرات لا يعملن بدوام كامل ، في هذه الأيام ، كربّات البيوت اللواتي يرغبن في زيادة مدخولهنّ . وقد تجتمع اثنتان منهن ، واحدة تعمل قبل الظهر وأخرى بعده » .

فسأل بشكل عادي : « هلا زلت تعملين هنا ؟ » .

ـ « أجل فهو لم يسمح لي بالتقاعد حتى الآن وأنا متخصصة فيما يسميه « السيطرة » : الأحذية الطويلة السوداء بطول الفخذ ، العباءة السوداء ، سوط الثور » .

أخذ سلتقليت يضحك متخيلاً المشهد فضحكت معه وقال أخيراً : « حسناً إني مسرور لأن كل شيء على ما يرام » وكان يعني ذلك بالفعل .

ـ « آه ، إن الوضع لا بأس به ، والمضحك أني لا أحبّ هذه الأشياء . في إحدى المرّات كان عليّ أن أمشي بكعب عالٍ ذهاباً وإياباً فوق أحدهم فتعثرت وكدت أخصيه وغطّى الدم المكان . وكادت هذه الحادثة أن تقصيني عن عملي نهائياً » .

ـ « كيف كانت ردّة فعله ؟ » .

ـ « لم يهتم بالأمر ، بل تضايق عندما رآني متكدرة ، كان يود أن يعتقد بأني فعلت ذلك عن عمد ، كي أجعله يتألم ، وما إن نعته بالخنزير حتى تهللت أساريره . . . » .

ورغم أنه كان يضحك معها ، إلا أن شعوراً بالشفقة والرغبة في حمايتها طغى عليه ، مما جعله يفكر بجيرالدين . فلقد اكتشف فجأة أن النساء ضعيفات وسريعات التعرض للمصاعب . لاحظت الفي تجهم وجهه فقالت :

ـ « هل صدمك هذا ؟ » .

فردّ بأول تبرير تبادر إلى ذهنه : « آه ، كلا بالطبع ، إلا أني كنت أفكر بذلك البحار البولندي المسكين ، فلقد حاول أحدهم أن يخصيه » .

ـ « وهل فعلوا ؟ » وكانت الطريقة التي تحدق فيها بكأسها توحي بأنها

تركت شيئاً لم تقله ، فلم يرد سلتفليت محاولاً أن يطيل الصمت فقالت :

- « كان هنا ليلة البارحة » .
- « هل أنتِ متأكدة ؟ » .
- « الفتاتان اللتان كانتا معي لدى قدومك . . . لقد حاول أن يأخذهما معه » .
- « كيف تعرفين أنه الرجل نفسه ؟ » .
- « أجنبي أحمر الشعر قصير ويداه كأنهما يدي قرد . . . . » .
- « حاول أن يأخذ الفتاتين معاً ؟ » .
- « أجل ، قال إنه يحب أن يكون مع امرأتين في الوقت نفسه » .
- « لماذا لم تذهبا معه ؟ » .
- « لم يعجبهما شكله ، وقالتا إنه غريب الأطوار » .
- « غريب كيف ؟ » .
- « إنه من نوع معين ، فالرجل الذي يريد امرأتين في وقت واحد يريد منهما على الأرجح أن تخلعا ملابسهما وتركعا بالقرب من قدميه . إنه يريد أن يشعر بأنه السيد المطلق » .
- « سادي » .
- « على الأرجح ، بل الأكيد أنه كان سيطلب شيئاً غير مألوف ، لعله أراد أن يمارسا الجنس معه في الوقت نفسه » .

قرر سلتفليت ألاّ يضغط للحصول على مزيدٍ من التوضيح ، وأخذ يرشف البيرة وقد استغرق في التفكير ، ثم قال :

- « هذا على الأرجح يفسر الكثير من الأمور ، فلا ريب في أن هذا هو ما حصل ، أراد شيئاً غريباً كما تقولين - فانتهى ميتاً » .
- « وهذا ما يبدو لي أنا أيضاً » .
- « إذاً كنت أفكر بشكلٍ خاطىء » .
- « ماذا كنت تظن ؟ » .
- « إن زاوية الطعنة جعلتني أعتقد بأن وراءها رجلاً معتاداً على استخدام السكين ، ولعله من كورسيكا أو من جزر الهند الشرقية . هل تعرفين أحداً من هذا النوع في الجوار ؟ » .

ففكرت قليلاً وقالت : « لا أحد » . تذكر سلتفليت أن زوجها نفسه

يحمل دائماً سكيناً من هذا النوع ، وبدا أنها كانت تقرأ أفكاره فقالت :

- « لا ليس جو فهو مصاب في ظهره » .

فابتسم وقال : « أنا متأكد أنه ليس جو ، هل قالت صديقتاك أي شيء آخر ؟ » .

حدّقت به وقالت : « ما هو سر اهتمامك ، قلت لي إنك في إجازة ، ألا يستطيعون العمل دون مساعدتك ؟ » .

هذه اللهجة شبه العدوانية ، أقنعته بأنها تعرف أكثر مما أخبرته فسألها :

- « ألا يثير فضولك مقتل شخص في الشارع المواجه مباشرة لغرفة نومك ؟ » .

« كلا ، فذلك يحدث كلّ ليلة » .

- « ماذا قالت لك صديقتاك ؟ » .

رشفت من كأسها ، مستمتعة بإطالة انتظاره فهو بالنهاية شرطي وقالت أخيراً : « لدى خروجهما شاهدتاه يتحدث مع بائعة هوى شقراء في الخارج » .

- « هل تعرفانها ؟ » .
- « كلا ، على الأقلّ ليس بالاسم ، بل كانتا تلتقيان بها في الحي » .
- « وهل شاهدتها أنت في الحي ؟ » .
- « أجل » .
- « هل تعرفين اسمها ؟ » .
- « كلا » .

نظر إليها وردّت اليه نظرته ، كانت صادقة فيما تقوله بالتأكيد .

- « هل بإمكانك وصفها ؟ » .
- « ليست محترفة ، وجهها شاحب قليلاً وعيناها تشبهان عيني أرنب خائف » .
- « عندما تقولين ليست محترفة ، هل يعني ذلك أنها تعمل لتدفع الإيجار أم للمتعة ؟ » .
- « أظن أنه للمتعة » .

في السنوات التي قضاها في شرطة الأخلاق مرّت على سلتفليت عدّة

حالات من هذا النوع : مومسات اخترن مهنتهن لأنها مهنة رومنطيقية ، كما يحلم بعض الفتيان بأن يصبحوا رجال عصابات وقراصنة ، وأغلبهن من الطبقة المتوسطة .

ـ « أهي امرأة عاملة ؟ » .

ـ « من الصعب معرفة ذلك ، فأنا لم أتحدث إليها ، إلا أني لا أظن أنها من العاملات » .

ـ « ألديك فكرة عن مكان وجودها ؟ » .

هزّت رأسها : «إلا أنها بالتأكيد من سكان الحي ، وسأرشدك إلى من يحتمل أنه يعرف شيئاً عنها : تيري ناش » .

ـ « أين أجده ؟ » .

ـ « إنها امرأة ، هل تنتظر ريثما أتصل بها ؟ » .

ومضت دون أن تنتظر الجواب ، كانت تلك هي طبيعتها منذ أن التقاها أول مرة ، كانت الشرطة المحلية تعتبرها غير متعاونة وصعبة المراس ، إلا أنه اكتشف عندما كان يعمل على قضية عاريات التايمز ، أنها من الممكن أن تكون أكثر إفادة من مجموعة مخبرين فعمل على كسب ثقتها . وما لبث أن تلقى « إخبارية » منها ، ساعدته في اقتفاء أثر المتهم الرئيسي ، الرجل الذي انتحر فيما بعد .

عادت ألفي بسرعة وقالت : « أنت محظوظ ، هيا بنا » .

وحملت كأسها وشربته دفعة واحدة فلحق بها إلى الخارج .

ـ « هل تعرفين الفتاة ؟ » .

ـ « أعرفها جيداً » .

كان البيت في شارع خلفي متفرع من شارع وستبورن بارك . ضغطت ألفي على جرس الباب ، ثلاث مرات سريعة ، ففتحت الباب فتاة ترتدي زي وصيفة أنيقاً ومريلة بيضاء ، وجهها شاحب وشعرها مسدل أهدل أسود قاتم ، ولمح سلتفليت وهي تقودهما إلى الطابق العلوي ، فخذيها العاريين يعلوان الجوربين الأسودين . لحقا بالفتاة إلى المطبخ ؛ فقالت ألفي :

ـ « تيري ، هذا هو المفتش سلتفليت » وهي رتبته عندما تعرّف إليها « وهو صديق قديم » .

صافحته الفتاة ببرودة وصلابة . لم تكن جميلة ، خصوصاً بأنفها الأفطس وفمها العريض ، إلا أنها كانت تتميز بوجه هو أقرب إلى وجوه الكوميديين بالسليقة .

قال سلتفليت : « إن الأمر يتعلق بتحقيق في جريمة قتل » .

ـ « أجل ، لقد أخبرتني ألفي ، ذلك البولوني » .

ـ « هل سمعت بالحادثة » .

ـ « أذيعت في نشرة الأخبار المحلية ظهر اليوم » .

ـ « كان يتحدث إلى فتاة شقراء ذات وجه شاحب ، ألفي تظن أنك قد تعرفينها » .

ـ « هذه الأوصاف تنطبق على روزي » .

ـ « هل تعرفين اسمها الآخر ؟ » .

ـ « كلا » .

ـ « هل لديك فكرة عن مكان إقامتها ؟ » .

ـ « كلا ، إلا أنها تخضع للمعالجة في مستشفى للمجانين » .

فوجىء وحدّق إليها متسائلاً :

ـ « هل أنت متأكدة ؟ » .

ـ « هكذا قالت لي » .

ـ « هل قالت أين ؟ » .

ـ « في مكان ما خلف شارع ستانلي كرسنت » .

ـ « أي على بُعد حوالى مائة متر عن مكان الجريمة » .

ـ « لا ، إنها لا تتورط في قضايا من هذا النوع » .

حداه اقتناعها التام إلى سؤالها :

ـ « وما الذي يؤكد لك ذلك ؟ » .

ـ « مجرد أنها ليست من هذا النوع ، إنها من النوع الذي لا يؤذي نملة » .

سمع صوت إغلاق باب ، ثم صوت وقع أقدام تنزل الدرج . فقالت تيري :

ـ « بالإذن » .

وفتحت باب المطبخ ، ففوجىء سلتفليت بامرأة ترتدي ثياباً صفراء وقناعاً مطاطياً أسود يغطي رأسها كله ؛ فبدت كأحد الوحوش الهاربة من أفلام الرعب الهوليودية .

قالت تيري : « أهلاً موريا ، لم أكن أعتقد أنك أنهيت عملك » .

ـ « لم أنته بعد ، إلا أنه يأخذ وقته » .

كانت تتحدث بلهجة جزر الهند الغربية ، وبدخولها إلى المطبخ لاحظ سلتفليت أنها لا ترتدي شيئاً تحت البذلة المطاطية الصفراء الرقيقة . وبعد أن خلعت القناع بكلتا يديها لاحظت وجود سلتفليت .

ـ « آه ، آسفة ، هل تنتظر دورك ؟ » .

فردّت تيري بسرعة : « لا إنه إحد أصدقاء ألفي » .

ـ « أحسن » وتهاوت على أحد الكراسي « أريد فنجان شاي » .

أدارت تيري إبريق الشاي الذي يعمل على الكهرباء .

ـ « ماذا عملت معه ؟ » .

ـ « إنه متوتر قليلاً ولكنه سوف يكون على ما يرام » .

أشارت ألفي إلى سلتفليت وقالت : « المفتش سلتفليت ، وهو ليس في مهمة رسمية هنا » .

قالت تيري : « إنه يسأل عن روزي » .

أصدرت صوتاً يشبه الخوار تعبيراً عن ازدرائها ثم تناولت سيجارة من علبة على الطاولة . حاول سلتفليت وهو يشعلها لها أن يمنع نفسه من التحديق في حلمتيها الزهريتين البارزتين خلف الثوب المطاطي الشفاف ، لم يدر بخلده من قبل أن الثوب المطاطي قد يكون مثيراً إلى هذه الدرجة . أشعل لها سيجارة فأومأت برأسها شاكرة وسألت :

ـ « متى يحين موعد الرجل التالي ؟ » .

ـ « ليس قبل الثالثة والنصف ، إنه دور الحاخامين » .

فتنهدت قائلة : « إنهما لطيفان » .

وسألت سلتفليت « هل روزي في ورطة ؟ » .

ـ « لا لا ، إلا أنها شوهدت تتحدث إلى رجل وُجد مقتولاً صباح اليوم » .

كان يبدو عليها الإرهاق الشديد ، وقالت بعد قليل :

ـ « إنها لا تقتل أحداً » .

ـ « وهذا هو رأي تيري أيضاً » .

قالت تيري : « من يريد الشاي ؟ » .

فلما لم يجب أحد ناولت الفتاة السمراء كوبها وقالت :

ـ « هل أذهب لأرى إن كان الرجل بخير ؟ » .

ـ « كلا ، لا داعي لذلك ، سيصبح على ما يرام » .

رشفت قليلاً من الشاي ، ثم تنهدت وفكت سحاب ثوبها حتى الخصر ، فلاحظ سلتفليت أن صدرها لم يعد مثيراً جنسياً بعدما نزع الغطاء المطاطي عنه .

سألها مفتتحاً الحديث معها .

ـ « هل تعرفين روزي هذه ؟ » .

ـ « أجل ، بالطبع ، كانت هنا » .

فأضافت تيري : « كانت تقول إنها تودّ الاحتراف » .

فقالت موريا بإنجليزيتها الركيكة :

ـ « لن تكون جيدة » .

فسأل : « ولِمَ لا » .

ردّت تيري : « إنها ماسوشية ، تحب أن تتألم ، وسينتهي بها الأمر إلى القتل أو السرقة أو أي شيء من هذا القبيل » .

وقالت ألفي : « لقد قلت لك إنها مجنونة ، يجب التعامل مع « هذا » على أنه نوع من العمل وليس وسيلة لتلقي الضربات والركلات » .

ولسبب ما ، وجدت النسوة الثلاث أن كلامهنّ مضحك فانفجرن بالضحك .

ـ « ألديك فكرة عن عنوانها ؟ » .

قالت موريا وهي لا تزال تضحك « سجلت عنوانها في مكانٍ ما في د

أرقام الهاتف » .

ثم التفت نحو تيري : « تيري أنتِ تعرفين مكانه » .

فأومأت برأسها وخرجت . نظر سلتفليت إلى ساعته وفوجىء أنها تقارب الثالثة وهو وعد ميرندا وجيرالدين بأنه سيعود خلال ساعة . وكان يتساءل بينه وبين نفسه عما إذا كان يجب أن يطلب منهن استخدام الهاتف .

صرخت تيري من الداخل : « موريا ، أسرعي ، أظن أنه مات » .

فهرعت الفتاتان إلى خارج الغرفة وتبعهما سلتفليت . كان الباب مفتوحاً ، وبدا بالقرب من الجدار المقابل صليب علّق عليه رجل يرتدي زياً مطاطياً أصفر ، كان معصماه مربوطين إلى الصليب وقد تدلى رأسه على صدره ، وبرز عضوه الذكري المائل من ثقب الثوب .

أسند سلتفليت الرجل من ابطيه بينما انهمك النسوة في فك الأربطة المطاطية . كان الرجل سبعينياً أشيب الشعر ، وكان فمه مفتوحاً يخرج الزبد من طرفه .

بدا أنه لا يتنفس . ساعدهن سلتفليت في نقله إلى السرير المزدوج الضخم . وضعت تيري أذنها على صدره وقالت :

ـ « قلبه ينبض ، كل ما في الأمر أنه أغمي عليه » .

فتنهدت موريا وقالت : « الحمد لله » .

وبغريزة التحريّ التي شحذتها السنون . نظر سلتفليت بشكل آلي إلى محتويات الغرفة ، من أغطية الوسادات الحريرية الزاهية وه اللباس الداخلي » الملقى على رفّ الموقدة ، إلى الحيوانات الزجاجية على المزينة ، وصورة الفتاة السوداء الصغيرة على عتبة النافذة ، واللعبة ذات الوجه الأسود والأسنان المحدّدة والعينين البنيتين الوحشيتين اللتين تحدقان به .

قالت موريا : « إنه يستعيد وعيه . اخرجوا بسرعة » .

غادر سلتفليت الغرفة على رؤوس أصابعه ثم نزل الدرج ، كانت تيري قد تمالكت نفسها وقالت :

ـ « إننا نقضي وقتاً ممتعاً أليس كذلك ؟ » .

في المطبخ قالت ألفي : « سآخذ ذلك الفنجان من الشاي الآن » .

فسألته تيري : « هل تريد فنجاناً ؟ » .

فأجاب : « لا شكراً ، عليّ أن أذهب ، هل وجدتِ رقم الهاتف ؟ » .

ـ « أجل » وأخرجت دفتر الهاتف من جيب مريول الوصيفة وقالت :

ـ « ستجد الاسم تحت الحرف « راء » .

وجد اسم روزي مخربشاً بخط أشبه بخط الأطفال ، وبجانبه أحد أرقام منطقة نوتنغ هيل ، كتبت أمامه كلمة« موري » . نقل الرقم وسأل :

ـ « هل لديكنّ أي فكرة عن معنى كلمة « موري ؟ » .

فردّت تيري : « موري » أظن أنها تعني الموت باللاتينية . وموتو موري أظن أنه اسم الرجل المسؤول عن المصحّ » .

ـ « آه ، شكراً لكِ ، ودوّن الاسم وقال : « شكراً لك يا ألفي على مساعدتكِ ، سأخبركِ بجميع التطورات التي قد تطرأ ، دعينا نلتقي قريباً ، يجب أن أذهب فقد وعدت زوجتي وابنتي بأن نخرج لنشرب الشاي ، أراكنّ فيما بعد » .

بعد نزوله إلى الشارع توجه فوراً إلى الهاتف العمومي عند المنعطف ، وطلب رقم مخفر هامر سميث وسأل عن الرقيب التحري فيش فقيل له إنه في تليبري ، فقال إنه سيتصل مرة أخرى . ثم بدأ يطلب رقم ميرندا ، إلا أنه غير رأيه معتبراً أنه بالإمكان تأجيل الحديث مع ميرندا لحظة . فأقفل الخط وطلب الرقم في منطقة نوتنغ هيل ، وعندما رد عليه صوت أنثوي ، طلب منها التحدث مع د . موري .

أجابت المرأة « أخشى أن يكون الدكتور مورو مشغولاً الآن » مشددة على الاسم كمعلمة مدرسة تصحح اللفظ لأحد تلاميذها :

ـ « وهل يمكن أن أعرف متى يكون غير مشغول ؟ » :

ـ « أخشى أنني لا أستطيع أن أخبرك بذلك ، هل تترك له رسالة ؟ » :

ـ « أنا ضابط في الشرطة ، وكنت أود أن أطرح عليه بعض الأسئلة » .

فردت بصوت حاد جداً لا أثر للانفعال فيه :

ـ « فهمت ، سأنقل له رسالتك » .

حاول سلتفليت أن يسيطر على شعور الغضب الذي تملكه وقال :

ـ « يجب أن أراه في أقرب فرصة » .

- « هل أحدد لك موعداً ؟ » .

- « أجل من فضلك » .

ثم تلا ذلك فترة صمت طويلة ، وشعر أنها تتعمد إطالة انتظاره . ثم قالت : « أقرب وقت يستطيع أن يقابلك فيه هو صباح الاثنين في العاشرة والنصف » .

فقال سلتفليت وهو يحاول أن لا تعلو نبرة صوته : « أريد أن أراه الآن » .

- « أخشى أن يكون ذلك مستحيلاً ، فهو مشغول جداً » .

- « هلاّ ناديته إلى الهاتف » .

- « قلت لك إن ذلك مستحيل إنه يعالج أحد المرضى ، لكن لو طلبته بعد ساعة فقد يكون فرغ من ارتباطاته » .

- « هل تعطيني العنوان ؟ » .

- « ألا تعرف العنوان » .

- « لم أكن لأسأل عنه لو كنت أعرفه » .

- « آسفة فلست مخولة أن أعطي العنوان . عليك أن تحصل عليه بواسطة الطرق الصحيحة ، مع السلامة » وأقفلت الخط .

تمتم سلتفليت وقال : « العاهرة اللعينة » وساعده ذلك على تمالك أعصابه .

فتش سلتفليت عن اسم مورو في دليل هاتف لندن فوجد اسمين كان واضحاً أن أياً منها ليس الرقم الذي يبحث عنه . فطلب مركز الهاتف وسأل عن موظف الاشتراكات المسؤول عن منطقة نوتنغ هيل وقال له : « أنا المفوض العام سلتفليت ، لديّ رقم هاتف وأريد أن أعرف العنوان » .

- « نعم يا سيدي ، أعطني الرقم من فضلك » .

فأعطاه سلتفليت الرقم فسأله الموظف :

- « من أي مخفر تتحدث يا سيدي ؟ » .

فرد سلتفليت « أتحدث من هاتف عمومي لكن إن شئت بإمكانك أن تطلب مبنى السكوتلنديارد الجديد وتعطي العنوان لموزع الهاتف » .

- « آه ، ليس ذلك ضرورياً يا سيدي » ثم غاب لحظة وعاد ليملي عليه العنوان :

- « إنه معهد العلوم الجنسية ١ لانسدون غاردنز ، ويست إليفين ، واسم المشترك هو د . روبرت مورو » .

شكره سلتفليت وأقفل الخط ثم طلب ميرندا .

- « اسمعي ياعزيزتي ، آسف لما حدث ، إلا أني وجدت خيطاً ... » .

- « نعم ، خمنت أن شيئاً من هذا القبيل قد حدث » لم يكن في صوتها ما يوحي بالعتاب . حتى أنه بعد ثلاثين سنة من زواجها لا يزال يُفاجأ بروحها الهادئة .

- « لا تزال أمامي زيارة وحيدة ، سأحاول أن أعود خلال نصف ساعة أو نحوها » .

- « لا تسرع ، إننا نشاهد فيلماً على التلفزيون » .

وقفت سيارة أجرة على بعد خطوات من كشك الهاتف وخرج منها أحد الركاب ، فقال سلتفليت بسرعة :

- « شكراً يا حبيبتي ، سأراك قريباً » .

ركب السيارة وطلب من السائق أن يتوجه إلى لانسدون غاردنز .

3

كان الشارع واحداً من تلك الشوارع الهادئة المتميزة بحدائقها الخاصة المسيجة ، التي توحي بأنها مهجورة . أنزلته السيارة عند المنعطف أمام بيت عالٍ أصفر باهت ، وبدت البوابة الخضراء متينة جداً ، ولم يكن هناك جرس ، فجرب المزلاج متوقعاً أن يجده مقفلاً ، إلا أنه انفتح بسهولة . كان البيت ذو الطراز الفيكتوري منعزلاً قليلاً عن جيرانه ، وهو كما الحديقة والعشب غير المجزوز ، يترك انطباعاً بأنه أُهمل منذ زمن طويل .

صعد المفتش الدرجات الموصلة إلى رواق داخل المبنى . فرأى فوق الباب الأمامي لوحة خشبية نقشت عليها العبارة اللاتينية التالية : AMORI ET DOLORI SACRUM كما عُلقت بجانبه لوحة نحاسية نُقشت عليها الكلمات التالية : « معهد العلوم الجنسية . المدير : الطبيب روبرت مورو » وعندما قرع الجرس فتح الباب على الفور شاب عريض الكتفين .

ـ « من فضلك ، د . مورو موجود ؟ » .

حدّق إليه الشاب بذهول ، وكأنه يتحدث بلغة أجنبية ، كان شعره كثاً ، ورأسه مدبباً ، ولو كان أكبر سناً لظنه سلتفليت ملاكماً مخموراً . وعندما أعاد سلتفليت السؤال هز الشاب رأسه دون أن يبدو عليه أنه فهم . وسمع صوتاً يُنادي من الداخل :

ـ « من هناك يا فرانكي ؟» .

كان الصوت نفسه الذي سمعه على الهاتف ، وكان أول ما وقع نظره عليه وهي تهبط الدرج جوربيها الأحمرين ومن ثم تنورة سوداء ضيقة وبلوزة بيضاء ، كانت في منتصف عشريناتها . وقد ربطت شعرها الأشقر خلف

أذنيها . أخذت تؤنب الشاب قائلةً : « كم مرة أوصيتك ألا تفتح الباب ؟ » . ثم التفتت إلى سلتفليت وقالت : « ماذا تريد ؟ » .

ـ « أنا المفوض العام سلتفليت ، أريد أن أتحدث إلى د . مورو » .

عرفت الفتاة صوته إلا أنها ـ وجهاً لوجه ـ لم تكن على الدرجة نفسها من الثقة . وإن لم تفقد تمالك أعصابها :

ـ « أخشى أن يكون ذلك مستحيلاً ، فهو مشغول » .

كانت تتحدث بلهجة السكرتيرة التي ترد على الهاتف . فتعمد سلتفليت أن يبدو صوته خالياً من أي انفعال ، وقال بحزم :

ـ « من فضلكِ ، قولي له إني أود التحدث إليه بشأن جريمة قتل » .

حدقت إليه ببرود ، محاولة أن تقدّر إلى أي مدى يمكنها الاستمرار في إعاقته . لاحظ سلتفليت آثار ندب على خدها الأيسر . وقالت أخيراً : « انتظر هنا من فضلك » .

أدارت ظهرها له وأخذت تصعد الدرج فلمح بطني رجليها الملفوفتين بالجوربين الأحمرين ، فقال في نفسه : « عاهرة لعينة ، إلا أن ساقيها جميلتان » .

كان الشاب لا يزال واقفاً كالحارس ، نظر سلتفليت بفضول إلى وجهه الخالي من أي تعبير ، فحدق الشاب في وجه المفتش للحظة ثم حول عينيه .

انفتح باب إحدى الغرف في آخر الرواق وأطلت منه امرأة ذات شعر أسود طويل لا يغطي الجزء الأعلى من جسمها إلا صدرية . نظرت إلى سلتفليت بتساؤل ثم ابتسمت وأعادت إغلاق الباب . أخذ سلتفليت ينظر إلى الشاب من طرف عينه ، محاولاً أن يعرف لماذا يبدو هذا الشاب غير طبيعي . إن كتفيه عريضان وقويان ، إلا أنه فيما عدا ذلك لا يوجد ما يبرر إحساسه بأن له شكل قرد . فجسمه متناسق ، ووجهه يكاد يكون جميلاً ، وأدرك سلتفليت أنه شيء نابع من شخصية الشاب .

قالت الفتاة من أعلى الدرج : « هلا صعدت » .

وما إن ابتعد قليلاً عن الباب حتى قام الشاب بإغلاقه ، في حركة غريبة نوعاً ما ، كما لو كان حارساً آلياً .

قادته الفتاة إلى غرفة واسعة ، لعلها كانت في أحد الأيام قاعة للاستقبال ، وقالت :

ـ « د . مورو سيكون معك حالما يسمح له وقته » موحية بأن الأمر قد يستغرق فترة طويلة ، ثم خرجت وصفقت الباب وراءها بقوة .

كانت الغرفة مكتباً ومتحفاً في آن ، فالجدران مغطاة بخزائن زجاجية ، والنوافذ تطل على الحديقة وعلى الشارع الملتوي وراءها ، والأثاث من الطراز القديم الذي يبعث على الارتياح . كان المكتب المصنوع من خشب الماهوغاني كبيراً جداً بحيث بدا أنه من الصعب تمريره من خلال فتحة الباب ، وقد عُلقت وراءه صورة بنية باهتة لرجل ذابل الجفنين ، قصير الشاربين ، شامخ الأنف . أخذ سلتفليت يتأمل الخزائن الزجاجية فوجد فيها خليطاً من المعروضات التي أوقعته في حيرة . جذبت اهتمامه خزانة تحتوي على ملابس داخلية نسائية قديمة ، ومن بينها قميص مسرول(*) من الحرير الأحمر ، مزين بشريط أبيض ، وسوط لرعاة البقر ، وجزمةٌ لركوب الخيل مع مهمازيها ، وزوج أصفاد نحاسية قديمة ومسدس « ماوزر » . وقد علقت على الجانب الخلفي من الخزانة صورة لامرأة فاتنة في منتصف العمر ، أثقلت عينيها بالكحل ، ووضعت أحمر شفاه مثيراً . واحتوت الخزانة الثانية على صورة رجل تظهر آثار مرض الجدري على وجهه ، أطلق شاربيه المنحنيين إلى الأعلى على طريقة قيصر فيلهلم . وشملت المعروضات سلسلة ، وحبلاً ، ولفة شريط صدىء ومجموعة من السكاكين ، وعدة للسطو وحقنة ، واحتوت خزانة صغيرة على شيء واحد : يد بشرية مبتورة .

كان يتأمّل تلك اليد بتركيز شديد عندما صعقه صوت من ورائه يقول :

ـ « يجب أن أعتذر على تأخري » .

مدّ رجل صغير الجسم أشيب الشعر يده ليسلم عليه ، وخلف زجاجتي نظارته التي لا يحيط بها أي إطار ، برزت عينان حادتان ودودتان ، كان يرتدي بذلة صوفية رمادية فضفاضة ، وربطة عنق قصيرة منقطة .

ـ « أنا مورو » وشدّ بقوة على يد المفوض الذي قال :

(*) ثوب داخلي من قطعة واحدة .

ـ « المفوض العام سلتفليت » .

ـ « أرجوك أن تجلس » . قال الطبيب ذلك باحترام ولطف ملفتين كأنه يقدّم له سيجاراً فاخراً .

جلس سلتفليت على الكرسي المقابل للمكتب .

ـ « لديك مكان رائع هنا يا دكتور » .

ورأى أنه أصاب في قوله إذ ردّ الطبيب شاكراً ، وقد برقت السعادة في عينيه .

ـ إنّها معروضات من المعهد الجنسي « Institute für Sexual Wissen-chaft » في برلين ، تمكنت من إنقاذها قبل أن يحرقها النازيون . وكنت آنذاك مساعدا للمغفور له الدكتور ماغنوس هيرشفيلد » .

والتفت نحو الصورة المعلقة خلف المكتب وقال : « كان واحداً من الرواد العظام لعلم الجنس ، ولقد جمع مجموعة عظيمة من العينات » .

وأشار إلى الخزانة الأقرب إليه والتي تحتوي على بعض الملابس ، وساطور ، وحبل : « ومنها هذه التي كانت تخصّ غروسهان القاتل ـ آكل اللحم البشري ، الذي كان يغوي الفتيات ويأخذهن إلى غرفة ، ومن ثمّ يذبحهن ويأكل الأجزاء الطرية من أجسادهن ، ثمّ يبيع اللحم الباقي » .

ـ « وما هذا ؟ » وأشار إلى الخزانة التي تحتوي على الملابس الداخلية .

ـ « إنها للعقيد وليم مولر ضابط الاستخبارات الألماني ، الذي كان في الوقت نفسه جاسوساً سوفياتياً . أحب مومساً روسية حبّاً عظيماً . وكانت تسمح له بارتداء ملابسها الداخلية . وكان يرتديها بالفعل لدى اعتقاله » .

وأشار المفوض إلى صورة الرجل ذي الشوارب القيصرية وقال :

ـ « من هذا ؟ » .

ـ « رجل منحرف يدعى غرو ، أرعب برلين في العشرينات . كان من عاداته الكريهة دخول المنازل عنوة وإرغام النساء على خلع ثيابهن تحت تهديد السلاح . ومن الجدير ذكره هنا ، أن المسدس لم يكن أبداً محشواً . لقد كان يرهب الأصوات العالية » .

ـ « وهذه » وأشار إلى اليد المبتورة .

ـ « إنها يد المجرم الجنسي الجزائري حسن أوارغلا قاتل الأولاد ، حُكم

عليه بتقطيع أعضائه حياً وقُدّمت يده اليمنى هدية إلى المتحف » .

فقال سلتفليت « غير معقول ! » . فوجىء أنه بعد ثلاثين سنة من العمل في الحقل الجنائي لا يزال هناك ما يجعله يشعر بالاشمئزاز .

ـ « آه : يا سيدي العزيز . إنّ الطبيعة الإنسانية نفسها غير معقولة » .

كانت عيناه تتقدان حماسةً ، وكأنّه يتحدث عن أعمال فنية لا عن مجرمين جنسيين .

ـ « أرجوك أن تقول لي ماذا أستطيع أن أفعله من أجلك » .

ـ « إنّني أحقّق في جريمة قتل » .

قال مورو وهو يبدو مستمتعاً بالأمر : « يا له من أمر مثير ، ما هو نوع الجريمة ؟ » .

ـ « جريمة جنسية » .

ـ « ممّا يزيدها إثارة ، وأظنّك جئت تطلب استشارتي ، صف لي ظروف الحادث » .

ـ « الضحية بحار بولندي ، وجد مقتولاً هذا الصباح في لادبروك تراس غاردنز » .

ـ « إنّها بالقرب من هنا أليس كذلك ؟ » .

ـ « خلف الشارع تماماً ، طُعن الرجل حتى الموت ، وحاول القاتل بتر أعضائه الجنسية » .

بدا على مورو الجدية القصوى وسأل :

ـ « وكيف يمكنني مساعدتك ؟ » .

ـ « شوهد هذا البحار ، قبل موته بساعات قليلة ، وهو يتحدث إلى فتاة شقراء في بار في شارع بورتوبيلو تنطبق أوصافها على إحدى مريضاتك ، فتاة تدعى روزي » .

ـ « آه فهمت الآن ، تريد أن تتحدث إليها .

ـ « إذا سمحت لي بذلك ، هل هي موجودة ؟ » .

ـ « أجل » وضغط بإصبعه على زر يشغل جهاز الهاتف الداخلي ثمّ توقف وقال :

ـ « قبل أن أرسل في طلبها هناك شيء يجب أن أخبرك به » .

رافق توتره الظاهر بروز لكنته الإيطالية التي كان من الصعب ملاحظتها من قبل . ثمّ وقف واتجه نحو النافذة وقال :

ـ « روزا تُعاني أساساً من اكتئاب . إنّها تُعاني ممّا كان يُدعى بـ « فقدان الإرادة » . ولديها شعور عام بأنّها بلا قيمة ، وردة فعلها على نوبات الاكتئاب الدورية التي تنتابها هي نفسها دائماً . تخرج لتبحث عن رجل يسيء معاملتها . وفي آخر مرة حدث أن غابت عن الوعي لمدة يومين إثر إصابتها بكسر في الجمجمة ، هل فهمت ما أرمي إليه ؟ إنّها من النوع الذي قد ينتهي مخنوقاً أو مضروباً حتى الموت ، ولم أسمع في حياتي عن حالة من هذا النوع تمارس العنف على الآخرين . فذلك ليس من طبيعتها في شيء » .

حاول سلتفليت أن يطمئن الرجل فقال : « أفهم ذلك ، إلاّ أنّه من الضروري أن أتحدث إليها ، فقد تتمكن من مساعدتنا » .

ـ « بالطبع ، لكنك قد تحدثت إليها بالفعل » .

ـ « نظر إليه سلتفليت وقد بدت الحيرة على وجهه : « تحدثت إليها ؟ » » .

ـ « إنّها سكرتيرتي ، الفتاة التي أرشدتك إلى هنا » .

خيل إلى المفتش على الفور أنّ الطبيب يكذب ليحمي مريضته وقال : « أعتقد أنّ هناك خطأ ، فسكرتيرتك لا تنطبق عليها هذه الصفات » .

فقال مورو : « هل أنت متأكد ؟ » .

ـ « إنّها بالتأكيد لا تبدو لي كمن يعاني . . . ممّا قلته . . . من شعور بفقدان القيمة » .

فقال الطبيب بطريقة شبه اعتذارية : « معك حق ، إنّها بالفعل ليست كذلك ، لكن روزي هي التي تُعاني من هذه الحالة ، غير أن روزي ودوروثي تتشاركان جسداً واحداً » .

ـ « آه ، فهمت ، إنّك تتحدث عن حالة سكيزوفرانيا » .

ـ « كلا يا سيدي ، فالسكيزوفرانيا حالة مختلفة كلياً ، والكلمة لا تعني انفصام الشخصية ، بل تعني ببساطة فقدان الصلة مع الواقع ـ تفكك الأفكار والمشاعر ـ حالة روزي ليست حالة سكيزوفرانيا ، بل إنها حالة ما ندعوه بتعدّد الشخصية . إنها بالضبط ، وكأن شخصين مختلفين يتشاركان جسماً واحداً ، أو كأن شخصين يقودان سيارة واحدة » .

- « مثل جيكل وهايد(*) » .

- « هذا صحيح إلى حدّ ما . إلاّ أنّ لحالة جيكل وهايد دلالات جوهرية أخرى ، ولعلّه من الأفضل التحدّث عن جانوس - الإلهة ذات الوجهين » .

- « أجل ، فهمت » .

ثمّ أضاف ، وهو يفكر فيما قاله الطبيب : « لكن هل تعرف سكرتيرتك أنّها تملك شخصيتين » .

- « نظرياً ، نعم » .

- « وماذا يعني هذا ؟ » .

مشى مورو نحو الموقدة وأمسك بفتاتين مصنوعتين من القماش كانتا على الرف الذي يعلو الموقدة وقال :

- « في معظم حالات ازدواج الشخصية ، تعرف إحدى الشخصيتين كل شيء عن الشخصية الأخرى ، كأنّ واحدة منهما هي هنا فوق » . ورفع إحدى الفتاتين بيده : « والأخرى هنا تحت . ويمكن للتي فوق أن ترى كل ما يجري تحت ، إلاّ أنّ التي تحت تجهل وجود الثانية التي تطل عليها من فوق . وهذا ما هو معتاد في هذه الحالات ، لكن هذه الحالة مختلفة ، إذ إنّ كلاً منهما غير قادرة على مشاهدة الأخرى وأنا أحاول أن أكتشف السبب » .

- « وفي هذه الحال ، إن ارتكبت إحداهما جريمة فإنّ الأخرى لا تعرف بها » .

- « صحيح » .

- « يبدو ذلك مفيداً جداً » .

- « أرى أنّك تجد ذلك صعب التصديق ، لكنه حقيقي وأستطيع أن أريك تواريخ دزينات من الحالات المشابهة » .

قال سلتفليت : « د . مورو ، عندما قلت لسكرتيرتك على الهاتف ، منذ نصف ساعة ، أني أريد أن أراك ، عملت ما في وسعها لتحول دون ذلك ، حتى أنّها لم تعطني العنوان » .

فقال مورو باهتمام حقيقي : « أنا آسف ، ما كان ينبغي لها أن تفعل ذلك » .

(*) إشارة إلى حالة انفصام شخصية إلى شخصيتين إحداهما شريرة والأخرى خيّرة .

- « فلماذا إذاً تصرفت على هذا النحو ؟ » .

- « ليس للأسباب التي تتصورها ، فذلك لا يرجع إلى معرفتها بما ارتكبته . بل ثمة صفة أخرى تميز حالات ازدواج الشخصية ، وهي أن الشخصيتين متناقضتان تماماً ، فإن كانت إحداهنّ خجولة ، فالثانية عدوانية ، وهكذا ، فبينما روزي خجولة جداً ، نجد دوروثي على طرف النقيض » .

فقال سلتفليت : « وهكذا فإن كانت روزي ماسوشية فإن دوروثي سادية » .

فهز الطبيب رأسه بعنف قائلاً : « لا تحملِ الأمر فوق ما يحتمل ، فالماسوشية والسادية ليستا من صفات الشخصية ، إنهما حالتان مرضيتان » .

فقال سلتفليت : « فهمت » . إلاّ أنّه لم يكن مقتنعاً .

- « لعلّه من الأفضل أن تتحدث إلى دوروثي » .

- « أجل ، أفضّل ذلك » .

فضغط الطبيب على مفتاح هاتفه الداخلي وقال :

- « دوروثي تعالي من فضلك » .

وبينما هما ينتظران ، أعاد الفتاتين إلى مكانهما . ثمّ جاءت السكرتيرة تحمل دفتر ملاحظات وقلم رصاص . فقال مورو : هذا السيد ضابط في الشرطة ، يودّ أن يسألك بعض الأسئلة » .

فرفعت جفنيها وقالت : « عن ماذا ؟ » .

- « هل بإمكانك أن تتذكري أين كنت حوالى الساعة الحادية عشرة من ليلة البارحة ؟ » .

نظرت مباشرة في عينيه وقالت : « كنت في غرفتي » .

- « هل أنت متأكدة ؟ » .

فقالت وهي تنظر إلى الطبيب : « كل التأكيد » .

قال : « هل تذكرين أنّك ذهبت الليلة الماضية إلى بار جورج في شارع بورتوبيلو ؟ » .

بدت دهشتها حقيقية : « بالطبع لا » .

والتفتت إلى مورو سائلة : « هل يمزح ؟ » .

فقال مورو : « كلا يا عزيزتي ، أجيبي على سؤاله » .

- « لقد أجبت » .

- « هل تذكرين أنّك تحدثتِ أمام البار إلى رجلٍ يتحدث بلكنة أجنبية ؟ » .

بدت عليها الحيرة والاهتمام في آنٍ وقالت : « كلا لا أذكر ، من هو ؟ » .

- « بحار بولوني ، في إجازة » .

فقالت : « فهمت الآن » . والتفتت نحو مورو قائلة : « إنّه على الأرجح يريد التحدث إلى روزي » .

فقال سلتفليت : « ألستِ روزي ؟ » .

- « لا ، لا سمح الله ، ألم تشرح له ؟ » .

- « بلى ، لكنه أراد أن يتحقق بنفسه » .

- « أنا متأسفة جداً ، لكنها ليست موجودة » .

- « ليست موجودة ! » .

قال مورو : « إنّه مجرد تعبير نستخدمه » .

إقترب سلتفليت منها وأشار بإصبعه إلى وجهها ، حاولت أن تتراجع ، فارتطمت بالمكتب ، وقال :

- « ما الذي سبّب لكِ هذا الجرح في خدّك ؟ » .

أجفلت الفتاة عندما لمسها ، واهتزت قدرتها في السيطرة على نفسها لأول مرة . فقال مورو :

- « أخبريه يا عزيزتي » .

- « لا أعرف ، استيقظت صباح اليوم فوجدت الجرح . » وسألت مورو : « هل صادفت روزي المتاعب مجدداً ؟ » .

فقال : « محتمل ، لا نعرف » .

لاحظ سلتفليت عدم ارتياحها لقربه منها . إلاّ أنها لم تحاول الابتعاد حتى لا يبدو أنها تحاول الهرب .

فقال سلتفليت :

- « البحّار البولوني قتل وأنا أحقّق في مصرعه » .

فالتفتت إلى مورو محاولة الهرب من حضور سلتفليت الجسدي وسألته :

- « هل كانت روزي معه ؟ » .

فقال سلتفليت : « هذا ما أحاول أن أعرفه » .

نظرت إليه وقالت : « روزي لا تقتل أحداً ، إنّها أجبن من أن تفعل ذلك » .

- « كيف تعرفين ذلك ؟ المفروض أنّك لا تعرفينها » .

أجابت دون أن تحول عينيها : « أعرف عنها ما يكفي لمعرفة أنها لا تقتل أحداً » .

فقال : « وأنت هل تقتلين ؟ » .

- « قد أقتل » . قالت ذلك ببرود لا ينم عن التحدّي ووضعت قلمها ودفترها على المكتب ، فتسنت لها الفرصة للابتعاد عن المفوّض .

فقال سلتفليت : « تقولين إنّ روزي هي شخص آخر ، إلاّ أنّها في الحقيقة جزء منك ، أليس كذلك ؟ » .

فقالت بازدراء : « آمل ألاّ يكون ذلك صحيحاً فهي حمقاء » .

وبدا بوضوح أنّها استعادت برودها وثقتها بنفسها .

قال مورو : « اعذرني إن قاطعتك يا سيدي المحقّق ، إنّها محقّة فهي وروزي ليستا الشخص نفسه ، بل هما عملياً شخصان مختلفان ، إلاّ أنّهما تتقاسمان جسماً واحداً » .

- « إذاً فلا بدّ أن دماغهما واحد أيضاً ، وبالتالي فهي تعرف ماذا حدث البارحة » .

فقال مورو بصدق : « نعم إنّهما يتقاسمان دماغاً واحداً ، ولكنهما لا يحتفظان بالذكريات نفسها ، ففي حالات كهذه ، ينقسم الدماغ إلى أقسامٍ منفصلة وأنت تود التحدّث إلى روزي » .

فقال : « متى يمكنني أن أفعل ذلك ؟ » .

بدأ مورو يعاني من ضيق وقال : « أخشى ألّا أستطيع أن أجيبك عن هذا » .

فقالت الفتاة : « أيمكنني أن أذهب الآن ؟ » .

نظر مورو إلى سلتفليت الذي قال : « أظنّ ذلك » .

خرجت الفتاة وأقفلت الباب وراءها بهدوء وبدا أنّها استعادت سيطرتها على نفسها ، إلّا أنّ سلتفليت لاحظ أنّها نسيت القلم والدفتر على المكتب .

ـ « هذه الفتاة بحاجة إلى الضرب » .

ـ « للأسف يا سيدي المفوّض ، لا تستطيع أن تشفي المرضى العقليين بالضرب » .

فقال سلتفليت : « لدي شعور بأنّها لم تخبرني بكل ما تعرفه » .

قام مورو بحركة ايطالية بيديه وجفنيه وقال : « لكني لا أفهم ، ماذا تظنها تعرف ؟ » .

كان ثمّة صراحة ونزاهة تشعان من الرجل لتجعلاه محبوباً جداً فقال له سلتفليت :

ـ « انظر يا دكتور سأكون صريحاً معك ، عندما جئت إلى هنا اليوم ، لم أكن أتوقع أن أعرف الكثير من هذه الفتاة روزي . كان الأمر مجرد تحقيق روتيني . أمّا الآن فلدي شعور ـ نوع من الحدس ـ بأنّ هذه الفتاة تخفي عني شيئاً . من المحتمل أن أكون مخطئاً . . . » .

فقال مورو : « اعذرني ، لكن ما إن ترى روزي حتى تتأكد بنفسك من أنّها غير قادرة على إيذاء أحد » .

ـ « أرجو ذلك » .

ابتسم مورو فجأة وقال : « آه ، سأريك شيئاً » .

ومضى إلى خزانة الملفات في ركن الغرفة ، وعاد بعد لحظة وبيده شريط فيديو :

ـ « سأريك روزي كما كانت قبل سنتين » ووضع الشريط في جهاز الفيديو ، وقال : « اجلس من فضلك » .

وأدار التلفزيون وأسدل الستائر وقال ، فيما بدت بعض الخطوط تظهر

وتختفي على الشاشة :

ـ « يجب أن أخبرك أنّ هذا التسجيل سُجّل بعد محاولة روزي الانتحار بفترة قصيرة ، وكانت تنزل في نزل للنساء » .

وضحت الصورة ، وهو يتكلم ، وظهرت صورة فتاة مستلقية على كنبة ، شعرها أشقر يصل إلى كتفيها ، اقتربت الكاميرا منها وركّزت على الوجه ، فتعرّف سلتفليت على السكرتيرة دوروثي ، إلّا أنّ وجهها كان شاحباً ، وعينيها تحيط بهما ظلال سوداء . أحسّ سلتفليت بانقباض فجائي في قلبه ، وغلبه شعور بالضيق وجد صعوبة في تفسيره . فالفتاة التي تظهر على الشاشة هي بالتأكيد فتاة متوترة وعصبية . ثمّ سمع صوت مورو يقول :

ـ « لست قلقة ، أليس كذلك ؟ » .

فجأة أدرك ما الذي ولّد لديه هذا الشعور ، فالفتاة الظاهرة على الشاشة هي نسخة أكبر سنّاً عن جيرالدين . وأخذ يحدّق بذهول ، محاولاً ألّا يسمح لتعابير وجهه أن تعكس انزعاجه الشديد ، وجاء صوت مورو :

ـ « قولي لي ما هو اسمك ؟ » .

ـ « روزي جود » .

ـ « عمرك » .

ـ « اثنتان وعشرون سنة » .

ـ « اين ولدت » .

ـ « جنوبي نوروود » .

ـ « جيد ، أريد منك الآن أن تغمضي عينيك وترتاحي ، ارتاحي عميقاً ، عيناك تثقلان وتثقلان أكثر فأكثر ، جسمك كله يشعر بالراحة » ، وقال مورو من وراء كرسيه خلف المكتب :

ـ « إنها موضوع ممتاز للتنويم المغناطيسي » .

كان غريباً أن يصدر صوته من مكانين مختلفين في آن ، إذ كان الصوت على الشاشة يقول :

ـ « عندما أعد حتى العشرة ستكونين نائمة نوماً عميقاً ١ ـ ٢ ـ ٣ ـ ٤ .

أخذت الفتاة تتنفس بشكل منتظم ، ومرة أخرى انقبض قلب سلتفليت إذ ذكرته بجيرالدين وهي نائمة . ولم يستطع أن يصدق ما يراه ، فالفتاة التي

تظهر على الشاشة مختلفة جداً عن السكرتيرة التي غادرت الغرفة منذ دقائق ، وهي تشبه ابنته بشكل مقلق جداً .

ظهرت يد على الشاشة وقامت بفتح عيني الفتاة . ثمّ قامت اليد برفع يد الفتاة ومن ثمّ تركتها تسقط . قال صوت مورو :

ـ « أودّ الآن أن نرجع إلى ما كنا نتحدّث عنه البارحة ، هل تذكرين ؟ » .

أخذت الفتاة بعض الوقت لتجيب : « أجل » .

ـ « حدثيني عن ابن عمتكِ جو ، وعن مدى حبك له » .

ابتسمت الفتاة شبه ابتسامة وقالت بصوت واضح ودقيق : « أنا لا أحبه » .

فقال مورو بلطف : « لكنك قلت البارحة إنّه الشخص المفضّل لديك ؟ » .

فقالت الفتاة بهدوء : « بل أكرهه » .

قال مورو : « إذاً لماذا قلتِ لي البارحة إنكِ تحبينه ؟ » .

ـ « لم أقل ذلك » .

انحنى سلتفليت إلى الأمام . لقد تعرّف إلى االصوت .

قال مورو : « ألا تحبين ابن عمتك ؟ » .

فقالت الفتاة بحزم : « لا ، فهو مغرور أحمق » .

إنّه صوت السكرتيرة دوروثي دون أدنى شك . وكان مورو نفسه يبدو مضطرباً .

ـ « لكن ألم . . . ألم تكتبي في مفكرتك ؟ . . . روزي جارية جو إلى الأبد » .

فقالت الفتاة : « هي التي كتبت » .

ـ « من هي ؟ » .

ـ « روزي » .

ـ « ألست أنتِ روزي ؟» .

ـ « كلا » .

ـ « إذاً من أنت ؟ » .

فهزت الفتاة برأسها .

وقال مورو : « ألا تخبريني من أنت ؟ » .

ـ « لماذا تريد أن تعرف ؟ » .

ـ « لأساعدكِ » .

فقالت ببرود ، عرف سلتفليت فيه برودة دوروثي : « لم يطلب أحد منك مساعدتي » .

أعقب ذلك بعض الصمت ، ثمّ قال مورو : « لكن ألن تقولي لي ما اسمك ؟ من باب اللياقة فقط » .

فقالت الفتاة : « حسناً بإمكانك أن تدعوني دوروثي » .

ـ « جيد ، شكراً لكِ . هل تمانعين في التحدث إليّ ؟ » .

أجابت الفتاة بعد فترة صمت طويلة : « كلاّ » .

ـ « يبدو عليكِ الغضب ، لماذا أنتِ غاضبة ؟ » .

ـ « لأنك تسأل أسئلة غبية » .

فتحت عينيها وكأنّها أُخضعت لتعذيب يفوق طاقتها على الاحتمال ، وأخذت تحدّق في الطبيب .

أوقف مورو جهاز الفيديو ، فشعر سلتفليت بخيبة أمل ، كان يريد أن يسمع المزيد .

قال مورو : « كان هذا أول ظهور لدوروثي ، وبإمكانك أن ترى أنّها مختلفةٌ تماماً عن روزي » .

ـ « نعم ، إني أرى ذلك » .

أسر هذا الاعتراف مورو ، فتابع حديثه مؤكداً على رأيه : « إذاً أنت توافق على أنّهما شخصان مختلفان تماماً » .

شعر سلتفليت أنّه من الضروري التخلي عن شكوكه الأولى وقال :

ـ « إنّه أمر مدهش ، يجب أن أعترف أنّي ما كنت لأصدق هذا ما لم أره بأم عيني » .

كان لا يزال يفكّر بشبه الفتاة بابنته : « كيف بحق الله يمكنك تفسير ذلك ؟ » .

قام مورو بحركة تعبيرية وقال : « إنّ علماء النفس يحاولون تفسير ذلك منذ عدة قرون . وحتى الآن لم ينجح أحد . وأنا قد ألّفت كتاباً في هذا الموضوع . كل ما نحن متأكدون منه هو أن أغلب هؤلاء المرضى عانوا من طفولة غير سعيدة . وأنّ الشعور بالصدمة هو الذي يولّد هذا الانقسام » .

فهز سلتفليت رأسه قائلاً : « أفهم أن يتغير الناس من يوم إلى يوم ، بتغير مزاجهم ، غير أنها تبدو شخصين مختلفين تماماً » .

ـ « بالضبط ، ظننت في البداية ، أنّ ابن عمتها جو هو المدخل ، وكنت قد شاهدت إحدى صوره ، كان وسيماً إلاّ أنّه . . . كيف تقول ؟ . . . غليظ . . . وروزي فتاة ذكية وخجولة وحسّاسة ، فحتى لو كانت متعلقة بابن عمتها فلا ريب أنّها أدركت أنّه غبي . كلّنا مررنا بتجربة الانجذاب الجسدي إلى شخص لا نحبّه في الواقع . أعتقد بأنّ جزءاً من روزي كان يحب جو بينما كان لسان حال الجزء الآخر يقول : لا سمح الله » .

فبدا على سلتفليت الوجوم وهزّ رأسه قائلاً : « إلاّ أنّ الجزء ليس شخصاً آخر » .

ـ « تماماً ، وهذا ما أدركته بمجرد أن بدأت الحديث مع دوروثي ، فهي كما قلت أنت شخص مختلف تماماً ، وإلى حدّ قد لا تدرك حتى أنت مداه ، مثلاً : روزي تُعاني من ضعف نظر يحملها على وضع نظارات طبية ، بينما نظر دوروثي طبيعي تماماً . ولا تسألني كيف يمكن ذلك ؟ فكل ما يمكنني قوله هو إنّه ممكن ، هذه الآلة هي مُخطط للدماغ تُستخدم لقياس موجات الدماغ ، والمفروض أنّ كلّ شخص يتفرّد بنسق معين من هذه الموجات ، مثلها مثل بصمات الأصابع . إلاّ أنّ دوروثي وروزي لديهما نسقان مختلفان ، يمكن تشبيههما بروحين تتشاركان في جسدٍ واحد » .

بذل سلتفليت جهده كي يخفي القشعريرة التي انتابته .

ـ « سأخبرك شيئاً آخر ، عندي مريض شاب متخلّف ، وهو يعشق روزي لكنه لا يطيق دوروثي ، ويمكنه أن يعرف الفرق بمجرد أن يدخل إلى الغرفة ، حتى ولو كانت تدير ظهرها له » .

ـ « هل هو الفتى الذي فتح لي الباب ، ذو الشعر الكث والكتفين العريضين ؟ » .

ـ « أجل » .

ـ « ما مرضه ؟ » .

تردّد مورو في الجواب ، وصمت فترةً طويلةً بحيث وجد سلتفليت نفسه يقول : « آسف ، لعلّه لا يُسمح لك بالتحدّث عن المرضى » .

ـ « لا ، ليس هذا هو السبب ، بل لك الحقّ في أن تعرف ، فالبوليس المحلي هو الذي أذن بإحضاره إلى هنا . هل تعرف ماذا تعني كلمة « paedophile » ـ « محبّ للأطفال » ـ ؟ .

ـ « من يتحرش بالأطفال » .

ـ « لا ، فالأمر لا يصل إلى هذه الدرجة ، إنّه لا يؤذي الفتيات ، فكل ما يريد القيام به هو دغدغتهنّ » .

ـ « وهنّ عاريات ؟ » .

ـ « أجل » .

ـ « والمحكمة وضعته في رعايتكم » .

ـ « صحيح » .

شعر سلتفليت أنّ مورو أصبح في موقع دفاعي ضعيف ، فغيّر الموضوع : « كنت تقول عن روزي . . . » .

ـ « كنت أقول إنّه يتعشّقها ويلحق بها كالكلب ، إلاّ أنّه ما إن تظهر دوروثي حتى يشعر بذلك فوراً ، حتى دون أن يكلمها . إنّه أمر شبه خارق » .

خطرت لسلتفليت فكرة أوقفت شعر رأسه ، فمشى نحو النافذة كي يخفي وجهه فلا يظهر انفعاله . حاول السيطرة على صوته وقال :

ـ « أمر مذهل حقاً » .

ـ « أقنعني ذلك بأنّ شخصين يمكن أن يتواصلا بشكل مباشر ، بواسطة نوع من العاطفة » .

ـ « ومتى أستطيع أن أرى روزي ؟ » .

ـ « أخشى أن يكون من الصعب تحديد ذلك ، عندما تظهر دوروثي فإنّها

لا ترحل إلاّ بعد عدة أيام » .

ـ « وروزي ، كم تبقى ؟ » .

ـ « ليوم أحياناً وأحياناً لساعات فدوروثي هي الأقوى » .

فقال سلتفليت بقليل من التهكّم : « أي أنّها لن تسمح لروزي بالرجوع إلى جسدها » .

ـ « أنت تجعلها تبدو أنانية . يجب أن تتذكر أنّ لديها ما يحملها على القلق ، فروزي حاولت أن تنتحر ، وإنْ قتلت نفسها ، فإنّها تقتل دوروثي أيضاً » .

ـ « إلاّ أنّها لم تعد تميل نحو الانتحار ؟ » .

ـ « آمل ذلك ، لكنها لا تزال تهوى الضرب ، والأكيد أنّ دوروثي تزعجها فكرة الاستيقاظ لتجد جسمها مليئاً بالكدمات والجروح » :

ـ « ألا توجد طريقة لإرجاع روزي ؟ » .

ـ « لا توجد طريقة مضمونة » .

ـ « هل توجد طرق غير مضمونة ؟ » .

ـ « نعم ، التنويم المغناطيسي » .

ـ « هل يمكنك أن تجربه ؟ » .

ـ « الآن » .

فأومأ سلتفليت برأسه موافقاً .

ـ « ذلك صعب جداً ، فنحن بحاجة إلى تعاون دوروثي ، وهي ، كما ترى ، مزاجها سيىء اليوم » .

وطقطق أصابعه وأضاف : « لكن لدي اقتراح ، فأنا أعالجها بالتنويم المغناطيسي لمدة ساعة صباح كل أحد ، وآنذاك تكون دوروثي مهيّأة له » .

ـ « هل أرجع غداً ؟ » .

ـ « كما تريد » .

ـ « حسناً ، هل أستطيع ـ إذا وجدت ذلك ضرورياً ـ أن أحضر معي شخصاً آخر » .

ـ « ضابط شرطة ؟ » .

فأومأ سلتفليت برأسه .

ـ « قد يسبّب ذلك المشاكل ، حتى أن حضور غريب واحد قد يؤدي إلى صعوبات » .

ـ « إذاً لن أفعل ذلك ما لم يكن ضرورياً جداً » . كان سلتفليت يريد أن يحتفظ بحقه في إحضار فينش .

ـ « أي ساعة ؟ » .

ـ « الحادية عشرة » .

ـ « حسناً » ، ومدّ يده إلى الطبيب .

ـ « أشكرك على مساعدتك القيمة وتعاونك » .

ـ « آمل في أن تقبض على المجرم » .

ـ « على فكرة ، هل لديك أي شيء يمكن أن أقرأه عن انفصام الشخصية ؟ » .

ـ « هناك الكتاب الذي ألّفته » . وفتح المكتبة ذات الواجهة الزجاجية وأخرج أحد الكتب . ولاحظ سلتفليت وجود صف كامل من الكتب التي تحمل اسم مورو معظمها بالإيطالية أو الألمانية .

ـ « أخشى ألاّ أستطيع إعطاءك إيّاه ، لأنّه نافد » .

أخذ سلتفليت الكتاب وقرأ عنوانه « أبحاث في التفكك العقلي » وقال :

ـ « سأرجعه لك غداً ، وثمّة شيء آخر . . . » .

ـ « نعم ؟ » .

ـ « في بداية شريط الفيديو ، سألت الفتاة هل كانت تذكر ما كنتما تتحدثان عنه في اليوم السابق ، فقالت نعم ، رغم أنّ دوروثي هي التي كانت تتكلم ، ولقد قلت إنها لا يتشاركان في الذاكرة نفسها » .

فقال مورو : « لعلّها قالت ذلك لأنّها شعرت بأنّ هذا هو الجواب الذي أنتظره ، أو لعلّ روزي هي التي كانت تتكلم ، قبل أن تسيطر دوروثي » .

ـ « آه ، نعم ، فهمت ، حسناً ، وشكراً مرة أخرى يا دكتور ، لا تتكلف عناء مرافقتي إلى الباب ، فأنا أعرف الطريق » .

نزل الدرج ببطء ، وهو يقلب صفحات الكتاب . كان أسلوبه بسيطاً ومباشراً . وفوجىء عندما وصل إلى أسفل الدرج بيد تلمس معصمه ، كانت تلك المرأة ذات الشعر الأسود التي فتحت باب غرفتها وألقت نظرة إلى

الخارج . وقالت له همساً :
ـ « هل تسمح لي بالتحدث إليك ؟ » .
فردّ بصوته الطبيعي : « بالطبع » .
وضعت المرأة أصبعها على شفتيه وهي تنظر خلفه ، وكانت قد ارتدت سترة نوم رقيقة فوق الصدرية وتنورة قطنية مزركشة ، إلاّ أنّها لم تنتعل حذاءها . أخذته من كمّه وجرّته وراءها عبر الرواق .
كان باب غرفتها مفتوحاً وعندما دخلا أغلقته وراءهما وتنهدت بارتياح .
ـ « أنت شرطي ، أليس كذلك ؟ » .
ـ « صحيح ، كيف عرفتِ ؟ » .
ـ « سمعتك تقول إنّك تحقّق في جريمة قتل ، وأظن أني أستطيع مساعدتك » .
إنّها امرأة في حوالي الأربعين من عمرها ، من الواضح أنّها كانت جميلة ، فبرغم التعب والشحوب اللذين يبدوان على وجهها لا تزال عيناها براقتين وأسنانها رائعة . لم تحاول أن تجلس أو أن تدعوه للجلوس بل وقف وأخذت تنظر إليه ملياً .
فسألها : « كيف ؟ » .
ـ « أعتقد أنّي قد أرشدك إلى دليل . فهناك رجل يتصل بي دائماً بالهاتف ويقول لي أشياء تسبب لي حالةً من الرعب » .
جال بنظره في الغرفة : « هل لديك هاتف ؟ » .
أجابت : « يوجد واحد في الخارج مقابل غرفتي » .
ثمّ أضافت : « يقول أشياء فظيعة مثل . . . . » وخفضت صوتها :
ـ « إنّه يريد أن ينزع ثيابي ثمّ يعض نهديّ ويمصّ دمي ، ويقول إنّه يريد أن يمددني على السرير ويغرز دبابيس في أنحاء جسدي كافة » .
كان واضحاً من لهجتها أنّها تلفق أو على الأقل تبالغ عن عمد فقال :
ـ « هل تلقى غيركِ مخابرات كهذه ؟ » .
ـ « آه ، كلا ، يقفل الخط ، إذا ردّ عليه أحد سواي » .
ـ « هل بلّغت الشرطة ؟ » .

ـ « لا ، لا يسمح لي بالخروج » .
ـ « كان بوسعك أن تتصلي بهم هاتفياً » .
فابتسمت برجاء : « ولكنك هنا الآن . وبامكاني أن أبلغك شخصياً » .
ـ « من الأفضل أن تبلغي المخفر المحلي » .
تجاهلت ما قاله وأخذت يده وقالت : « هذا الرجل مهووس ، قال إنّه يريد أن يمزق ثيابي بالسكين ، ومن ثمّ يعضّني في أنحاء جسمي كافة كما أنّه يعرف عن شامتي الفريز » .
ـ « شامة الفريز ! » .
ـ « تحت سرتي » . وقبل أن يتمكن من منعها كانت المرأة قد رفعت تنورتها ، كانت ترتدي جوربين وحمالات للتنورة ، إلاّ أنّها لم تكن ترتدي « لباساً داخلياً » .
ـ « انظر » وأشارت إلى الشامة ، فوق شعر العانة .
قمع سلتفليت الإثارة الغريزية التي دبت في أوصاله . ثمّ لاحظ آثار الكدمات التي غطّت فخذيها وبطنها .
ـ « كيف حدث هذا ؟ » .
برقت عيناها ، ممّا وشى بقوة استثارتها الجنسية وقالت :
ـ « حاول أحدهم اغتصابي » .
ولم تكن قد أنزلت تنورتها بعد . لكن سلتفليت ركز عينيه على وجهها .
ـ « من ؟ » .
ـ « فرانكي » .
ـ « هل بلغت د . مورو ؟ » .
ـ « كلا » .
ـ « لماذا ؟ » .
ـ « لا أريد أن أسبب له المشاكل » .
ـ « لا تريدين أن تسببي له المشاكل ، ولكنه حاول اغتصابك » .
فابتسمت بشكل غريب ودنت منه حتى التصقت به :
ـ « ما أخبرتك إيّاه لا يصل إلى نصف ما أعرفه » .
ـ « مثل ؟ » .

فأخذت يده وحاولت أن تضغط عليها بين فخذيها فأمسك بيدها وشدها جانباً .

فقالت : « أعرف أنّه من المفروض ألاّ يغادر فرانكي المنزل ، إلاّ أنّه يلحق بروزي كل مرة تخرج فيها » .

فجأة استنفرت غريزة التحري في داخله فقال :

ـ « هل أنتِ متأكدة ؟ » .

ـ « متأكدة تماماً ، فلا بدّ لهما من أن يمرّا أمام نافذتي في طريقهما إلى البوابة الجانبية » .

تمكنت من إنزال يده ووضعتها على معدتها .

ـ « هل خرجا ليلة البارحة ؟ » .

ـ « لا أدري ، لا أستطيع أن أتذكر . . . » .

كانت لا تزال تتمايل أمامه برفق ، وقد أغمضت عينيها ، محاولة أن تضع يده بين فخذيها . ثمّ سمع صرير الخشب من الجهة الأخرى للباب وعندها سحب يده وأمسك بكتفيها . فتحت عينيها كمن أفاق من نشوته فوضع أصبعه على شفتيها واستدار بهدوء ، وفتح الباب بسرعة ، فلمح شخصاً يختفي في الغرفة المجاورة :

ـ « من يشغل الغرفة المجاورة ؟ » .

ـ « روزي ، لماذا ؟ هل كانت تتنصت ؟ » .

ـ « كان أحدهم يسترق السمع » .

ـ « اللعينة » . فجأة أصبح صوتها طبيعياً .

فاستغل الفرصة وقال :

ـ « يجب أن أذهب » . لم تحاول منعه فخرج وأغلق الباب خلفه .

وصل إلى منزله خلال بضع دقائق . وكانت الساعة تقارب الخامسة ، فوجد ميرندا وجيرالدين في الحديقة الخلفية تستمتعان بأشعة أيلول الذهبية ، قالت ميرندا :

ـ « تعال واشرب الشاي » .

ـ « سأكون معكما بعد قليل ، علي أولاً أن أجري مخابرة هاتفية » .

طلب رقم مخفر هامرسميث وعرّف بنفسه ، ثمّ سألهم إن كان فيتش قد

اتصل بهم ، فحُوِّل إلى رقيب قال له إنّه اتصل قبل نصف ساعة وهو موجود الآن في مخفر تلبري ، فسجل سلتفليت رقم الهاتف . وبعد ذلك بدقائق قليلة كان يتحدث إلى فيتش .

ـ « مرحباً جورج ، أنا سلتفليت » . كان قد قرّر أنّه حان وقت التخاطب بالأسماء الأولى . « أعتقد بأن لدي ما يفيدك » .

ـ « رائع » وكانت حماسته واضحة . « ما هو ؟ » .

ـ « مشبوه » .

ـ « من هو ؟ » .

ـ « إنّها قصّة طويلة ، هل يمكنك أن تمرّ بي لدى عودتك من تلبري ؟ » .

ـ « ممكن ، ولكن ربما ليس الليلة ، فأنا أنتظر اثنين من زملاء تشورومنسكي ، وقد يتأخران ، ألا يمكنك أن تطلعني على الأمر بشكل سريع ؟ » .

ـ « حسناً ، باختصار ، اكتشفت نوعاً من المصحّات العقلية الخاصّة بالقرب من مسرح الجريمة ، إنّها مستشفى للذين يُعانون من مشاكل جنسية . واكتشفت أنّ آخر من شاهد البحار وهو على قيد الحياة فتاة تُدعى روزي ، وهي إحدى نزيلات المستشفى ، إنّها فتاة ماسوشية تحبّ أن تُضرب ، ويتبعها في كل مكان تذهب إليه شخص يشبه الغوريلا يُدعى فرانكي ، وهو مراهق نما بشكل فوق ـ الطبيعي فبدا مثل الزومبي . وأعتقد أنّه من الممكن أن يكون قد لحق بها البارحة ، ورأى البحار يتهال عليها ضرباً فقتله . عليك فقط أن تقابل بين حذائه وبين أثر القدم في حوض الزهور » .

ـ « رائع ، ولكن من هو فرانكي ؟ هل تعرف اسم عائلته ؟ » .

ـ « كلا ، ولكن بإمكانك الحصول على اسمه من مخفر توتنغ هيل ، يبدو أنّهم يعرفون كل شيء عنه ، فلقد سبق له أن تحرّش بالفتيات الصغيرات » .

ـ « سأتصل بهم فوراً » .

ـ « هل تطلبني إن عرفت أي شيء مثير للاهتمام ؟ » ، وأملى عليه رقم هاتفه .

دخلت ميرندا الغرفة من باب الحديقة وهو يقفل الخط .

ـ « هل سمعت الحديث ؟ » .

ـ « سمعت أغلبه ، تبدو وكأنّك قد توصّلت إلى معرفة القاتل » .

فابتسم بودّ : « لست ممن يعدون فراخهم قبل أن يفقس البيض » .

ـ « هل سيتسبب الفصل إليك ؟ » .

ـ « كلا ، إنّها قضية تابعة لقسم سكوتي ماكفيل ، وهو يضيق بأي تدخّل في منطقته » .

ـ « إذاً لماذا تساعده ؟ » .

ـ « أنا لا أساعده ، إنّي أفعل ذلك لمتعتي الخاصة . فعملي كما تعلمين مملّ جداً أحياناً . فقد أمضيت معظم وقتي في الستة الأشهر الأخيرة في قراءة شهادات الشهود ، واليوم وفي خلال بضع ساعات وجدت شاهداً مهماً وربما أكون قد وجدت القاتل . وهو عمل أشدّ إثارة من العمل المكتبي . بالإضافة إلى ذلك ، كادت تغتصبني اليوم امرأة مصابة بالشبق النسوي » .

ـ « ماذا ؟؟ » .

تذكّر أن جيرالدين جالسة في الحديقة بالقرب من الباب فوضع اصبعه على شفتيها وقال :

ـ « سأخبركِ فيما بعد » .

رنّ جرس الهاتف ، فرفع السماعة ليجد جورج فيتش على الخط ، وكان يبدو متحمساً :

ـ « تحدثت لتوي مع بيل واس في مخفر توتنغ هيل ، ويبدو أنّك قد تكون مصيباً ، الفتى اسمه فرانكي جاغو ، وهو مثير فعلي للمشاكل ، ولولا الطبيب لكان دخل السجن منذ وقت طويل » .

ـ « أخبرني الطبيب انه غير مؤذ ، وأنّه لا يفعل أكثر من دغدغة الفتيات » .

ـ « لا أعرف شيئاً عن الفتيات ، فالمشاكل التي أتحدث عنها تتعلق بالسكاكين ، إنّه مهووس بها ، ولقد اعتقل مرتين لجرحه مراهقين تشاجر معهم » .

ـ « يا الهي » .

ـ « هذا ما قلته أنا أيضاً ، يبدو أنّه قد يكون رجلنا . . . لحظة من فضلك » .

وتحدّث مع أحدهم في المكتب ثمّ قال :

ـ « آسف ، لقد أحضروا البحارة للتحقيق معهم ، سأتصل بك فيما بعد » .

ـ « هل تجعل ذلك صباح الغد ، سآخذ عائلتي إلى العشاء هذه الليلة ؟ » .

دخلت جيرالدين وهو يضع السماعة مكانها .

ـ « هل سمعتك تقول إننا سنخرج على العشاء ؟ » .

ـ « أجل » .

ـ « بابي » هتفت جيرالدين مبتهجة ، ولفت ذراعيها حول عنقه وشدّت بقوة . فقال في نفسه إنّها لا تزال في العاشرة من عمرها أو أقل ، ثمّ تذكّر الفتاة التي شاهدها في شريط الفيديو ، فطغى عليه شعور بالحزن والقلق .

4

يوم آخر من أيام أيلول الذهبية . رائحة الخريف الباردة تملأ الجو بمزيج من روائح الأرض الرطبة والأزهار والأوراق الذابلة .

غادر منزله في الحادية عشرة إلاّ خمس دقائق . كانت ميرندا وجيرالدين قد خرجتا قبله ، إذ قررت ميرندا أن تزور أهلها في سان ألبانز . وبينما هو يعبر شارع لادبروك غروف ، انتبه إلى أنّه لم يشعر بإثارة كهذه منذ قضية غاريت عام ١٩٧٦ ، آنذاك نشبت مباراة في الدهاء بينه وبين المتموّل المحتال ، معركة انتهت فجأة بسبب هرب السير هوغ غاريت إلى سريلانكا . أمّا الآن فما يثيره هو اللغز المحيّر للإمرأتين اللتين تتشاركان في جسدٍ واحد .

كان يحمل معه كتاب د . مورو : أبحاث في التفكك العقلي . ومع أنّه قضى أكثر من نصف الليل في قراءته فهو لا يشعر أنّه اقترب من فهم المشكلة . يبدأ الكتاب بعبارة : « إنّ وحدة الوعي البشري مجرد وهم » . ثمّ يتحدث عن « أنظمة الشخصية الفرعية » و« خفض عتبة التعقّل » و« فقدان الذاكرة المستيري » . ووصف مورو إحدى الحالات التي عالجها . مريض بقي غائباً عن الوعي لمدة أسبوع إثر حادثة سير ، ثمّ طوّر بعد ذلك شخصية ثالثة مكوّنة من شخصيته السابقة وشخصية جديدة عدائية مشككة وعنيفة . وفسّر مورو ذلك بوصفه نوعاً من العطب في مجموع الدورات الدماغية ، ثمّ أخذ يطبّق هذه النظرية على عدد من الحالات الأخرى . كان من الممكن أن يقتنع سلتفليت بهذه النظرية لو قرأها قبل أربع وعشرين ساعة فقط ، إلاّ أنّه يجدها الآن وبعد أن شاهد دوروثي تسيطر على جسم روزي نظرية سخيفة . وعندما دخل عبر البوابة الخضراء كان رأسه يضجّ بالأسئلة التي يريد أن يطرحها على مورو .

كان الباب الأمامي مفتوحاً ، لكنه قرر أن يقرع الجرس ، فعليه أن يطيع القوانين حتى خارج الخدمة ، سمع صوت باب يصفق في الطابق العلوي ، ونزل رجل الدرج بخفة القط ، على رغم طوله الذي يتعدى الستة أقدام وجسمه الممتلىء . ابتسم الرجل لسلتفليت ابتسامة ودية خجولة :

ـ « أنت مفتش البوليس ، د . مورو في انتظارك » .

كان وجهه غريباً ، إذ يبدو مثل كيس بلاستيك منفوخ أُفرغَ قليلاً ؛ فالبشرة اللامعة تغطيها التجاعيد الدقيقة ، وزرقة العينين باهتة جداً . وبينما كانا يصعدان الدرج قال له :

ـ « اسمي اميل » كان صوته ناعماً جداً ، كأنّه صوت امرأة .

فقال سلتفليت : « تشرفنا » .

أوصله الرجل إلى غرفة في نهاية الممر ، غرفة مكتب صغيرة ، كان مورو يجلس وراء مكتبها . لاحظ سلتفليت مبرد الأظافر والمرآة الصغيرة ، فرجح أن تكون الغرفة مكتب دوروثي .

قال مورو : « شكراً اميل ، سأراك على الغداء » .

وعندما أصبحا وحدهما قال سلتفليت : « أهو مريض آخر من نزلاء المصحّ ؟ » .

ـ « كلاّ ، إنّه يخضع للمعالجة في نهاية الأسبوع فقط ، يريد أن يخضع لعملية تغيير الجنس ، إنه سائق عربات كبيرة » .

ثمّ أخذ الكتاب الذي وضعه سلتفليت على الطاولة : « آه شكراً ، هل وجدته مفيداً ؟ » .

قرّر سلتفليت أن يكون لبقاً : « مهمّ جداً . . . هناك عشرات الأسئلة التي أودّ أن أطرحها عليك » .

ـ « بالطبع ، لكن لعلّه من الأفضل أن تؤجل ذلك . فقد وضعت دوروثي في حالة غيبوبة خفيفة ، لذا فمن الأفضل أن تدخل وتراها » .

ـ « قبل كل شيء ، ثمّة أمر آخر يجب أن أحدثك به ، هل يمكن أن تنتظر دوروثي بضع دقائق ؟ » .

ـ « بالتأكيد ، وإلى آخر النهار إن كان ذلك ضرورياً ، فهي من النوع

الذي يخضع لنوم مغناطيسي عميق وهي ظاهرة نادرة ، واحدة فقط من كل عشرين » .

ـ « الأمر لا يتعلق بدوروثي بل بفرانكي فلقد أخبرتني البارحة أنّه هنا لأنه يدغدغ الفتيات الصغيرات » .

ـ « هذا صحيح » .

ـ « لماذا لم تذكر أنّه مهووس بالسكاكين ؟ » .

فقال مورو بصراحة : « لأنّ الأمر لم يطرح ، بالإضافة إلى أنّي لا أعتقد بأنّ لذلك علاقة بمشكلاته » .

ـ « إلا أنك توافق على أنه مهووس بالسكاكين » .

ـ « لديه هوس بالسكاكين ، إلّا أنه على الصعيد العقلي ليس سوى طفل . أنا نفسي عندما كنتُ طفلاً كنتُ مهووساً « بالسكاكين » .

ـ « لكنه جرح أحدهم بسكين كَبّاس » .

ـ « حصل هذا في شجار بين مجموعاتٍ متخاصمة ، وأظن أن أخصامه أيضاً كانوا يحملون السكاكين وسلاسل العجلات » .

ـ « وتعتقد أن هذا لا علاقة له بمشاكله » .

قال مورو بحزم : « بل أنا متأكد من ذلك ، فمشاكل فرانكي سببها وحشية أمه وزوجها ، إنّه متخلف عقلياً لأنّ زوج أمّه سبب له عطلاً في الدماغ بضربه المبرّح له . وكان الشخص الوحيد الذي أحبّه فرانكي هو أخته الصغرى وكان عليه أن يرعاها كأبيها ، وهي كانت تحب أن تتعرى وأن تدغدغ في عضوها ؛ فلقد كانت العائلة كلها مصابة بمرض الطبوع « Phthorius inguinalis » وهذا ما يجعل فرانكي يدغدغ الفتيات الصغيرات ، يود العودة إلى أيام الطفولة السعيدة » .

قال سلتفليت : « سآخذ بكلامك إلّا أنّي أصارحك القول وأخبرك أنّه متهم بقتل البحار البولوني » .

بدا الذعر على وجه مورو : « لكن . . . لماذا . . . إلقاء التبعة على فرانكي » .

قال سلتفليت برقة وحزم في آن : « لا يا دكتور ، إنّنا لا نلقي اللوم على فرانكي ، أنت نفسك قلت لي إنّه يلحق بروزي كالكلب . وقالت لي سيدة

غريبة في الطابق الأرضي إنّه غالباً ما شوهد يلحق بها عندما تخرج في المساء » .

ـ « سيدة غريبة ؟ آه ، أنت تقصد هارييت ، إلّا أنه لا يمكن إطلاقاً الوثوق بها ، لو سألتني لأخبرتك أنّها تعيش في تشتت دائم » .

ـ « لم تسنح لي الفرصة فلقد سحبتني إلى غرفتها عندما تركتك بالأمس وأخبرتني أنّ فرانكي حاول اغتصابها » .

فرفع مورو يديه وقال : « آه ، فرانكي لا يمكن أن يغتصب امرأة بالغة فهنّ يثرن رعبه ، وهذا هو سبب تعلقه الشديد بروزي ، فهي ضعيفة وبحاجة إلى الحماية » .

ـ « حسناً ، يجب ان أعترف أنّي لم أصدق هذا الجزء من كلامها ، ولكن لم يكن لديها ما يدفعها للكذب عندما أخبرتني أنّ فرانكي يلحق بروزي لدى خروجها » .

ـ « أنا لم أقل إن ذلك مستحيل . فأنا لا أراقب مرضاي أربعاً وعشرين ساعة في اليوم ، لكن فرانكي نفسه يعرف مدى خطورة مغادرة هذا البيت ، فلو رأته الشرطة لَسيق مباشرة إلى السجن . فشرط وجوده هنا أن يبقى داخل المنزل ، أما هارييت فهي هنا لأنّها لا تميز بين الحقيقة والوهم » .

ـ « ماذا تفعل ؟ » .

ـ « تجري مخابرات هاتفية داعرة ، وتفضل الاتصال بالمخافر ، فهي مفتونة برجال الشرطة » .

ـ « هذا يفسّر الكثير ، فقد حاولت أن تخلع ثيابها أمامي » .

رفع مورو حاجبيه في اندهاش حقيقي : « إذاً أنت متميز جداً ، فما حدث مهمّ حقاً ، فهي تكتفي في العادة بالتعرّي وهي تتحدث على الهاتف ، إنّها خطوة على طريق شفائها » .

فقال سلتفليت : « أنا سعيد بسماعي هذا » .

أدرك مورو مدى سخرية المفتش : « أنت تجد الأمر مسلياً ، لكن ذلك صحيح فعلاً فكل المرضى الشاذين جنسياً يعانون من المشكلة نفسها ـ يفشلون في التأقلم مع الواقع ، فعامل الحقيقة مضطرب لديهم . ولا يستطيعون التمييز بشكل صحيح بين العالم الحقيقي والعالم الموجود داخل رؤوسهم . . . » .

قال سلتفليت : « أظنّ أنّ هذا ينطبق على أغلبية الناس » .

بدا الابتهاج على ملامح مورو وقال : « آه ، سيدي ، أنت فيلسوف ، إنّه من دواعي فخري أن التقي بشرطي وفيلسوف في آن » .

ارتاب سلتفليت للحظة في أن يكون مورو يسخر منه ، غير أنّه كان من الجلي أن الطبيب جاد في ما يقوله .

ـ « أنت محق ، بالطبع ، فالرجل الذي يكون عامل الحقيقة لديه كاملاً هو إنسان كامل ، لكن عند المرضى الشاذين جنسياً ، أي من كانوا يدعون بالمنحرفين جنسياً ـ فإنّ انعدام عامل الواقع يبدو واضحاً بشكل خاص ، فإن تدرجت هارييت وصولاً إلى تعرية نفسها في الواقع بدلاً من أن تفعل ذلك على الهاتف ، فإنّ في ذلك ما يدلّ على أنّ عامل الواقع لديها أصبح أقوى » . ومال إلى الأمام وكانت عيناه تشعان وداً وحناناً . « والآن ترى لماذا أشعر بالقلق عندما تقول لي إنّ فرانكي مشتبه به . أنا شخصياً مقتنع ـ مقتنع كلياً ـ أنّه لا يرتكب جريمة قتل ، خصوصاً جريمة قتل ذات دوافع جنسية ، كالتي تصفها . وظيفتي أن أقنعه ، بقبول الواقع كما هو ، فإن أخذته إلى المخفر واتهمته بجريمة قتل ، فإنّك تقوّض عمل ستة أشهر » .

فقال سلتفليت : « اسمع ، سأقول لك شيئاً ، تقول إنّه لا يقدر على ارتكاب جريمة قتل ، فالمفترض إذاً أنّك لا تمانع في المساعدة على اكتشاف الحقيقة ، كم زوجاً من الأحذية لديه ؟ » .

ـ « أحذية . . . زوج واحد أظن ، أو اثنان على الأكثر » .

ـ « أمن الممكن أن أراهما ؟ » .

ـ « بالطبع ، ليس ثمّة ما هو أسهل من ذلك ، لكن لماذا ؟ » .

ـ « وجدنا أثر قدم رجل في حوض الزهور بالقرب من جثة البحار ، فإن لم يكن الأثر مطابقاً لحذاء فرانكي تبرأ ساحته » .

ـ « لنفعل ذلك ، هل يمكنك أن تعرف بمجرد أن ترى حذاءه وهو ينتعله ؟ » .

ـ « لا ، لا بد من قياس النعل وصنع قالب » .

ـ « ليست هناك مشكلة ، اميل هو رجل المهمات الغريبة ، وهو ينظف

الاحذية أحياناً ، فإنْ قلت لفرانكي أن يخلع حذاءه ويعطيه لإميل ليمسحه فسيفعل » .

ـ « ألن يشكّ في الأمر ؟ » .

ـ « إنّه مثل الطفل ، يفعل ما أقول له » .

ـ « عظيم ، وإن لم يطابق الحذاء الأثر ، فإنّي أعدك بأنّنا لن نزعج فرانكي » .

كان ارتياح مورو واضحاً ، فمدّ يده وقال : « اتفقنا » .

كان لكلمته وقعها الطريف بلكنتها الإيطالية كأنّه واحد من الأخوة ماركس(*) .

ـ « دعنا الآن نذهب إلى دوروثي » .

لحق به سلتفليت إلى الرواق . أخرج مورو مفتاحاً من جيبه وفتح مزلاج باب غرفته وقال موضحاً :

ـ « لا أترك أبداً مريضاً منوماً تنويماً مغناطيسياً في غرفة غير مقفلة » .

كانت الستائر مسدلة حاجبة نور الشمس وكانت دوروثي مستلقية على الكنبة وعيناها مغلقتان .

سأله سلتفليت هامساً : « هل يسمح لي بالكلام ؟ » .

ـ « بالطبع » . كان مورو يتحدث بشكل عادي . « إنّها نائمة » .

أخذ مورو كرسياً ووضعها قرب طرف الكنبة داعياً سلتفليت للجلوس ، وجلس من الناحية الأخرى . لاحظ سلتفليت أنّه يرتدي ثياباً مختلفة هذا الصباح : بذلة رمادية ، وبلوزة حريرية زرقاء ، وحذاء رمادياً . وذكّر نفسه بأن يسأل مورو إن كانت دوروثي أحضرت ثيابها الخاصة أم إنّها ترتدي ملابس دوروثي .

فتح مورو عيني دوروثي ثمّ تركهما تنغلقان ثانية وقال :

ـ « دوروثي ، هل تسمعينني » .

ثمّ أعادها مرة أخرى ببطء مقرباً وجهه من وجهها . فأومأت برأسها .

فقال : « من أنا ؟ » .

(*) الأخوة ماركس : من كبار ممثلي الكوميديا العالمية في الثلاثينات .

فقالت : « د. مورو » .

ـ « صحيح ، هل تعرفين من هي روزي ؟ » .

ساد صمت طويل ثمّ قالت : « أجل » .

ـ « هل هي هناك ؟ » .

ـ « أجل » .

ـ « هل تطلبين منها أن تحضر ؟ » .

ساد الصمت طويلاً جداً حتى ظنّ سلتفليت أنّها لن تجيب . وقالت أخيراً :

ـ « لا تريد » .

ـ « لِمَ لا ؟ » .

مرة أخرى ساد الصمت ثمّ قالت : « ترفض الإجابة » .

ـ « هل هي خائفة ؟ » .

ـ « أجل » .

التفت مورو نحو سلتفليت وقال : « آسف » .

فقال سلتفليت : « ليس باليد حيلة ، إلاّ أنّها سترجع يوماً ما » .

فوجىء سلتفليت بسهولة تقبله أنّ روزي في مكان ما داخل تلك الفتاة النائمة ، وترفض أن تخرج كمن يرفض الرد على الهاتف .

قال مورو : « ثمّة شيء يمكن أن نجربه ، قد يتمكن فرانكي من إقناعها . هل تأذن لي ؟ » .

خرج مورو وبقي سلتفليت وحده يحدّق إلى الفتاة الممدّدة على الكنبة ، وكان واضحاً أنّ هذه الفتاة ، حتى وهي نائمة ، هي دوروثي وليست روزي . كانت دوروثي نائمة وقد ضمت ركبتيها وقدميها ومدّت يديها على جنبيها . رأى سلتفليت أن تعبير الفم هو الذي يشير إلى حضور دوروثي : فهو مرتاح وحازم . وكانت تتنفس بهدوء وانتظام .

دخل مورو ولحق به فرانكي . كان الشاب يرتدي بلوزة زرقاء تبرز عضلاته المفتولة . نظر سلتفليت إلى حذائه ، كان ينتعل خفاً أبيض ذا نعل مطاطي ، فقطب حاجبيه عندما رأى سلتفليت ثمّ حوّل اهتمامه نحو الفتاة النائمة .

قال مورو : « اطلب منها أن تأتي » .

فجلس فرانكي على الكنبة بجانب ركبتي الفتاة وأخذ يركز نظره عليها ثمّ قال بهدوء : « روزا . . . روزي . . . » .

وعندما لم يحدث شيء ، اقترب من وجهها ولمس خدها بحنان مدهش وقال : « روزي ، الطبيب يريد أن يتحدث معك » .

فوجىء سلتفليت عندما رآه ينحني إلى الأمام وكأنّه يصغي باهتمام شديد ثمّ قال لمورو : « لا تريد » .

ـ « لماذا ؟ » .

ـ « إنّها خائفة » .

ـ « قل لها إنّه ليس ثمّة ما يخيف » .

فقال فرانكي : « روزي ، الطبيب يقول إنّه لا داعي للخوف » . فساد الصمت ومرة أخرى اندهش سلتفليت عندما رأى فرانكي يصيخ السمع ، وتأثر بتحوله من إنسانٍ منعزل شبه أبله إلى إنسان يحيط الآخرين برعايته ، وفجأة أدرك أن مورو محق في قوله إنّ فرانكي لا يمكن أن يؤذي الأطفال .

قال فرانكي : « لا تريد » .

ـ « حسناً ، شكراً » ، والتفت إلى سلتفليت :

ـ « أخشى أنّنا قمنا بكل ما في وسعنا فعله » .

ـ « هل أجرب أنا أن أتحدث إليها ؟ » .

فهزّ مورو برأسه : « لن يجدي هذا نفعاً » .

ولاحظ سلتفليت ابتسامة فرانكي الساخرة التي اختفت بسرعة : « هل تتحدث أنت معها ؟ يبدو أنّ الجميع يسمعون كلامك » .

لم يكن سلتفليت على استعداد لتقبل الهزيمة .

فكّر مورو ثمّ قال : « أظنّ أنّه بقي شيء واحد يمكننا أن نجربه » .

ـ « ما هو ؟ » .

ـ « تعميق حالة نومها ، فإنّه ينجح أحياناً » .

وأخذ يدها وحضنها بكلتا يديه وقال بحنان ونعومة : « دوروثي هل تسمعينني » .

هزّت برأسها فأضاف : « أريدكِ أن تنامي عميقاً ، عميقاً ، أعمق من أي وقت سابق ، نوماً عميقاً ، نوماً عميقاً ، أجل ، هكذا ، تنفسي بعمق ، إنّك تنامين الآن بشكل أعمق فأعمق وتسترخين بشكل كلّي ، أعمق ، وأعمق . . . » .

كان صوته مهدئاً إلى درجة أنّ سلتفليت نفسه أخذ يشعر بالنعاس ، ولاحظ أنّ فرانكي أيضاً أخذ يتمايل ، وفجأة صعقوا جميعاً فقد تصلّب جسد الفتاة ورفعت يدها اليمنى وكأنّها تتقي ضربة . . . .

قال مورو : « دوروثي هل أنت بخير ؟ » .

كانت يدها لا تزال مرفوعة ، فحاول مورو إنزالها ، إلّا أنّها بدت متصلبة وجامدة فقال : « استرخي يا دوروثي أريدك أن تسترخي فكل شيء على ما يرام » . ثمّ ترك يدها فجأة ، ولاحظ سلتفليت أنّ وجه الفتاة قد شحب فجأة وبدت كالجثة ، وتوقف صدرها عن الحركة ، فحاول سلتفليت أن يمسك معصمها ، إلّا أنّ فرانكي منعه من ذلك بإمساك معصمه والشدّ بقوة أجفلت المفتش .

فهتف مورو : « فرانكي ، توقف عن هذا ، دع يده » . ولم يدع فرانكي يد المفوض إلّا بعد أن انتهره مورو مرة أخرى . شعر سلتفليت بتخدر في زنده وكأنّما أطبق عليها فكّا ملزمة .

قال مورو مؤنباً : « كان فقط يحاول المساعدة » .

ثمّ وضع أذنه على صدر الفتاة وقال : « قلبها ينبض » . ثمّ رفع يدها وتركها تسقط فبدا أنّ جسدها لم يعد مشدوداً . لاحظ سلتفليت أنّ صدرها لا يتحرك فقال منبهاً :

ـ « يبدو أنّها لا تتنفس » .

ـ « شاهدت مثل هذه الحالة من قبل ونحن نسميها الإغماء المغناطيسي ، لقد أنزلتها إلى درجة الصفر من الوعي » .

ـ « هل هي بخير ؟ » .

هزّ مورو رأسه : « ستستعيد وعيها بعد قليل . قلت لك إنّها من النوع الذي يخضع للتنويم المغناطيسي العميق » .

جلسوا جميعاً ينظرون إلى الفتاة ، كان بوسع سلتفليت القول إنّ الفتاة ميتة فجسدها ساكن تماماً سكون الأموات ، كما كان بوسعه أن يلاحظ قلق مورو رغم طمأنته له ، وعندما لم يطرأ أي تحسن خلال الدقائق التالية تساءل سلتفليت :

ـ « ماذا تفعل الآن ؟ » .

ـ « لا نملك سوى الانتظار » .

ـ « انتظار ماذا ؟ » .

ـ « لا أدري ، إنّ شخصية الإنسان منظومة غريبة متداخلة من التوترات والضغوطات التي تصدر عن قوى متضادة في حالة توازن . وفي مثل حالة روزي فإن معظم الضغوطات سلبية ، محض دفاعية . وحتى تحت تأثير التنويم المغناطيسي فإنّ بعض هذه الضغوطات تبقى ، رغم كونها تبدو وكأنّها تخلصت منها . . . » .

كان واضحاً أنّه يحاول أن يطمئن نفسه . وكان سلتفليت يدلك معصمه المتورم . لم يكن مستاءً ، ففرانكي انفعل بشكل غريزي ، كما يفعل الكلب لدى الهجوم على سيده . وانعكس عليه منظر الفتاة النائمة فأخذ يفكر بسر الروح الإنسانية . فجسدها يبدو فارغاً ، كآلة مهملة ، كسيارة مهترئة في مكبّ للسيارات القديمة ، ولا يوجد أحد داخله الآن ، لا صاحبه الأصلي ولا الشخص الذي أجبرها على مشاركتها فيه ، فأين هما الآن . ووجد نفسه يرتعش فجأة فيما يشبه الخوف ، فهو في غرفة عادية وإحساسه بأنّ كل شيء طبيعي نابع من تجربته الحياتية اليومية ، لكنه أدرك فجأة أنّ الطبيعة ما هي إلّا ستار رقيق يفصله عن عالم كل ما فيه غامض وغريب . وتساءل هل إدراكه لمدى جهله يجب أن يثير لديه شعوراً بالكآبة أم بالرعب . ثمّ انتبه إلى أنّ في أعماق نفسه شعور بالثقة بأنّه لا يوجد شيء يستدعي الخوف ، وفي الوقت نفسه شعر فجأة أنّه يعي لاواقعية وجوده اليومي أي ما أسماه مورو ذلك النظام الغريب من الضغوطات المتداخلة التي تكوّن شخصية المرء . . . كأنّه اختلس النظر فجأة إلى غرفة المحركات في السفينة ، ووجد نفسه يتساءل : هل الموت يوفر تجربة مماثلة ؟

قال مورو لفرانكي : « حاول أن تكلمها » .

ظهر التردّد على فرانكي ، فقد كان واضحاً أنّه مثل سلتفليت يعتبر أنّ الفتاة جثّة هامدة .

وضع فرانكي يده برقّة وحنان على خد روزا ، ومال نحوها بحيث بدا من المكان الذي يجلس فيه سلتفليت وكأنّه يقبلها ثمّ همس :

ـ « روزي ... روزي ... روزي ، هل تسمعينني ، روزي ... روزي ... » .

وبدا كأنّه يصرخ في الفراغ . أمعن سلتفليت النظر إليه ، فهو يظن أنّ الأمر ميؤوس منه ، إلاّ أنّه من المؤكد أن فرانكي لا يشاركه تشاؤمه . إنّه كالطفل الذي يحاول إنزال الهر عن الشجرة . ولاحظ مورو ذلك أيضاً . انحنى إلى الأمام يتأمل الوجه الساكن ، ثمّ لاحظ سلتفليت حركة بسيطة في صدرها فقال :

ـ « إنّها تتنفس من جديد » .

وفيما هو يتكلم هزت الفتاة رأسها ، كأنها تحاول طرد ذبابة ، وفجأة عادت تتنفس بشكل طبيعي ، ربّت مورو على كتف فرانكي وقال : « عمل رائع » .

فاحمرّ وجه فرانكي خجلاً وسروراً . ثمّ أخذ مورو يد الفتاة مرة أخرى وقال في أذنها : « مرحباً » .

ـ « مرحباً» ، رددت بحيوية ونشاط كأنّها لم تكن نائمة ثمّ ابتسمت لمورو وحاولت أن تجلس .

فسألها مورو : « كيف تشعرين ؟ » .

ـ « في أحسن حال » كان صوتها طبيعياً ومبتهجاً .

تراجع فرانكي إلى طرف الكنبة ليفسح لها مكاناً للجلوس .

قال مورو : « هل تعرفين من أنا ؟ » .

ـ « أنا ... أظن ذلك » .

لم تكن متأكدة .

وقع سلتفليت في حيرة كبيرة ، فالوجه لم يعد وجه دوروثي ، بل إنّه وجه يوحي بالراحة والثقة ، ولكنه لم يكن أيضاً وجه تلك الفتاة التي رآها البارحة

على شاشة التلفزيون والتي دعت نفسها « روزا » .

فلم تعد تذكره بجيرالدين .

قال مورو : « افتحي عينيك » .

حاولت الفتاة فتح عينيها لكنها لم تقدر .

فقال مورو : « إذاً سوف أفتحهما لك » .

ورفع مورو جفنيها بإبهامه ، فطرفت عيناها كأنّما تعرضتا للشمس بشكل فجائي : « هل تعرفينني ؟ » .

هزّت رأسها بعنف وبشكل طفولي .

ـ « لكنكِ تعرفين فرانكي ، أليس كذلك ؟» .

حدقت الفتاة إلى فرانكي ثمّ هزّت رأسها من جديد . ولكن عندما انتبهت لوجود سلتفليت انفرج فمها عن ابتسامة مليئة بالسعادة وقالت :

ـ « هذا أعرفه » .

ـ « من هو ؟ » .

ـ « إنّه العم جريج بالطبع » . ومرة أخرى كان الطابع الطفولي واضحاً .

فقال سلتفليت : « غير معقول » .

ـ « ماذا؟ » .

ـ « هذا هو اسمي بالفعل » .

فقالت الفتاة : « أرأيت أنّه العم جريج » .

فقال مورو : « ومن أنت ؟ » .

فنظرت إلى الأرض خجلة مبتسمة .

فقال مورو : « أرجوك أن تقولي لنا ما اسمك » .

كان واضحاً أنّها تستمتع باللعبة .

ـ « أرجوك » .

فنظرت من طرف عينها إلى سلتفليت وقالت :

ـ « اسأله » .

فقال سلتفليت متحمساً : « روزي » .

فنظرت بزهو إلى مورو وقالت : « أرأيت إنّه يعرف » .

قال مورو : « وكم عمرك يا روزي ؟ » .
ـ « لن أقول » .
ـ « هل تستطيعين الوقوف ؟ » .
ـ « طبعاً ، أستطيع » . وهبّت واقفة ، فكادت تقع لو لم يبادر سلتفليت إلى الإمساك بها ، وقال :
ـ « ألن تخبرينا كم هو عمرك ؟ » .
تجاهلت كلامه ، ثمّ أخذت تفكّ أزرار سترته ، وأدخلت يدها في جيب سرواله .
فسألها مورو : « ماذا تفعلين ؟ » .
ابتسمت بخفّة ، ومدّت يدها إلى الجيب الأخرى ، ولما لم تجد ما يثير اهتمامها ، انتقلت إلى جيوب السترة ، ولمعت عيناها عندما وجدت علبة بلاستيكية صغيرة مملوءة بقطع الحلوى ، فسألت بلهفة :
ـ « هل تعطيني هذه الحلوى . . . إن أحببت ؟ » .
فسأل مورو : « عمّا تتحدّث ؟ » .
فقال سلتفليت : « مزيل لرائحة النفس من تلك التي يبيعونها في أكشاك السجائر » .
قالت روزي : « هل أستطيع أن آخذها فجو وماري لا يحبان الحلوى ؟ » .
فابتسم سلتفليت وهو لا يصدّق ما يحدث : « هل أنت متأكدة ؟ » .
ضحكت وقالت : « ليس بقدر ما أحبها » .
وجدت صعوبة في فتح العلبة ففتحها سلتفليت فأعادت السؤال :
ـ « هل آخذها كلها ؟ » .
فقال سلتفليت : « إن كنت فتاة طيبة » .
ـ « إنّي كذلك ، أعدك » . ولفت يديها حول عنقه وطبعت قبلة رطبة على أذنه .
ـ « هل يوجد غيرها ؟ » وحاولت وضع يدها في الجيب الآخر ، إلاّ أنّ مورو أمسك برسغها .
وقال : « فيما بعد يا روزي ، ليس الآن » .
فقلبت شفتيها ، وأطاعت .

ـ « والآن ، تعالي اجلسي » .
فجلست على كرسي سلتفليت ووضعت يديها في حجرها ، محكمة قبضتها على علبة الحلوى .
قال مورو : « كم عمرك يا روزي ؟ » .
ـ « أربع سنوات وسبعة أشهر . . . لا ثمانية أشهر » .
ـ « وأين تسكنين ؟ » .
ـ « ٢١ ، شارع برنستوود اورينغتون » .
قالت ذلك وكأنّها تسمّع درسها . ولمحت اليد المقطوعة في الخزانة فاتّسعت عيناها وسألت :
ـ « ما هذا؟ » وركضت نحو الخزانة وأخذت تتأملها . لاحظ سلتفليت غرابة الموقف ، فصوتها صوت طفل وحركاتها حركات طفل ، غير أنّ جسمها جسم امرأة ، سألت بحماسة :
ـ « هل هي حقيقية ؟ » .
فقال مورو بصوت خافت لفرانكي : « تحدث معها » .
فمشى فرانكي نحوها وقال : « لا ، ليست حقيقية ، إنّها مصنوعة من الشمع » .
فقالت عن اقتناع : « إنّها رهيبة » .
وكانت تلثغ بالراء فتلفظها كالواو . انحنى فرانكي نحو الخزانة فلاحظت شعره وسألته : « لماذا تحلق شعرك بهذه الطريقة الغريبة » .
فقال بسرور ومرح : « يجدر بك الاّ تبدي ملاحظات شخصية فشعري ليس بأغرب من شعرك » .
لاحظ سلتفليت أنّه كان مرتاحاً تماماً معها ، وأنّها تستحضر ما هو طبيعي نوعاً ما في داخله .
ـ « شعري ليس غريباً » . ورفعت يدها لتتحسس شعرها ، فلمست الرباط المطاطي الذي يربط « جدولتها » فصاحت :
ـ « ما هذه ؟ » وركضت إلى المرآة المعلقة في الزاوية ، وحاولت أن ترى مؤخرة رأسها ، ثمّ استدارت فرأت وجهها . فاتّسعت عيناها من هول المفاجأة ثمّ أخذت تحدق في المرآة دون أن تتمكن من تصديق نفسها .

فقال مورو : « ما الأمر يا روزي ؟ » .
ـ « أبدو مختلفة » . بدت متوترة وغير واثقة من نفسها .
فقال مورو مهدئاً : « لا ، إنّك ما زلت على حالك » .
فأشارت إلى فرانكي وقالت : « هو يقول إنّي أبدو غريبة » .
فقال مؤاسياً : « لم أعنِ ذلك ، كنت أداعبك فقط » .
نظرت روزي إلى ساقيها ، فبدا عليها الاشمئزاز وقالت :
ـ « لماذا أرتدي جوربين أحمرين ؟ » .

وبدون أن تنتبه لنفسها رفعت تنورتها إلى خصرها ، فأدهشتها رؤية المشدّ . وقالت :
ـ « ما هذا ؟ » .
أجاب فرانكي : « إنّه يدعى ـ مشدّ ـ » .
ـ « لا أحبّ الأشياء الحمراء » . وأخذت تحاول نزعه ، فكادت تخلع سروالها الداخلي وقالت :
ـ « إنّه قذر » . ثمّ فقدت توازنها فأمسك بها فرانكي قبل أن تقع فحاولت أن تخلص نفسها :
ـ « دعني » .

امتثل فرانكي فوقعت على الأرض ، ثمّ خلعت المشدّ ورمته بعيداً وهي تبكي .

فهمس مورو في أذن سلتفليت : « حاول أن تجعلها تستلقي على الكنبة » .

فقام سلتفليت وتحدث إليها من خلفها : « تعالي ، انهضي ، العم جريج هنا ليعنى بك » .

أوقفها على رجليها . أدهشته ردة فعلها ، فبعد أن وقفت تحدق به دون أن يبدو على وجهها أي تعبير ، ظهرت ملامح الغضب عليها فجأة وقالت :
ـ « ابتعد عني » .

ودفعته بعنف حتى كاد أن يقع ، فنظر إلى مورو الذي كان واضحاً أنّه قد فوجىء مثله . ثمّ قال :
ـ « لكن لمَ يا روزي ؟ ماذا فعلت ؟ » .

وعندما مشى صوبها ، تمسكت بيد فرانكي وقالت : « أرجوك ، لا تدعه يلمسني » .

إلاّ أنّ سلتفليت كان مستعداً هذه المرة ، فقد أيقن أنّها أثارت غريزة الحماية لديه ، فعندما تقدم فرانكي نحوه اتبع معه بشكل آلي وسائل الدفاع عن النفس التي تعلمها في كلية الشرطة . فرجع إلى الوراء ، موقعاً فرانكي أرضاً بضربة من رجله اليمنى ثمّ ضارباً إيّاه على مؤخرة رقبته بطرف يده فانهار فرانكي وأغمي عليه وعلا بكاء روزي .
فهرع مورو إلى سلتفليت مطمئناً : « هل سيكون بخير ؟ » .
ـ « طبعاً ، لقد أغمي عليه فقط » .

أحاط ذراع مورو بكتفي روزي وقال مهدئاً : « تعالي ، وارتاحي ، هيا بنا » .

سمحت له بأن يقودها إلى الكنبة فقال لها : « حان موعد نومك » .
هزت رأسها بعنف . فأضاف :
ـ « بل ، حصلت على ما يكفي من الإثارة والحماسة بالنسبة إلى فتاة صغيرة » .

وطلب من سلتفليت أن يبتعد عن خط نظرها حتى لا تراه وقال :
ـ « هيا بنا ، استلقي » .

سمحت له أن يضغط على كتفيها ، دافعاً إيّاها نحو الكنبة ، ومنعها من الالتفات لرؤية فرانكي :
ـ « هذا صحيح ، والآن أغمضي عينيك ، وسوف أعدّ إلى العشرة ، وعندما أنتهي سوف تكونين غارقة في النوم » .

وبعد عدة ثوان كانت تغط في نومها ، ثمّ تحرّك فرانكي وأخذ سلتفليت يراقبه وهو يجلس ، إلاّ أنّه بدا مذهولاً ومقهوراً وهو يدلّك أسفل رقبته .
سأله مورو باهتمام ورعاية : « هل أنت بخير ؟ » .
ـ « لدي صداع » .
ـ « اجلس ، وضع رأسك على ركبتيك ولسوف يزول » .
تساءل سلتفليت بينه وبين نفسه إنْ كان عليه أن يعتذر ، ثمّ قرّر أن لا

يفعل ذلك . فمن الواضح انّ فرانكي كان ينوي أن يلحق به أذى جـدياً كبيراً .

لمّ مورو المشدّ وقال : « أظنّ أنّه من الأفضل أن نلبسها هذا ، لا أريدها أن تستيقظ فلا تجده عليها » .

ساعده سلتفليت على إلباس الفتاة النائمة . وقال وهو يرفع ردفيها عن الكنبة :

ـ « إنّ المشدّ هو الذي سبّب لها ذلك » .

فقال فرانكي من المكان الذي يجلس فيه على الأرض :

ـ « إنّه بلون الدم » .

فنظر إليه كلاهما باستغراب وقال مورو : « وما الفرق ؟ » .

إلاّ انّ فرانكي لم يزد على أن تنهد . فقال له مورو :

ـ « كيف تشعر الآن ؟ » .

ـ « أحسن قليلاً » .

ـ « إذاً لعلّه من الأفضل أن تذهب وترتاح في غرفتك » .

قام فرانكي جارّاً نفسه . فنظر سلتفليت إلى مورو ثمّ نظر إلى حذائه . ففهم مورو على الفور .

ـ « فرانكي أين حذاؤك؟ » .

ـ « لا أعرف » .

ـ « هل هو في غرفتك ؟ » .

ـ « كلا ، لقد اختفى » .

ـ « هل بحثت عنه ؟ » .

فأومأ برأسه .

ـ « هل تقصد أنّ أحداً أخذه ؟ » .

ـ « أظنّ ذلك » .

فتبادل مورو وسلتفليت النظرات وقال مورو :

ـ « اذهب وابحث مرة أخرى ، سأطلب من أميل أن يصبغه ، فإنّ وجدته أحضره لي » .

قال فرانكي ساخطاً : « قلت لك ، اختفى » .

لاحظ سلتفليت أنّ انزعاج فرانكي ليس مصطنعاً . فلن يستطيع أي ممثّل أن يمزج الشعور باحترام مورو والاحتجاج على طلبه القيام بأمر مستحيل .

عندما ذهب فرانكي قال مورو : « غريب ، لا أقدر أن أتخيل كيف اختفى الحذاء » .

ـ « هل يوجد موقد أو فرن في المنزل ؟ » .

ـ « يوجد فرن في القبو » .

ـ « هل يعمل ؟ » .

ـ « أجل » .

ـ « إذاً أراهن أنّ الحذاء قد رمي فيه » .

ـ « لكن ، لماذا يحرق فرانكي حذاءه ؟ » .

ـ « لا ، ليس فرانكي بل دوروثي » . ونظر إلى الفتاة النائمة ، كان تنفسها ضعيفاً ومنتظماً .

ـ « كانت تتنصت خلف الباب عندما كنت أتحدث مع مريضتك في الطابق السفلي ، هارييت » .

ـ « ولماذا تحاول دوروثي حماية فرانكي ؟ فهي لا تحبه وهو لا يحبها » .

ـ « إلاّ أنّها تودّ حماية روزي ، لأنّ لديها الجسد نفسه ، فإنْ تورطت روزي في الجريمة ، فهي إذاً متواطئة معها » .

فابتسم مورو بصبر : « أقول لك بصدق إنّي لا أصدّق بأن لروزي أيّة علاقة بالجريمة » .

ـ « إلاّ أنّ ذلك لا ينطبق على فرانكي فلعلّه لحق بها عندما خرجت يوم السبت وشاهد البحار وهو يمضي معها ، فتدخل لمنعه عندما بدأ البحار يضربها ، هل يمكنك أن تعطيني سبباً وجيهاً واحداً على عدم إمكانية حدوث ذلك ؟ » .

ـ « نعم ، بإمكاني أن أعطيك سبباً وجيهاً جداً : تقول إنّ هذه الجريمة جنسية وإنّ القاتل حاول إخصاء الضحية ، بينما فرانكي لا يمكن أن يقوم بعمل كهذا . أوافق على أنّه قد يقتل رجلاً في ساعة غضب . غير أنّه لا يعرف القسـاوة والحقد ، ولا بدّ من أنّك رأيت ذلك اليوم عندما كان يتحدث

إلى روزي كالطفل » .

ـ « لكن لعلّه كان غاضباً عندما أقدم على إخصائه » .

ـ « لا . . . فكر بالأمر ، إن كنت في حالة غضب دفعتك لقتل شخص ما بسكين ، فإنّ ذلك بنفس غضبك . أنا أتحدّث الآن كطبيب ، فلقد عملت مع الشرطة كخبير طبي في برلين ومن ثمّ في الجزائر ، ولقد شاهدت ست حالات إخصاء قامت بإحداها امرأة لم يكن زوجها مخلصاً ، والحالات الخمس الأخرى قام بها لواطيون ساديون » .

ـ « إذاً تظن أنّه علينا البحث عن لوطي سادي » .

ـ « أظنّ أنّ ذلك محتمل ، وأعرف شخصين على الأقل في المنطقة ، بمقدورهما القيام بمثل هذه الجريمة » .

ـ « هل ستكون مستعداً لإعطائنا اسميهما ؟ » .

ـ « إنْ كان ذلك ضرورياً ، ولكن اسميهما موجودان على الأرجح لدى الشرطة المحلية ، وليس معنى قولي هذا أنّي أعتقد بأنّ أحدهما قاتل ، بل إنّهما من الممكن أن يكونا قاتلين أكثر من فرانكي . دعني أخبرك أنّنا لا نعلم إن كان فرانكي قد خرج من البيت يوم السبت » .

فنظر سلتفليت إلى الفتاة وقال : « هي الوحيدة التي يمكن أن تخبرنا » .

ـ « وهي ستقول لنا ، صدقني ، لا يمكن أنْ أحدّد متى ، فقد ازداد الوضع تعقيداً بظهور هذه الطفلة » .

ـ « ألم تظهر من قبل ؟ » .

ـ « إطلاقاً ، إنّها جزء من الشخصية كان في طور السبات حتى نوّمتها تنويماً عميقاً ، حتى إنّي لم أشكّ بوجودها ، عليّ الآن أنْ أكتشف سبب انسلاخها عن بقية الشخصية » .

ـ « هل يجب أن يكون هناك سبب ؟ » .

ـ « بالطبع ، هناك دائماً سبب ، وهو في العادة ناتج عن مأساة أو صدمة عنيفة ، عندما تعود مرة أخرى سأحاول أن أعرف » .

ـ « هل يمكن أن أكون موجوداً عندما يحدث ذلك ؟ » .

ـ « بالطبع ، بكل سرور ، إنّك ستجد الحالة مثيرة » .

ـ « إلاّ أنّي أريد أن أكون موجوداً عندما تعود روزي الأخرى ، روزي الكبرى للظهور » .

ـ « قد يحصل هذا في أي وقت ، وحتى في هذه اللحظة . أتحبّ أن نوقظها ونرى ماذا يحدث ؟ » .

ـ « إذا كان ذلك ممكناً » .

ـ « حسناً » . ووضع يده على جبهتها . وقال :

ـ « عندما أعد إلى العشرة ، ستستيقظين ، وتشعرين أنّك مرتاحة تماماً . سأبدأ العدّ الآن . . . واحد . اثنان . . . » .

راقبها سلتفليت بفضول . لم تبدِ أي أثر للحياة إلاّ عندما وصل مورو إلى الثمانية ، عندها حركت شفتيها ، ثمّ حرّكت جفنيها عند الرقم تسعة وفتحتهما عندما وصل إلى العشرة . شعر بالخيبة ، فنظرة الفتاة وهيئتها أكّدت له أن دوروثي هي التي رجعت ، ابتسمت الفتاة لمورو ، ثمّ رأت سلتفليت فاختفت ابتسامتها ورفعت معصمها ونظرت إلى ساعتها :

ـ « الوقت متأخر » .

ـ « أجل يا عزيزتي ، لقد أخذتِ وقتاً أكثر من العادة هذه المرة » .

ـ « أتسمح لي بالذهاب ؟ » .

ـ « نعم » .

جلست ووضعت قدميها على الأرض ، ثمّ لاحظت اعوجاج المشدّ فأصلحت وضعه . ومضت دون أن تلتفت خلفها .

قال مورو معتذراً : « أظنّ أنّها لا تحبّك » .

فردّ سلتفليت : « أعرف ، ولكني أودّ لو أعرف لماذا ؟ » .

5

لم يجد أحداً في البيت فخالطه أسف على عدم رجوعها - إذ كان يشتاق لعائلته حتى ولو غاب عنها لبضع ساعات فقط - شعر بالارتياح . لقد أزعجته الساعات الأخيرة بشكل عميق . وودّ لو خلا بنفسه ليحاول معرفة السبب . كانت جرائم القتل تثير فيه شعوراً بالشفقة والسخط ، إلّا أنّه كان يحتفظ دائماً بمسافة تفصله عنها ، فمن واجبه أن يحلّ هذه القضايا لا أن يغرق في بحث تأملي في إشكالية الشرّ . إلّا أنّه كان يجلس أحياناً في المساء ليتناول قدحاً من البيرة أو النبيذ ويدخن غليونه فيأخذ في التفكير في الأسباب التي تدفع الإنسان إلى السرقة والقتل . وكان يتوصل دائماً إلى الاستنتاج نفسه : إنّ الجريمة تنبع دائماً من نوع من عدم الثقة بالحياة ، وهو شعور لم يخالجه قط ، فحتى عندما كان طفلاً لم يحاول أبداً دفع الواقفين في الطابور حتى يصل إلى الأمام ، ولم يحاول الغش في الامتحانات ، فقد كان متأكداً من أن ذلك غير ضروري . إلّا أن صوت الطفل الصادر عن جسم إنسان راشد قد أدخل مثل هذا الشعور إلى نفسه ؛ شعور بالتوجس والريبة والخوف وهو يريد أن يسلّط الضوء على هذا الشعور .

تناول زجاجة بيرة باردة من البرّاد وصبّها في كأس ثمّ أفرغ معظم محتوياتها في جوفه دفعةً واحدة . أحسّ بارتخاء جسده دون أن يفارقه ذلك الشعور بالضيق ، فندم على إرجاع الكتاب لمورو في الموعد المحدّد - فلعلّه يحتوي على جملة ، أو حتى شبه جملة قد تلقي الضوء على ما يقلقه .

شغلته ذبابة طارت أمامه وجعلته يعي مدى صعوبة تحديد حدس داخلي لم يتبلور بعد .

رنّ جرس الباب . كانت الساعة تشير إلى الثانية والنصف ، الوقت الذي حدّدته ميرندا لعودتها . يبدو أنّها نسيت مفتاحها ، إلّا أنّه وجد نفسه ينظر إلى وجه فيتش المستدير المتصبّب عرقاً .

- « أهلاً جورج ، تفضّل » .
- « شكراً ، آمل ألّا أكون قد أزعجتك » .
- « لا ، أنا وحدي ، فميرندا خرجت لرؤية أمها » .
- « جيد ، كنت أريد أن أتحدث إليك على انفراد » .

قاده سلتفليت إلى المطبخ : « اخلع معطفك ، تبدو محروراً » . ثمّ لمح فيتش يحدّق بكأس البيرة فسأله : « أتأخذ بيرة ؟ » .

- « أوف ، يا لها من فكرة جميلة » وخلع معطفه البالي ووضعه بعد أن طواه بعناية على نشافة المجلى : « شكراً ، في صحتك » وفتح سلتفليت زجاجة أخرى لنفسه ، لا لأنه كان يريد أن يشرب المزيد من البيرة بل ليشعر فيتش بالراحة « تبدو تعباً جداً » .

فقال فيتش : « حدث تطوّر مهم » .

فانتظر سلتفليت .

- « يبدو أنّ هذا الرجل تشورومنسكي أهم ممّا أظن » .

فأومأ سلتفليت برأسه متعاطفاً ، فهو يفهم حاجة فيتش إلى التحدّث مع شخص آخر ، حتى تتّضح المسائل في ذهنه .

- « أمر مثير حقاً ، وكيف ذلك ؟ » .
- « كما تعرف ، ذهبت إلى تلبري أمس ، وهناك تحدثت إلى قائد السفينة - رجل يصعب لفظ اسمه مثل كراكوفسكي - وكان المترجم معي . كانت إنجليزية القبطان سيئة ، إلّا أنّي كنت أفهم ما يقوله » .

لو كان سلتفليت رئيس فيتش لنبّهه إلى هذا الخطأ فالتحدّث بالإنجليزية قد يوهم المتحدثين بأنّهما يتواصلان بشكل مباشر ، من جهة أخرى فإنّ حديث القبطان بلغته الأم يجعله أكثر ارتياحاً وانطلاقاً ، وبالتالي قد يضيف بعض المعلومات الحيوية .

- « قال لي إنّ تشورومنسكي هو الميكانيكي المساعد ، وإنّه لا يعرفه بشكل جيد واقترح علي أن أتحدث مع الميكانيكي والخادم ، رفيقيه في النزول

إلى الحانات . أثار اهتمامي ذكره للخادم ، فلقد عرفت عدداً من الخدم خلال عملي في قطاع السفن التجارية ، أكثرهم من اللواطيين ، كان الرجلان على اليابسة فطلبت منه أن يتصل بي في المخفر لدى عودتها . ثمّ اتصلت بك وما إن أقفلت الخط حتى وصل البحاران ، وكانا قد عادا مباشرة بعد مغادرتي السفينة . وما إن وقع نظري على الخادم حتى أدركت أنّه ليس منهم ، فيداه موشومتان برسوم لفتيات عاريات ، أمّا الميكانيكي فهو رجل ضخم الجثّة كالغوريلا ، ذو أسنان مثلّمة . اضطررت للاستعانة بمترجم إذ إنّ أيّاً منهما لم يكن يحسن الإنجليزية . إلاّ أنّهما لم يخبراني الكثير . فقد اتفق كلاهما على أنّه رجل وحيد ، لا يتحدّث عن نفسه كثيراً ، وقال الميكانيكي إنّه يعتقد أنّ لديه زوجة في بولندا . وأضاف أنّه أبحر معه مرات عدة ، لكنه لا يعرف عنه سوى القليل . سألتهما إن كان شاذّاً فقال كلاهما «Nie»(*) ولم أحتج إلى مترجم لفهم هذه الكلمة ، إلاّ أنّ لدي شعوراً بأنّ المسألة أكبر ممّا تبدو » .

ـ « لماذا ؟ » .

ـ « آه ، فقط من الطريقة التي كانا يتبادلان النظرات بها . لذا فسأترك هذه النقطة مفتوحة ، على أي حال يبدو أنّهما لا يعرفان الكثير . قالا إنّه كان يشرب معهما في الليلة السابقة لمقتله وإنّه أخبرهما أنّه سيغيب خلال عطلة الأسبوع . وهذا يعني أنّه كان لديه مكان ينام فيه في لندن . فقررت أنّ أتحرّى عن هذه النقطة . واتصلت بالسفارة البولونية صباح اليوم لأسألهم إن كانوا يعرفون شيئاً عن أمكنةٍ من المحتمل أن يقضي فيها بحار بولوني ليله . . . » .

ـ « ألم تتصل بالسفارة البولونية من قبل ؟ » .

ـ « لأبلغهم فقط بموته ولأعدهم بإبلاغهم بكل ما يستجدّ ، وبدا أنّهم غير مهتمين كثيراً . لكن عندما اتصلت بهم هذا الصباح طلبوا مني أن أتصل بذلك الملحق في منزله . وماذا تظنّ أنّه قال لي ؟ لقد أبلغني أن تشورومنسكي كان قد التحق لتوه بالسفينة » .

ـ « التحق لتوه بالسفينة !! » بدت الحيرة على سلتفليت .

ـ « نعم ، وقبل ذلك بقي حوالى الشهر في لندن ، في إحدى مستشفيات العاصمة في شارع وايتشابل ؛ دخل البلاد في الثامن والعشرين من آب على

(*) هكذا في الأصل « كلا » .

متن الباخرة (بيلسودس) وكان مصاباً بمرض اليرقان أو هذا ما بدا لهم على الأقل ، إذ اصفرّت عيناه وبشرته ، فذهب إلى المستشفى . وبعد عدة أيام قرر الأطباء أنّه ليس مصاباً بهذا المرض ، بل مجرّد تعب في الكبد . لكنه بقي في لندن ينتظر مجيء سفينة أخرى يلتحق بها وهو الإجراء المتّبع في مثل هذه الحالة . وخلال فترة الانتظار هذه كان تشورومنسكي ملحقاً بالمستشفى ، وكان بإمكانه أن يتجوّل حيث يشاء خلال النهار على أن يعود للمبيت في المستشفى » .

ـ « لماذا لم يخبرك القبطان بذلك ؟ » .

ـ « هذا ما حاولت أن أعرفه . فتمكنت من الاتصال به هاتفياً . فقال إنّه لم يكن يظنّ أنّ الأمر مهمّ وإنّي على أي حال لم أسأله . فأشرت إلى أنّه من الممكن أن يكون القاتل أحد الذين التقى بهم في لندن . فقال إنّه آسف جداً . وانتهى الأمر عند هذا الحدّ دون أن أثبت أنّه يكتم بعض المعلومات » .

مرة أخرى فكّر سلتفليت في أن يشرح له أهمية التحقيق مع شاهد أجنبي عبر المترجم . ثمّ أحجم حتى لا يبدو كمن يعلّمه أصول عمله .

قال فينش : « الخطوة التالية كانت الذهاب إلى المستشفى في وايتشابل . فذهبت بسيارتي وهناك تحدّثت مع الطبيب الذي عاين تشورومنسكي ، فقال لي إنّ البحّار كان مصاباً باليرقان ، إلاّ أنّه أعطاه اسماً آخر . . . » .

ـ « كُباد » .

ـ « هو ذلك ، إلاّ أنّه ليس من النوع المعدي فالظاهر أنّ النوع المعدي يجعل البراز أبيض والبول بنياً . وقال إنّه أصيب بالكباد من جراء وجود حصاة صفراوية في . . . » وفتح دفتره وقال : « حصاة صفراوية في القناة الصفراء ، لكنها خرجت بعد عدة أيام فسمح له بمغادرة المستشفى » .

واعتدل فينش في مقعده واحتسى قليلاً من البيرة : « وهكذا يبدو أنّه من المحتمل أن يكون قد التقى بقاتله بينما كان يهيم في لندن » .

ـ « هل لديك فكرة عمّا فعله في هذه الفترة ؟ » .

ـ « قال لي البوّاب في المستشفى إنّه كان مهتمّاً بالتاريخ الإنجليزي ولقد خلّف وراءه هذا الكتاب » .

وأخرج كتاباً صغيراً من جيب سترته عنوانه « بريطانيا النورماندية » .

أخذ سلتقليت الكتاب ، الذي ظهر عليه أثر القراءة المتكرّرة حتى إنّ بعض الفقرات وضع تحتها خط بقلم الرصاص .

ـ « كان معه في المستشفى بحار بولوني آخر يدعى زابولسكي ، ويقول البوّاب إنّهما كانا يخرجان معاً . ولقد أبحر زابولسكي منذ عشرة أيام ، وسأحاول أن أعثر عليه . . . » .

ـ « بإمكان السفارة البولونية أن تساعدك في ذلك » .

قال فيتش مزهواً : « أعرف ، لقد تحدّثت بالفعل مع الملحق ويقول إنّه سيتصل به خلال يومين » .

ـ « وخلال هذا الوقت ، لعلّه من المفيد مراجعة حانات وايتشابل ، خصوصاً الحانات التي تتردّد إليها المومسات » .

فأومأ فيتش برأسه : « هذه هي خطوتي التالية ، بالإضافة إلى ذلك الفتى الذي أخبرتني عنه ـ فرانكي جاغو . يجب أن نحاول التحقّق من تطابق حذائه مع أثر القدم الذي وجدناه » .

ـ « لن يكون ذلك سهلاً ، فلقد كنت في المستشفى صباحاً ، وهو يقول إنّ حذاءه اختفى » .

حدّق فيتش إليه وقال : « ألا يبدو هذا مريباً ؟ » .

ـ « ليس بالضرورة ، لا تنسَ أنّه في مستشفى للمجانين ، تحدث أشياء كهذه بشكل دائم » . دهش سلتقليت لشعوره بأنّه يحاول حماية فرانكي .

ـ « أظنّ أنّك على حقّ ، رغم ذلك ، فمن الأفضل أن نستجوبه » .

تعمّد سلتقليت تغيير الموضوع : « بالمناسبة ، هل سألت الطبيب إن كان قد صوّر تشوروسكي بالأشعّة لتحديد مكان الحصاة الصفراوية ؟ » .

ـ « كلا ، لماذا ؟ » .

ـ « مجرّد فكرة خطرت لي ، إنْ كانت الأعراض قد اختفت بهذه السرعة فهل من المحتمل أنّه كان يدّعي المرض ؟ » .

ـ « أظنّ ذلك » .

من الواضح أنّ فيتش كان يرتاب في الأمر : « كيف يمكن أن يجعل لون جلده أصفر ؟ » .

ـ « ليس هذا بالأمر الصعب ، أذكر أنّ مضغ الكورديت له مثل هذا المفعول ، كان الجنود خلال الحرب العالمية الثانية يفعلون ذلك ادعاءً للمرض » .

ـ « هل يجعل عينيه صفراوين ؟ » .

ـ « لست متأكداً من ذلك » .

ـ « كانت إحدى عينيه مريضة إلى درجة اضطراره إلى تغطيتها بكمامة » .

قال سلتقليت : « هناك طريقة سهلة للتحقّق من الأمر دعنا نتصل بأسبينال » .

لحق به فيتش إلى الغرفة المجاورة ، وكان الدليل بالقرب من الهاتف ، فبحث تحت الحرف « ط = طبيب » ، فقد يكون اسبينال مسافراً فهو غالباً ما يقضي عطلة نهاية الأسبوع في كوخه الريفي . وفي هذه الحالة سيتصل بليو جاكسون في مستشفى كلية لندن الطبية .

رنّ جرس الهاتف حوالى ستّ مرات ، وكان يهمّ بإقفال الخطّ عندما سمع صوت اسبينال .

ـ « فرانسيس ، آسف لإزعاجك يوم الأحد ، أنا جريج » .

ـ « لا تعتذر ، كنت أكبو على الكرسي بعد وجبة غداء محترمة » .

تهيأ لسلتقليت أنّه سمع قهقهة فتاة . وتابع اسبينال :

ـ « ماذا أستطيع أن أفعل من أجلك ؟ » .

ـ « أودّ أنْ تخبرني إن كان بالإمكان التظاهر بظهور أعراض الكُبادـ مثلاً بوساطة مضغ الكورديت » ؟

ـ « الكورديت لا ينفع ، فهو قد يجعلك تبدو مريضاً ، ولكنه يجعل لونك رمادياً ، إلّا أنّه توجد عدة مستحضرات أخرى لها المفعول ذاته . أهمها الميباكرين هيدروكلوريد الذي يستخدم لعلاج الملاريا وهو ينتج الأعراض نفسها » .

ـ « جلد أصفر وعينان صفراوان ؟ » .

ـ « أجل ، وأذكر أنّ هناك عدة أدوية مضادة للملاريا ينتج عنها التأثير نفسه مثل البلودرين وأماديكوين والكلوروكوين فوسفات . هل تنتظر ريثما أراجع المصادر ؟ » .

ـ « لا تزعج نفسك ، ليس الأمر مهماً ، ما أول اسم ذكرته ؟ » .
ـ « ميباكرين » .
ـ « هل يصيب العينين بورم إلى درجة تحتّم استخدام كمامة لتغطية إحداهما » .
ـ « يزيد حساسية العين للضوء ، إلّا أنّ له التأثير نفسه في كلتا العينين ، ممّا قد يحملك على وضع نظارات سوداء » .
ـ « سؤال أخير : كيف تعرف إن كان اليرقان سببه حصاة في القناة الصفراء ؟ » .
ـ « من الأعراض ، فهي تسبّب نوبات تشنّج عضلي ويصحبها ألم هائل » .
ـ « هل تُصَوَّر بالأشعة ؟ » .
ـ « ليس بالضرورة ، إذ يظهر اليرقان في العادة بعد أن تصل الحصاة إلى الأمعاء ، وعندها على الأرجح تخرج مع البراز . هل تتحدث عن البحار البولوني ؟ » .
ـ « أجل ، هل لاحظت أي أثر لليرقان ؟ » .
ـ « لا ، فلن يوجد أي أثر إن كان قد شفي قبل أكثر من بضعة أيام » .
ـ « هل لاحظت شيئاً خلال التشريح ؟ » .
ـ « ألم تقل إنّك غير مهتمّ بالقضية ؟ » .
ـ « لست مهتماً ، غير أن جورج فيتش معي هنا . . . » .
ـ « آه ، فهمت ، لا ، كان الأمر كما توقعت ، سبب الوفاة طعنة سكين في البطين الأيسر أحدثه نصل عرضه حوالى نصف أنش ـ وأظنّها سكين كباس ، ولا بدّ أنها حدثت بسرعة فلا أثر لجروح دفاعية على اليدين » .
ـ « شكراً جزيلاً ، قدّمت لنا عوناً كبيراً » .
ـ « ثمّة أمر قد يثير اهتمام فيتش ، هناك وشم على صدره والكتابة باللغة الروسية » .
ـ « سأنقل له ذلك ، شكراً مرة أخرى » .
فكّر فيتش قليلاً ثمّ قال : « لا أرى للوشم دلالة كبيرة ، فلعلّه خدم في البحرية السوفياتية أو في الأسطول التجاري الروسي . رغم ذلك فإنّ قصّة الكمامة تجعلني أتساءل : لماذا ؟ » .

ـ « اسبيتال يقول إنّه لو تورمت عيناه لوضع نظارة سوداء ـ لا كمامة واحدة » .
لم يفهم فيتش ما يرمي إليه فأوضح قائلاً :
ـ « لنقل إنّه يدّعي أنه مصاب باليرقان ، فلماذا يفعل ذلك ؟ » .
ـ « لعلّه يحظى بأسبوعين إقامة مجانية في لندن » .
ـ « لكن ألا تجد من الغريب أنّ شخصاً عادياً يعمل كمساعد ميكانيكي ، يتكلّم الروسية والإنجليزية ـ اللتين كان يجيدهما ولولا ذلك لما تمكن من قراءة هذا الكتاب ـ بالإضافة إلى لغته الأم ، ويهتمّ بالتاريخ الإنجليزي ، ويخلّف وراءه هذا الكتاب ليبرهن عن ذلك ، كما أنّه ينزل إلى اليابسة بكمامة هو على الأرجح ليس بحاجة إليها » .
ـ « ما الذي يجعله يضع الكمامة ؟ » .
ـ « يمكن أن يُخفي أشياء كثيرة تحت الكمامة ، ميكروفيلم مثلاً . إنّ بعض هذه الأفلام صغير جداً بحيث يمكن أن تضعه تحت جفنك ، ممّا قد يورم العين » .
ـ « هه » ، فهم فيتش فجأة : « أتظنّ أنّه من المحتمل أن يكون عميلاً روسياً ؟ » .
ـ « على ضوء الحقائق الأخرى أقول إنّ هذا احتمال قائم » .
كان واضحاً أنّ فيتش لم تعجبه الفكرة : « عميل روسي ، يقضي وقته في مشاهدة الكنائس القديمة » .
ـ « من قال لك ذلك ؟ البوّاب ؟ » .
أومأ فيتش برأسه . وبدأت حماسة سلتفليت تتزايد :
ـ « كل ما تقوله يجعل الأمر أكثر مدعاة للشكّ ، حتى أنّه يصل إلى حدّ إخبار البوّاب بأنّه يهتمّ بالكنائس القديمة » .
هزّ فيتش رأسه : « لكن لماذا الكنائس بالذات ؟ » .
ـ « لأنّها غطاء ممتاز ، يمكّنه من لقاء عملاء آخرين ، وتبادل المعلومات دون أن يثير أي ريبة ، « بالإذن يا سيدي ، هل تسمح لي بإلقاء نظرة على الكتاب الذي بين يديك » » .
فتح سلتفليت الكتاب بسبابته فانفتح على صفحة مليئة بالإشارات

المكتوبة بقلم الرصاص وقرأ بصوت عال :

ـ « كان في تشلتنهام مستوطنة قديمة ووجدت فيها كنيسة منذ عام ٨٠٣ م .

كانت المقاطعة ملكاً للتاج ثمّ وهبت في القرن الثاني عشر إلى هنري دي بوهون ، ايرل هيرفورد ، واشتراها في عام ١٢٥٢ م دير فيكامب النورماندي . . . . » .

ـ « أراهن أنّ تشورومنسكي قد زار تشلتنهام » .

قال فيتش بحماسة : « صحيح ، لقد ذهب إلى هناك في رحلة مخفّضة الثمن ، كما أبلغني البوّاب » .

فتنهّد سلتفليت هازاً رأسه . فسأل فيتش :

ـ « لكن ، ماذا في تشلتنهام ؟ » .

ـ « حسناً ، أولاً ، قيادة الاتصالات العامة » .

لم يفهم فيتش دلالة الأمر . فأضاف سلتفليت :

ـ « المكان الذي تمرّ عبره كل الاتصالات مع الخارج . المكان الذي ألقوا فيه القبض على جاسوس منذ سنتين » .

فقال فيتش : « آه ، يا إلهي » .

ـ « قد أكون مخطئاً ، إنّه مجرّد تخمين ، إلاّ أنّه من المثير للاهتمام أن ينفتح الكتاب على هذه الصفحة » .

فقال فيتش بحزن : « أظنّ أنّه من الأفضل أن أخبر ماكفيل » .

ـ « والقسم الخاص » .

فبدا الانزعاج على وجهه وقال :

ـ « هل هذا ضروري ؟ » .

ـ « إن كان الأمر يتعلق بالتجسّس فلا بدّ من إخبارهم » .

ـ « أنت تعرف كيف هم ، فسيتولون على الأرجح القضية كلّها » .

كان التحامل على القسم الخاص أمراً مألوفاً في صفوف الشرطة .

ـ « هيا بنا نكمل البيرة » .

لحق فيتش بسلتفليت إلى المطبخ وقد طغت عليه الخيبة والكآبة ، إلاّ أنّه

ما لبث أن انتعش بعدما عرض عليه سلتفليت زجاجة بيرة ثانية .

ـ « هل نحن متأكدون من الحقائق كافة ، لنفترض أنّه أصيب فعلاً بالبرقان ، أو أنّه مهتمّ فعلاً بالتاريخ الإنجليزي . وربما لم يقتنِ الكتاب بقصد التمويه ، فمن الواضح أنّه قُرِىء من الغلاف إلى الغلاف » .

قال سلتفليت بصبر : « هذا هو عمل الجاسوس ، أن يبدو نزيهاً ويتكبّد متاعب لا حدّ لها تغطية لعمله . بالطبع القرار يعود إليك ، لكنّي أنصحك بإبلاغهم فوراً . ولا يهمّ أن تكون مخطئاً ، فهم سيقدرون لك يقظتك » .

ـ « أجل ، أعتقد أنّك على حق » .

كان الانفراج بادياً على وجه فيتش . جلسا صامتين يشربان كأسيهما . ونظر سلتفليت إلى ساعته وأخذ يتساءل ما الذي يعوق زوجته .

ثمّ قال فيتش : « حتى لو كان جاسوساً ، فإنّي لا أعرف ما الذي يدفع أحدهم إلى قتله » .

ـ « البولونيون أنفسهم ، فلعلّهم اكتشفوا أنّه عميل مزدوج » .

قال فيتش ساخراً : « أو وحدة مكافحة التجسّس » .

ـ « لا ، إنّهم في هذه الحالة يكتفون باعتقاله » .

نظر فيتش إلى ساعته ، وأفرغ ما تبقى من كأسه في جوفه وقال : « شكراً على البيرة ، فقد كنت بحاجة إليها ، دعني أدعوك إلى تناول بعض الكؤوس » .

ـ « متى شئت » .

وبينما كان سلتفليت يرافقه إلى الباب قال فيتش : « على فكرة ، ماذا عن الفتاة التي تحدثت مع تشورومنسكي قبل موته » .

ـ « لقد تحدّثت إليها ، لا تعرف شيئاً ، على أي حال سأعطيك عنوانها » .

ـ « سآخذ رأي ماكفيل ، شكراً مرة أخرى » .

بينما كان فيتش يصعد إلى سيارته فكّر سلتفليت : رجل محترم ، إلاّ أنّه سرعان ما تثبط عزائمه ، إذ لم يكلّف نفسه عناء طلب عنوان مورو ، بعد أن سمع قصّة الجاسوس . فهو يفتقد ، بشكلٍ ما ، الغريزة التي تجعل من الشرطي تحرياً جيداً .

صعد إلى الحمّام في الطابق العلوي ، والذي تبلغ مساحته ضعف مساحة حمام منزله ، ورأى على حافة البانيو الرخامي الدائري الأخضر ، دبّاً صغيراً بالياً مزيناً بشريط أزرق يلفّ عنقه ، . فابتسم ، رغم أنّ جيرالدين لم تحضر معها سوى بعض أغراض الحمّام وثوب نوم واحد ، الا أنّها وجدت مكاناً في حقيبتها لدبها الصغير الذي كانت تكلّمه في الحمام عندما كانت صغيرة . واليوم ، رغم أنّها لم تعد تحتضنه عندما تنام ، إلاّ أنّها لا تزال تحبّ أن تراه على حافة البانيو . ذكّره الدبّ بمشهد يوحي بالبراءة والضعف ، طفلة عارية مبلّلة الشعر تتمسك بحافة البانيو فيما أمّها تدلّك جسمها . وفجأة أدرك سبب اهتمامه بحالة روزا . فهي أيضاً كانت بريئة وضعيفة ، إلاّ أنّ عالم الراشدين فشل في منحها الحماية التي تعتبرها جيرالدين أمراً مفروغاً منه والنتيجة كابوس لعقل ضائع في منطقة وسطى بين حقيقتين . وفهم أيضاً لماذا يسبّب له استكشاف جيرالدين للجنس كل ذلك القلق والكآبة . إنّها تدخل في عالم جديد لا يعود فيه قادراً على حمايتها . لكن هذا الدب يكشف عن أنّها لا تزال طفلة غير مستعدة للعلاقات الغرامية ، واستغلال الذكور الذين يودّون إثبات رجولتهم . . . . قرّر أن يتوقف عن التفكير في هذا الموضوع وأن يركز تفكيره في البحّار البولوني . وهل يمكن أن يكون عميلاً للاستخبارات الروسية الـ [ك . ج . ب .] . إلاّ أنّه عاد إلى التفكير فيها قبل أن يصل إلى أسفل الدرج . أما كان من الأفضل لو أنّ جيرالدين تفعل كما فعلت أمّها في مثل عمرها . فتبوح بجميع أسرارها في مذكراتها ، وتحلم بالقبل المسروقة في حفلات عيد الميلاد . لماذا تتخلى فتيات هذه الأيام عن عذريتهنّ في وقت مبكر . مرة أخرى أجفلته الصورة التي تخيلها في ذهنه : جيرالدين عارية على سجادة ، مغلقة العينين ، ومتفرجة الساقين . قبل شهر واحد فقط كانت هذه الصورة كفيلة باستثارة غضبه . لكنّ الشعور الذي يطغى عليه اليوم هو شعور بالحزن والاستسلام .

نظر إلى ساعته ، فتذكّر أنّه لم يأكل منذ أن تناول فطوره .

وجد في البرّاد فطيرة لحم ملفوفة بورق سوليفان وبصلاً أخضر .

شعر بالتحسّن بعدما أكل نصف الفطيرة وغسل يديه وشرب بقية البيرة .

الآن ذهبت الكآبة وحلّ محلّها فضول قوي . فهو يفهم أن يؤدي سوء

معاملة الطفلة إلى ضياعها . ولكن لا يستطيع أن يفهم كيف يتحوّل ذلك إلى رغبة في التعرّض للضرب والإذلال . أين الخطأ ؟ . ما الذي جعل فتاة طبيعية في السابعة من عمرها ـ شديدة الشبه بجيرالدين عندما كانت في العمر نفسه ـ تفقد كل ثقتها بنفسها وكل علاقة لها بالواقع .

لم يكن معتاداً على مجرّد التأمل في المشكلة . كان بحاجة إلى حقائق لا تخيلات . لذلك بحث عن رقم د . مورو في دليل الهاتف وطلب معهد العلوم الجنسية ، فردّ عليه صوت عرف فيه صوت أميل .

ـ « أريد أن أتحدث مع د . مورو ، أنا المفوّض العام سلتفليت » .

وبعد لحظات كان مورو على الخط :

ـ « حضرة المفوّض ؟ » .

ـ « هل وجدت حذاء فرانكي ؟ » .

ـ « لا للأسف ، أعتقد أنّك على حقّ في ما قلته » .

ـ « أخشى أنّ الشرطة قد تودّ التحدّث إليه ، فأنت ترى أنّ الأمر يبدو مريباً جداً » .

ـ « أجل ، أدرك ذلك » .

ـ « هل يمكن أن نعرف مقاس حذائه ؟ » .

ـ « الآن ؟ » .

ـ « لا ، لكن لا بدّ من ذلك قبل استجوابه . فإن كان مقاس حذائه مختلفاً عن مقاس أثر القدم ، فسوف يخرج من دائرة الاتّهام » .

ـ « أجل ، بالطبع ، لا يفترض أن نصادف أي مشكلة في ذلك » .

ـ « عظيم ، ثمّة شيء آخر يا دكتور . ماذا حدث لأهل دوروثي ؟ » .

ـ « توفي والداها منذ زمن طويل » .

ـ « وعمها وعمتها » .

ـ « عمّها توفي أيضاً ، إلاّ أنّ العمة لا تزال ـ حسب معلوماتي ـ في قيد الحياة » .

ـ « هل تعرف ماذا حدث لروزي ؟ » .

ـ « أعتقد ذلك ، فقد كتبت لها رسالة ، إلاّ أنّها لم تجب » .

ـ « هلا أعطيتني عنوانها ؟ » .

ـ « انتظر لحظة » . وبعد لحظات : « العنوان هو ٧ بارك افنيو درايف ارينغتون » .

ـ « هل يوجد رقم هاتف ؟ » .

ـ « لا ، للأسف » .

ـ « ما اسمها ؟ » .

ـ « السيدة فيوليت جارفيز » .

ـ « ألديك اعتراض على قيامي بزيارتها ؟ » .

ـ « لا بالطبع ، أرجوك أن تحاول إقناعها بأن تُعنى بأمر قريبتها ، كنت أودّ لو تحدّثت إليها بنفسي » .

ـ « حسناً دكتور ، أعدك بأن أفعل كل ما في وسعي ، دعني أعطيك رقم هاتفي لتتصل بي عندما تعرف مقاس حذاء فرانكي » .

دخلت ميرندا وجيرالدين وهو يعيد السماعة إلى مكانها ، وقالت ميرندا :

ـ « آسفة على تأخرنا ، فأنت تعرف عقليتهم ، لقد أصرّوا على أن نبقى على الغداء . حاولت أن اتصل بك ، إلاّ أنّ أحداً لم يردّ » .

ـ « أما تريدين الذهاب إلى حديقة الحيوانات ؟ » .

ـ « آه ، لا » وألقت بنفسها على الكرسي متنهدة : « نحن منهكتان جداً » .

ـ « في هذه الحالة ، هل تسمحين لي بالخروج حوالى الساعتين » .

ـ « حسناً » . لم تكن ميرندا لتسأل أي سؤال . « هل ستعود على العشاء ؟ » .

ـ « أجل ، أعدك بذلك » وقبلها على جبينها .

ـ « سنذهب إلى المطعم اليوناني في كوينزواي » .

استغرقت الرحلة إلى ارينغتون وقتاً أقلّ ممّا توقعه . ففي عصر يوم الأحد يكون أغلب السير في الاتجاه المعاكس .

قاد السيارة إلى آخر شارع أولدكنت ثمّ انعطف إلى بروملي مروراً بلويسهام . وتوقف في بنس وود لمراجعة خريطة لندن ، فهو في منطقة لا يعرفها . وقع نظره على شارع برتشوود وحاول أن يتذكر لماذا يبدو هذا الاسم مألوفاً ، ثمّ تذكّر أنّه سمعه من روزي عندما أعطت عنوانها . تعمّد سلتفليت

أن يمرّ في الشارع رغم بعده عن طريقه ليرى المكان الذي نشأت فيه روزي ، فأعجبه ذلك المكان الريفي المنزوي ، فعلى بعد خمسين ياردة من جانبي سكة الحديد يقع ذلك المدى الأخضر الفسيح من غابة بنس . يبدو أنّه مكان جيد لنشوء الأطفال .

بعد دقيقتين كان يقف بسيارته أمام ذلك المنزل في شارع بارك افنيو درايف . بدت حدائق المنازل على جانبي الشارع جميلة ومرتبة كصور اقتطعت من كتاب . بالقرب من الباب البني علّقت لوحة عليها رقم المنزل ـ ٧ ـ رنّ الجرس ، فلم يسمع أي صوت ، رنّه مرة ثانية . وفي الثالثة سمع حركة في الداخل . فتحت ستارة النافذة الأمامية وظهر وجه ينظر إلى الخارج . فتظاهر أنّه لم يرَ شيئاً ، ثمّ فتح الباب وظهرت امرأة عريضة الوجه تضع نظارات وأخذت تنظر إليه بارتياب .

ـ « السيدة جارفيز ؟ » .

ـ « نعم » أحسّ ببعض العدائية في صوتها .

فابتسم مطمئناً : « أنا المفوض العام سلتفليت من مكتب التحقيق الجنائي ، أريد أن أتحدث إليك عن ابنة أخيك روزا جود » .

بدا عليها التوجّس والحذر . ثمّ التفتت إلى يمينها ويسارها ، كأنّما تتأكد من عدم وجود أحد ثمّ قالت :

ـ « من الأفضل أن تدخل » .

تبعها إلى غرفة الجلوس ، كانت رائحة مواد تلميع الأثاث تنتشر في الداخل ، أمّا المقاعد فكانت أذرعُها مغطّاة بأغطية واقية ، كما غطيت أيضاً الأماكن المعرضة للصدأ ، ووضع قرب النافذة قفص لببغاء استرالي .

قالت المرأة : « يجب أن تعذرنا على عدم الترتيب » .

نظر سلتفليت حوله فلم يرَ أي أثر لعدم الترتيب باستثناء سلّة الحياكة الموضوعة على الطاولة ومجلة « أخبار العالم » على الأريكة .

ثمّ قالت السيدة : « ماذا فعلت روزي ؟ » .

اختار سلتفليت كلماته بعناية : « أظنّ أنّه بإمكانك القول إنّها في مشكلة » .

ـ « نعم » . أوحت نبرة صوتها بأنّها لم تفاجأ : « هلاّ جلست » .

نادراً ما كان سلتفليت يحسّ بعدم الارتياح للشخص من النظرة الأولى ، إلّا انّ شيئاً في ذلك الوجه العريض ، بعدم تناسقه مع ذلك الفم الصغير المشدود ، أثار اشمئزازه . ولاحظ في الوقت نفسه أنها معتادة على أن لا يعجب الأخرون بها ، ممّا جعلها دائماً في موقع المدافع المتأهب فقرّر أن يبدأ بتهدئة روعها .

ـ « يا له من بيت جميل » . لاحظ سلتفليت أنّها تناولت غطاء وسادة من السلّة ووضعت كشتباناً في اصبعها .

ـ « هل سكنتم هنا منذ زمن طويل ؟ » .

ـ « ثلاث وأربعون سنة ، منذ زواجي الأول » .

ـ « أنت محظوظة » .

قالت بحذر : « أحياناً أجدني أشاركك رأيك هذا » .

قرّر أن يغيّر الموضوع .

نظر حوله فرأى على الرفّ الذي يعلو الموقدة عدة صورة فوتوغرافية ، من بينها صورةٌ لفتاة شابة جميلة ، شعرها جذّاب متموّج ، عرف فيها نسخة أصغر عن السيدة الجالسة أمامه . كان ذقنها يُوحي بصرامة هائلة ، وقد انفرجت شفتاها عن ابتسامة مصطنعة ، إلّا أنّ فمها لم يكن قد اكتسب بعد ذلك الانشداد المزعج . إلى جانبها صورة للمرأة نفسها يقف إلى جانبها رجل وأمامه صبي في حوالى العاشرة من عمره .

حاول أن يسألها : « هل هو زوجك ؟ » .

إلّا أنّها لم تدعه يكمل جملته فقاطعته قائلة : « ماذا فعلت روزا ؟ » .

فتنحنح مفكّراً إلى أي حدّ سيكشف لها عمّا حدث :

ـ « إنّي أحقّق في جريمة مقتل أحد البحّارة وابنة أخيك من بين آخر من شاهده في قيد الحياة » .

ـ « آه » ، وعلى الرغم من اهتمامها المفاجىء فقد أكملت الحياكة دون أن ترفع رأسها .

ـ « المشكلة أنّي لم أتمكن من استجوابها ، أنت تعرفين أنها . . . . مريضة عقلياً » .

ـ « هكذا قيل لي » .

ـ « هل يمكنك . . . أن تخبريني شيئاً عنها ؟ » .

فرفعت رأسها وتطلّعت نحوه : « تعني أنّك تريد أن تعرف إن كانت تدّعي الجنون ؟ » .

لاحظ سلتفليت بريق عينيها وارتياحها الظاهر فقال : « يعني . . . أجل . . . إلى حدّ ما . . . » فقد أدرك أنّ هذا ما تودّ سماعه .

وعادت لتركّز نظرها على إبرتها : « لن أتمكن من مساعدتك كثيراً ، فأنا لم أرها منذ عشر سنوات » .

ـ « صحيح ؟ » حاول أن يبدو مهتماً ومستغرباً : « لماذا ؟ » .

ـ « عاشت في هذا البيت أكثر من ثلاث سنوات وكنا نعاملها كابنتنا ، لذلك وعندما هربت نفضت يدي منها » . قالت ذلك دون أن تتمكّن من اخفاء ارتياحها .

نظر سلتفليت إلى دفتر ملاحظاته مانحاً الحوار شكلاً رسمياً :

ـ « كم كان عمرها عندما انتقلت إلى هنا ؟ » .

بعد فترة صمت : « اثنتي عشرة سنة ونصفاً » .

ـ « وما الذي حدا بها إلى ذلك ؟ » .

ـ « توفي أخي فرد ، وكنت الأقرب إليها » .

ـ « كيف مات ؟ » .

ـ « نوبة قلبية » .

ـ « ماذا كان يعمل ؟ » .

ـ « كان يدير شركة تنتج مكانس كهربائية تدعى « ف . هـ . سايت » .

ـ « وزوجة أخيك ؟ » .

ـ « توفيت بتناذُر غُودْ باستور(*) Goodpasture's syndrome .

ـ « هذا مرض لم أسمع به . ما هو ؟ » .

ـ « مرض نادر يصيب الأعصاب » . كان سلتفليت يكتب اسم المرض عندما أضافت : « كانت دائماً مختلّة التوازن » .

ـ « عقلياً ؟ » .

ـ « أجل » .

(*) مجموعة من الأعراض تترافق مع الكُلاء الكُبَيْبي الحاد والنزف الرئوي .

- « ومتى توفيت ؟ » .
- «عام ١٩٦٣ ، عندما كانت روزي في الخامسة من عمرها » .
- « يا لها من طفلة مسكينة ، لا ريب في أنّها أصيبت بصدمة هائلة » .

لم تتفوّه بشيء ، إلاّ أنّه لاحظ انشداد فمها .

فقال : « هل تزوج أخوكِ مرة أخرى ؟ » .

- « لا » .

فقال متعاطفاً : « لعلّه كان حزيناً جداً » .

رمقته بنظرة حادّة وقالت : « إن كان لا بد لك من أن تعرف ، فقد ارتاح » .

- « لماذا ؟ » .
- « لأنّها كانت تتصرّف . . . » وقطعت كلامها ، ثمّ أكملت بهدوء : « كانت تتصرّف كالعاهرات » .
- « ألم تكن مخلصة له ؟ » .
- « لا » .
- « مع شخص محدّد ؟ » .
- « مع كل من يقبل بها » . كانت تحتقرها بوحشية همجية .
- « وهل عرف أخوك بذلك ؟ » .
- « ما لبث أن اكتشف الأمر » . وأخذت تحدّق إليه بكآبة . كان بإمكانه أن يرى مدى ما يثيره هذا الحديث من عواطف دفينة . وأضافت :
- « عاد ذات يوم ليأخذ بعض الأوراق فوجدها على الأريكة في غرفة الجلوس ، وكان الرجل أحد البائعين الذين يعملون في مؤسسته . فطلب منه أن يخرج . وسألها كيف يمكن لها أن تقوم بعمل كهذا فقالت :
- « لأنّي بحاجة إلى رجل ، ولم أتزوج رجلاً » . من الواضح أنّ هذا الموقف آلمه كثيراً .
- « ماذا عنت بذلك ؟ » .

هزّت كتفيها وقالت « لا أعرف » بطريقة توحي بأنّها تقول : لا تسأل أسئلة سخيفة . وأدرك فجأة أنّها تذكّره بشخص ما ، ولكن . . . .

- « من رعى روزي بعد موت أمّها ؟ » .

- « غالباً أنا » . أطال سلتفليت الصمت فأردفت أخيراً : « كانت تجيء إلى هنا بعد المدرسة ، ثمّ يأتي أبوها ليأخذها وهو عائد من عمله » .
- « من كان يطبخ لها ؟ » .
- « هو » .
- « إنّها حياة موحشة بالنسبة إلى طفلة » .
- « استطاعت التكيّف معها » .

رنّ جرس الباب فنظرت إلى ساعة الحائط ، كما نظر سلتفليت إلى ساعته ؛ إنّها تقارب السادسة . فقال : « جاءك زوّار . سأذهب الآن » .

كانت قد همّت بالوقوف عندما تذكّر أنّها تذكره بألفيرا سامز ، سجينة واتفورد . فالسيدة سامز توحي أيضاً بصمتها الدائم المثير للأعصاب بأن العالم قد أخضعها لسلسلة لا نهاية لها من الإستفزازات والمضايقات . حُكم عليها بالإعدام عام ١٩٥٣ لقتلها أزواجها الثلاثة بالزرنيخ وشهد سلتفليت ـ الشرطي في دائرة التحري آنذاك ـ اعتقالها . ويذكر أنّه لم يكن من الممكن افتضاح أمرها لولا تسميمها لكلب الجيران .

عندما أصبحت فيوليت جارفيز خارج الغرفة نظر سلتفليت إلى الصور عن كثب . كانت لا تزال امرأة جذّابة في الصورة التي تجمعها مع الرجل والصبي ، لولا ازدياد وزنها . أمّا الصبي الذي كان يرتدي سترة رياضية فضفاضة وقبعة مدرسية ، فكان أيضاً أكثر سمنة ممّا ينبغي لفتى في عمره ، كانت المرأة تضع يدها على كتفه وهو ينظر إلى الكاميرا مبتسماً بثقة . وكان الرجل أيضاً ـ وهو زوجها بالطبع ـ يعتمر قبعة وهو رجل وسيم ذو شاربين إلاّ أنّ هناك ضعفاً ما في وجهه . وأكّدت ذلك صورة أخرى تبدو فيها ذقنه ضعيفة لكن عينيه تنمّان عن طيبته وروحه المرحة .

ابتعد عن الرفّ لدى عودتها إلى الغرفة . كان يتبعها رجل في منتصف عشريناته عرف فيه سلتفليت الصبي الذي في الصورة . كان لا يزال سميناً جداً ، ولكن الغريب أنّ وجهه لم يتغيّر ، وكأنّه نسخة مكبّرة عن صورته ، نظر إلى سلتفليت بفضول ، فقال سلتفليت :

- « مرحباً » .
- « مرحباً » ثمّ سأل أمّه : « هل جئت في وقت غير مناسب ؟ » .

ـ « لا ، كان يهمّ بالذهاب لدى وصولك » .
من الواضح أنّها تلمّح إلى ضرورة ذهابه .
فقال سلتفليت : « لا بدّ أنّك جوي ابن عمة روزي ؟ » .
بدت عليه الدهشة وقال : « نعم ، أنا جوي » .
ـ « أتيت لأتحدث مع أمّك عنها » .
فقاطعته قائلة : « لا أظنّ أنّ لدي ما أضيفه إلى ما أخبرتك به » .
تجاهل جوي أمه وقال : « روزي ! ما بها ؟ » .
كان يتحدث بلهجة لندنية أخرى غير لهجة أمّه فقال سلتفليت :
ـ « أنا أحقّق في جريمة قتل » .
فلمعت عينا جوي : « جريمة قتل ؟ » كان صوته عالياً ، كأنّه معتاد على تأكيد سلطته . ولاحظ سلتفليت أنّه قد أخذ فمه الضعيف عن والده ، فالتفت إلى السيدة جارفيز وقال مبتسماً : « هل تمانعين في أن أتحدّث مع ابنك ؟ » .
وقبل أن تتمكن من الإجابة قال جوي : « بالطبع لا تمانع » . وألقى بثقله على أحد المقاعد .
ـ « ما رأيك بكوب شاي يا ماما ؟ » .
فقالت : « حسناً » . من الواضح أنّ جوي اعتاد على إعطائها الأوامر ، وأنّها ترتاح لذلك .
وعندما خرجت سأله جوي : « ما الأمر ؟ » .
قال سلتفليت : « حسناً ، كما تعرف فإنّ ابنة خالك روزي نزيلة مصحّ عقلي في نوتنغ هيل » .
فهزّ رأسه : « لم أكن أعرف ، لم يخبرني أحد » .
فنادت أمّه من المطبخ : « بلى ، أنا أخبرتك » .
ـ « لم تخبريني » . أجفل سلتفليت صوته العالي جداً .
ـ « قلت لك إنّها مريضة » .
ـ « لم تقولي لي إنّها جنّت » . ثمّ التفت إلى سلتفليت :
ـ « وماذا عن الجريمة ؟ » .
ـ « أحقّق في موت بحّار ، كانت ابنة خالك من بين آخر من رآه في قيد الحياة » .

فقال بشكلٍ تلقائي : « روزي لا تقتل أحداً . . . أنا متأكد من ذلك . . . لكن من هو هذا البحار ؟ » .
ـ « إنّه بحار بولوني كان في إجازة . وكان يحاول أن يخرج معها » .
ـ « وهل فعل ؟ » .
ـ « لا نعرف ، إلاّ أنّ ذلك محتمل » .
ـ « هل تحاول أن تقول لي إنّها تُمارس البغاء ؟ » .
كان واضحاً من كلامه أنّ بإمكانه ـ فيما يعتقد ـ أن يعامل سلتفليت ـ بوصفه شرطياً ـ من فوق ، إلاّ أنّ سلتفليت لم يزعجه ذلك . فرجل لا يخاف منه يمكن أن يخبره أكثر من رجل متهيب في حضرة القانون .
فقال : « عُرف عنها الخروج مع الرجال » .
صفّر جوي ببطء ، ولمعت عيناه ببريق الحماسة والفضول : « هكذا إذاً » .
وأضاف بينما كانت أمه تدخل الغرفة حاملة صينية الشاي :
ـ « واحدة ثانية في العائلة ! » ثم شارحاً لسلتفليت : « أمّها كانت مثلها » .
فقالت السيدة جارفيز بشكل فظّ : « إنّه يعرف ذلك » .
ـ « رغم ذلك ، فهي لم تقم بهذا العمل من أجل المال . أليس كذلك يا أمي ؟ » .
ـ « لا أعرف » ثمّ خرجت مرة أخرى .
مدركاً أنّ صوت الإبريق سيطغى على صوتيهما قال سلتفليت :
ـ « لماذا تكره أمّك روزي إلى هذا الحدّ ؟ » .
هزّ جوي كتفيه : « أمي لا تحتاج إلى سبب محدّد لكي تكره شخصاً » .
ثمّ أضاف بعد قليل : « ولو كان لديها سبب فهي لم تبحْ لي به » .
قال سلتفليت : « فهمت أنّ ابنة خالك مغرمة بك » .
قال جوي بزهو : « أظن ذلك » .
ـ « وأنت ، ما هو شعورك نحوها ؟ » .
ـ « أظنّ أنّه لا بأس بها ، لم تكن ملكة جمال » . ثمّ أصدر ما يشبه الضحكة وأردف : « هل تعلم أنّها فقدت مرة كلّ شعرها ؟ » .

ـ « كلا ، كيف حدث ذلك ؟ » .

ـ « آه ، بسبب مرض جلدي » . وفتح أحد أدراج الطاولة القريبة وأخرج منه ألبوماً من الصور وقال :

ـ « انظر هذه روزي » .

وضع سلتفليت الألبوم على ركبتيه ، فرأى صورة لطفلين على شاطىء البحر يبنيان قصراً من الرمال ، وكان كلاهما يبدو في حوالى الثامنة من عمره وكان جوي يبتسم ابتسامة الواثق من نفسه ، أمّا روزي فكانت تحدّق في الكاميرا بجديّة تامة وقد غطّى الطفح الجلدي وجهها وبدا شعرها خفيفاً متناثراً ، شعر سلتفليت بانقباض مفاجىء فهي تشبه جيرالدين بالفعل وهو أمر تستشفه في تعبير العينين والفم أكثر مما تلاحظه في ملامح الوجه .

قلب الصفحة فرأى صورة أخرى للطفلين في مدينة الملاهي وهما ينظران من خلال ثقب في قطعة قماش ، فيجدان نفسيهما قد تحوّلا إلى ميكي ماوس وبطوط . وقد ضجّ كلاهما بالسعادة . كان وجه الفتاة أكثر استدارة وشعرها طبيعياً لامعاً .

سأل سلتفليت : « متى أخذت هذه الصور ؟ » .

ـ « لا أعرف » . نظر جوي إلى الصورة من فوق كتف المفتش ثمّ نزع الصورة وقرأ ما كتب على ظهرها : « آب (أغسطس) ١٩٦٥ أخذناها إلى ساوث هند لقضاء النهار .

ـ « قبل الصورة الأولى » وأشار إلى الصورة الأخرى .

ـ « أجل ، فشعرها تساقط فيما بعد » .

ـ « ما الذي سبّب ذلك ؟ » .

ـ « قالوا إنها حمى دماغية » .

ـ « كيف أصيبت بها ؟ » .

اختلس جوي النظر إلى المطبخ ثمّ أعاد الصورة إلى مكانها وهمس في أذن سلتفليت :

ـ « ضبطنا أبوها في الخزانة وكاد أن يجنّ ، وحسبت أنّه سوف يقتلها » .

ـ « متى كان ذلك ؟ » .

ـ « في حفلة عيد ميلادها الثامن » .

ـ « ماذا كنتما تفعلان في الخزانة ؟ » .

ـ « ششش » ونظر بعصبية نحو المطبخ ثمّ قال : « ما يفعله الفتيان في هذا العمر ، أنت تعرف » . وغمز بعينه .

ـ « هل كان والدها من النوع المتشدّد ؟ » .

عاد جوي إلى مقعده عندما جاءت أمّه بإبريق الشاي وقال :

ـ « آه ، أجل ، إنّه من أولئك المعمدانيين المتزمتين الذين لا يرفعون أعينهم عن قراءة الإنجيل » .

قالت السيدة جارفيز وفي نبرتها بعض التأنيب :

ـ « لقد كان رجلاً طيباً جداً » .

ـ « أنا لم أقل غير ذلك ، إلاّ أنّه جعل روزي تعيش حياة بائسة ، ألم يفعل ذلك ؟ » .

ـ « كانت تستحق ذلك » .

أخذ سلتفليت يقلب صفحات الألبوم فوجد أنّ العديد منها يجمع بين روزي وجوي . فمن الواضح أنّهما لم يفترقا في طفولتهما ، وكان يستطيع أن يميّز من النظرة الأولى الصور التي أخذت بعض مرض روزي ، حتى بعد أن اختفى كل أثر له على جلدها وعاد شعرها إلى شكله الطبيعي ، إذ بدت شاحبة منزوية ، إلاّ أنّ جوي كان يزداد سمنة وثقة بالنفس . ظهر في إحدى الصور وهو يرتدي ملابس البحّارة ويمسك بعصا يهزّها أمام الكاميرا ، وفي خلفية الصورة كانت روزي تنظر إليه بحبّ .

ناولته السيدة جارفيز كوب الشاي وأشارت بأصبعها إلى إحدى الصور وقالت : « أخذت هذه الصورة في جنازة فرد » . كانت الصورة لجماعة من الناس أمام مقبرة ، وبدت روزي كالدجاجة المتوفة ، ضعيفة خرقاء ، أمّا جوي فقد بات منذ ذلك الحين أطول منها بخمسة عشر سنتيمتراً وبدا مرحاً وواثقاً بنفسه .

ـ « كان ذلك عندما انتقلت لتعيش معكم » .

ـ « أجل » .

وأظهرت الصور اللاحقة جوي مع فتاة شقراء مكتملة النمو فسأل سلتفليت : « من هذه ؟ » .

فقالت : « آه ، إنّها صديقة جوي الأولى . . . نسيت اسمها » .

ـ « ديان » .

لم يبقَ في الألبوم سوى صورتين لروزي واحدة مع عمها وأخرى مع مجموعة بنات ، وفيهما كانت تشبه جيرالدين بشكلٍ مذهل . كانت قد أصبحت جميلة ، نهداها صغيران إلا أنّهما مستديرانً . كانت ترتدي في صورتها مع الفتيات تنورة قصيرة جداً تكشف عن ساقيها الجميلتين ، أمّا في الصورة الأخرى فكانت ترتدي الجينز وقد أحاط عمّها خصرها بيده بينما وضعت رأسها على كتفه .

قال سلتفليت : « لماذا هربت من البيت ؟ » .

هزّ جوي رأسه قائلاً : « أصبحت غريبة بعض الشيء » .

لم تقل السيدة جارفيز شيئاً ، بل تصرفّت كمن ليس له علاقة بالسؤال .

ـ « ربما لأنك بدأت تتخذ صديقات لك ؟ » .

ـ « أظن ذلك » . ونظر إلى أمّه طالباً تأكيدها إلاّ أنها ركّزت عينيها على كوب الشاي .

تذوّق سلتفليت الشاي ، فوجده حلواً إلى درجة لا تطاق . فلاحظت امتعاضه .

ـ « ما به ؟ » .

ـ « إنّه . . . إنّه حلو » .

ـ « آه ، آسفة ، جوي يحب الشاي حلواً جداً » .

وقدّمت له صحناً مليئاً بفطائر التفاح والحلوى فرفض بلباقة ، فوضعته بالقرب من جوي الذي تفحّصه باهتمام ثمّ اختار في النهاية قطعة حلوى .

نظر سلتفليت إلى ساعته ؛ إنّها السادسة إلاّ ربعاً ، إذا أراد أن يصل إلى البيت قبل الثامنة فعليه أن يهمّ بالعودة .

ـ « سؤال أخير ، أين ذهبت روزي بعد تركها البيت ؟ » .

حاول جوي الإجابة ، إلاّ أنّه هزّ كتفيه معتذراً فقد كان فمه محشواً بحلوى .

قالت السيدة جارفيز : « عملت مساعدة في المطبخ في مخيّم العطل في فيلي » وتمكنت دون أن تشدّد على الكلمات من أن تظهر احتقارها الشديد .

وقال جوي : « كانت طبّاخة ماهرة ؛ كانت تطبخ لأبيها حتى عندما كان عمرها سبع سنوات فقط » .

ـ « هل كتبت إليكم من المخيم ؟ » .

قالت السيدة جارفيز : « مرة أو مرتين » .

وقال جوي : « آه . لقد كتبت كثيراً » .

ـ « هل حاولتم إقناعها بالعودة ؟ » .

قالت السيدة جارفيز بحزم : « لم أكن أريدها أن ترجع » .

ـ « هل حدث شجار قبل رحيلها ؟ » .

هزّت المرأة رأسها ، أمّا جوي فقال : « حسناً ، حدثت عدة مصادمات بين الفينة والأخرى ، فروزي وأمي لم تنظرا إلى الأمور من الزاوية نفسها ، وأمي كانت تغضب لأنّ أبي كان دائماً يقف إلى جانب روزي » .

فانتهرت ابنها قائلة : « لا علاقة لهذه المسألة ، بل لم أكن أحبها لأنّها ساقطة » .

هزّ جوي كتفيه واختار قطعة من فطيرة التفاح . كان واضحاً أنّه يسمح لأمّه أن تكون لها الكلمة الفصل في هذا الموضوع .

وقف سلتفليت وقال : « شكراً على مساعدتكم ، كانت مفيدة جداً » .

سأل جوي : « ماذا سيحدث لروزي . . . إن كانت مذنبة ؟ » .

ـ « لا شيء ، لن يحدث لها شيء ، بما أنّها في مصحّ عقلي » .

ـ « وماذا عن الرجل ؟ » .

ـ « إنّه في المكان نفسه » .

فقال جوي : « يا إلهي ! ، إذاً سيفلتان دون عقاب أليس كذلك ؟ » .

فقال سلتفليت : « لا تزعجا نفسيكما بإيصالي إلى الباب » .

هزّت السيدة جارفيز رأسها دون أن تحيد نظرها عن فنجان الشاي .

كان واضحاً أنها ترى بأنّ الزيارة قد طالت أكثر مما يجب ؛ إلاّ أنّ جوي قال : « سأوصلك إلى الباب » .

ـ « إنّه لطف منك » .

رمق جوي أمّه بنظرة عصبية وقال : « لعلّه من الأفضل أن أعطيك رقم هاتفي . . . في حال احتاجت روزي إلى مساعدة . . . » .

فقالت السيدة جارفيز : « لن نتدخل في شؤونها مرة أخرى » .

تنهد جوي وقال : « لا ، أنا لم أقل إننا سنفعل » .

- « أنا أعرف ماذا ستقول أليس إن عرفتِ » .

- « حسناً ، حسناً » . قالها جوي بنبرة عصبية تشبه الصراخ . وخفضت أمه عينيها بخضوع ، دون أن تفقد ملامحها ذلك التعبير الذي يوحي بالاعتداد والعنجهية .

احمرّ وجه جوي وبان عليه الغضب وأخذ يتمتم بكلمات غير مفهومة فحاول سلتفليت أن ينفس الاحتقان :

- « هل أليس زوجتك ؟ » .

- « أجل » .

- « الديكم أولاد ؟ » .

- « ثلاثة » .

همس سلتفليت : « إذا أعطيتني رقم هاتفك ، سأخبرك بما يستجدّ » .

نظر جوي خلفه ليتأكد من أنّ باب غرفة الجلوس مقفل ، ثمّ أخرج بطاقة من جيبه الأعلى كتب عليها : جوزف ب . جارفيز ، مقاول نقل ، ثمّ عنوانه في أورينغتون . وضع جوي أصبعه على فمه فابتسم سلتفليت متفهماً ووضع البطاقة في جيبه .

كان سلتفليت يحاول أن يبتعد عن الداتسون الخضراء الكبيرة المتوقفة أمام سيارته الروفر ، عندما سمع نقراً على نافذة سيارته ووجد جوي واقفاً أمامه . ففتح النافذة .

- « قل لروزي . . . . » وأخذ يبحث عن الكلمات المناسبة : « قل لروزي إنّي أتمنى أن ينتهي الأمر على خير » .

ثمّ قفل مسرعاً إلى البيت يملؤه الشعور بالذنب .

6

عندما استيقظ في صباح اليوم التالي ، كان سلتفليت يعاني من بعض التعب ، إذ كان قد سمح لصاحب المطعم اليوناني أن يقنعه بوضع كأسين من مشروب كحولي قوي يدعى « راكي » في قهوته . لم يكن يعاني من صداع ، مجرد شعور بالكسل والارتخاء ، كأنما رُبط كاحلاه بسلسلة متصلة بكرة حديدية .

في السابعة والنصف أوصلت جيرالدين ميرندا إلى محطّة واترلو لكي تأخذ قطار الثامنة والربع إلى التايمز ديتون ، وعندما قبّلها مودعاً ، عانقته جيرالدين وقتاً أطول من المعتاد ، فشعر أنّها تحاول طمأنته ، ولكن الغريب أنّ ذلك لم يعد ضرورياً ، ففي الليلة الماضية وبينما هو يراقب جيرالدين تلتهم ورق العنب والقرع باللحم وتشرب « الرتسينا » شعر بالتفاوت الكبير بينها وبين تلك الفتاة التي نشأت بلا أم في ذلك البيت في أورينغتون .

فجأة أصبحت عذرية جيرالدين أمراً سخيفاً وغير ذي بال إذا ما قورن بالحقيقة المركزية ؛ إنّها آمنة ، واثقة من نفسها ، ولا تعاني من اضطراب عاطفي ، كانت فكرة رجوعها إلى أحضان تشارلي لا تزال تزعجه ، لكنها لم تعد تثير فيه ذلك الإحساس بالغضب والعجز .

جلس إلى طاولة المطبخ وشرب ثلاثة أكواب من القهوة المرّة ، فلم تعطِ النتيجة المطلوبة . في مثل هذا الوقت يصل مساعده إلى المكتب ويأخذ في تقليب ملفات الجرائم التي تصل من الأقسام التابعة له ، وفي سجلات الجرائم التي يعدها مدقق القسم . أمّا زميله سكوتي ماكفيل فسيجد أمام مكتبه تقريراً عن جريمة قتل ويتولد تشورومسكي .

في تمام الساعة التاسعة طلب رقم الدكتور مورو ، فسمع صوت دوروثي وبدا بارداً وبعيداً كالعادة .

فقال : « المفوّض العام سلتفليت يتكلّم . هل لي بكلمة مع الدكتور مورو ؟ » .

ـ « أخشى أن يكون مشغولاً . هل تترك له رسالة ؟ » .

ـ « لا ، أريد أن أحادثه شخصياً » .

ـ « هل لي أن أعرف عن ماذا ؟ » .

ـ « أجل ، عنك » .

صمتت قليلاً ثمّ قالت : « انتظر لحظة من فضلك » .

ضحك بينه وبين نفسه ، فلو استمرّت في مماطلتها لبدا أنّ ما يدفعها إلى ذلك إنّما هو دافع شخصي .

قال مورو : « صباح الخير حضرة المفوّض العام » .

ـ « صباح الخير يا دكتور » .

ـ « تريد أن تعرف مقاس الحذاء ؟ » .

ـ « إنّه أحد الأشياء التي أريد أن أبحثها معك » .

ـ « انتظرت حتى نام فرانكي . لكن للأسف لم يكن المقاس مسجلاً عليه فاضطررت إلى قياسه . إنه اثنا عشر إنشاً ونصف بالضبط » .

ـ « شكراً لك ، المسألة الأخرى تتعلّق بروزي ، هل تمنحني نصف ساعة في وقت لاحق اليوم ؟ » .

ـ « بالطبع ، أي وقت يناسبك ؟ » .

ـ « العاشرة » .

ـ « سأعمل على ضمان عدم انشغالي في هذا الوقت » .

دخلت ميرندا ، تحمل بعض البقول وقالت : « سكوتي هناك في الحدائق » .

مضى إلى الغرفة الأمامية ونظر من النافذة ، فوجد سيارة سكوتي الفورد زودياك الزرقاء متوقفة أمام البوابة . نزل إلى الشارع دون أن يرتدي سترته ، فوجد البوابة مفتوحة ، كان ماكفيل(*) واقفاً بالقرب من حوض الزهور ومعه

(*) ضابط مسرح الجريمة من مخفر نوتنغ هيل .

الشرطي ايفانز . « مرحباً سكوتي » .

فقال ماكفيل : « يا إلهي ، جريج ! ماذا تفعل هنا ؟ » .

إنّه رجل طويل نحيل ، يشبه وجهه وجوه سكان هضاب اسكتلندا . ولم يكن غريباً على الإطلاق أن يوجد في مسرح الجريمة في التاسعة صباحاً ، فمن المعروف عنه أنّه أحد أكفأ ضباط مكتب التحقيق الجنائي .

ـ إنّي في إجازة ، وأقيم في المنزل المقابل على الجهة الأخرى من الشارع » .

ـ « الأمر الذي يجعلك المشبوه رقم واحد » . كانت محاولات سكوتي الفكاهية غالباً فاشلة ، إلاّ أنّ ايفانز ضحك تأدّباً .

ـ « أترغب في فنجان من القهوة ؟ » .

ـ « لا ، شكراً ، ليس لدي وقت ، كان الضابط يريني أثر القدم الذي اكتشفه » .

فقال ايفانز بارتباك : « في الحقيقة ، السيد سلتفليت هو الذي اكتشفه » .

ـ « حقاً ؟ » .

تمنّى سلتفليت لو أنّ ايفانز لم يفتح فمه ، لم يكن لديه أي مانع في أن ينسب الفضل إلى أي شخص آخر . فمال إلى الأمام ونظر إلى الأثر الذي ما زال بارزاً بوضوح على الأرض الرطبة .

ـ « كم طول هذا القدم برأيك ؟ » .

فقال ايفانز : « إنّ طوله بالضبط اثنا عشر إنشاً وثلاثة أرباع الإنش ، أنا قسته » .

ـ « إنّه حذاء كبير » .

فقال ايفانز : « المقاس11أكمقاس حذائي بالضبط » .

فألقى ماكفيل نظرة حادّة على سلتفليت وقال : « هل توصّلت إلى استنتاجات ؟ » .

ـ « آه ، لم أبق هنا أكثر من دقيقتين . أظنّ أنّها جريمة جنسية عادية . سادي شاذّ جنسياً » .

فكّر ماكفيل قليلاً ثمّ قال : « لعلّ هذا ما أرادوا لنا أن نفكّر فيه » .

- « أرادوا ؟ » .
فأخفض ماكفيل صوته ، متطلعاً نحو ايفانز في الجهة الأخرى من حوض الزهور وقال : « قد تكون إحدى قضايا الـ ـ ٥٠٠(*) » .
- « تجسس ؟ » .
- ربما ، إنّه أمر اكتشفه فيتش ، إنّه أفضل ممّا كنت أتصوّر . أظنّ أنّه مفتّش يقظ وكفؤ » .
لم يعلّق ماكفيل فنظر سلتفليت إلى ساعته وقال : « آه ، حسناً ، عليّ أن أذهب إلى البيت لأتناول فطوري ، أراك في المكتب » .

* * *

كان جرس الهاتف يرنّ عندما دخل ، وسمع صوت الزيت المغلي على النار من جهة المطبخ ، ثمّ نادت ميرندا :
- « هل تردّ على الهاتف يا جريج » .
ردّ سلتفليت فسمع صوت فيتش :
- « تحدّثت مع د . روبرتس ، الرجل الذي عاين تشوروممنسكي عندما جاء إلى المستشفى . وقد تأكّد أنّه كان مصاباً بالبرقان » .
- « كيف أمكنه التأكد إلى هذا الحدّ ؟ » .
- « يقول إنّه رأى مراراً أثر الأدوية المضادة للملاريا ، وأنّ أعراض مرضه لا تشبه هذه الآثار على الإطلاق » .
- « هل طلبت منه أن يشرح لك الفرق ؟ » .
- « . . . لا . . . بل اكتفيت برأيه » .
هزّ سلتفليت رأسه بأسى وقال : « إذاً قرّ رأيك على أنّه ليس جاسوساً ؟ » .
بدا القلق على فيتش : « ألا توافق ؟ » .
- « لن أدلي برأي قاطع ما لم أجرِ تحقيقات إضافية » .
- « ماذا تقترح ؟ » .
- « حسناً ، اتّصل أولاً بأسبيتال في مستشفى كلية الجامعة ، وأحاول أن أعرف ما إذا كان هناك أدوية أخرى تثير أعراض الكباد » .

(*) ملفات القسم الخاص ، يؤشر عليها بالرقم ـ ٥٠٠ .

قال فيتش وقد ظهرت دلائل خيبة الأمل في صوته : « هل تظنّ أنّ الأمر يستحقّ كل هذا العناء ؟ » .
- « نعم إنّه يستحق ذلك » .
أخفى سلتفليت توتره وأضاف : « لقد أتيح لأسبيتال الوقت ليفكّر بالمسألة خلال اليوم فربما تكوّنت لديه أفكار جديدة ، ثمّ أرسل صورة تشوروممنسكي وبصماته إلى القسم الخاص . فقد يستطيعون معرفة هويته ، إذ لا يمكن أن يكون عدد العملاء البولونيين في ـ الكي جي بي ـ كبيراً » .
قال فيتش دون حماسة : « لا ، أظنّك على حق » .
هذه الـ « أظنّك » ـ هي التي أغضبته ، إذ دلّت على أنّ فيتش لم يقتنع كلياً . وعندما أقفل الخط أهوى سلتفليت بالسماعة على الجهاز .
هدأت أعصابه عندما حضر صحن البيض واللحمة . كانت أول فرصة تسنح له منذ السبت للحديث مع ميرندا على انفراد ، فأخذ يشرح لها ما كان يقوم به ، في الظروف العادية نادراً ما كان يخبرها بالتحقيقات التي يجريها ولم يكن ذلك بسبب السريّة المهنية بقدر ما كان بسبب الرغبة التي تصل إلى حدّ التطير في الاحتفاظ باستنتاجاته لنفسه حتى تختمر وتتأكد ، لكن الأمر مختلف في هذه الحالة ، ليس فقط لكونها قضية شخص آخر ، بل لأنّه أحبّ أن تشاركه في إعجابه بغموضها . وأدرك ، عندما استحوذ على اهتمامها ، أنّه نجح تماماً .
كان يصف لها لقاءه الأول بالدكتور مورو عندما قاطعته لتسأل :
- « كيف يمكنك أن تتأكد من أنها لا تتظاهر ؟ » .
فهزّ رأسه قائلاً : « لا بدّ أن تريها بنفسك ، إنّها حقاً مريضة » .
- « ليس هذا ما أعنيه ، هل أنت متأكد من أن دوروثي لا تتظاهر ، فالطبيب يقول إنّ إحدى الشخصيتين تعرف في العادة ما تقوم أو تفكّر به الشخصية الأخرى ، فلماذا يختلف الأمر في هذه الحالة ؟ » .
- « إنّي ببساطة لا أعرف ، وهذه هي المشكلة . وعليّ أن آخذ بكلام د . مورو فيما يتعلّق بالمسائل العيادية ، ولا أملك أي وسيلة تتيح لي أن أعرف إنْ كان محقّاً . إنّه ببساطة أمر يتعدى مجال إختصاصي » .
دقّت الساعة فهبّ واقفاً : « يجب أن أذهب . وعدتُ مورو أن أراه في

العاشرة ، سأحاول أن أعود سريعاً » .

- « لا تشغل نفسك ، فأنا ذاهبة للتسوّق » .

وساعدته على ارتداء سترته قائلة : « لكنك لا تعتقد بأنّ هذه الفتاة أي علاقة بالجريمة ؟ » .

- « أرجّح ذلك ، لكن ما يشغل بالي فعلاً ، هو ما الذي جعلها ماسوشية . . . » .

- « آه ، أنا أقول لك » .

فحدّق إليها قائلاً : « ما هو ؟ » .

- « الشعور بالذنب » .

- « تجاه أي شيء ؟ » .

- « لا أدري لكن تجاه شيء ما » .

وفكّر في ما قالته قليلاً ثمّ قال : « أعتقد أنّك على حقّ ، لكن بحقّ السماء أي شيء ؟ » .

* * *

وجد بوابة معهد العلوم الجنسية مفتوحة . فُتح الباب الأمامي وهو يصعد الدرج وخرجت منه إمرأة طويلة نحيلة ، جميلة الوجه وإن بدا عليه الإنهاك والتعب . ووقف د . مورو في ردائه الأبيض خلفها . أخذت تحدّق إلى سلتفليت بخوف وشعور بالذنب ثمّ تجاوزته بسرعة .

قال مورو : « صباح الخير » .

استدار سلتفليت وأخذ ينظر إلى المرأة . فنظرت إليه بارتياب وهي تخرج من البوابة .

- « تنظر إليّ وكأنّها تعرفني » .

فقال مورو : « لا ، إنّها تفعل ذلك مع الجميع » .

- « وأضاف وهما يصعدان الدرج : « مسكينة ، تعاني من مشكلة غريبة » .

رغب سلتفليت في أن يسأل ما هي ، ثمّ قرّر ألاّ يحرج الطبيب .

دخل المكتب وكانت بعض الخزائن قد غطيت بمخمل أسود لحمايتها من أشعة الشمس ، ثمّ سأل : « أين دوروثي ؟ » .

- « ذهبت إلى غرفتها لترتاح . إنّها تُعاني من صداعٍ ، وهذا مؤشر جيد » .

- « لماذا ؟ » .

- « إنّها دائماً تصاب بصداع قبل أن تسيطر روزي عليها » .

- « هل هذا يعني أن دوروثي أخذت تضعف بينما تزداد روزي قوة ؟ » .

- « كلا ، كلامك يصحّ على حالاتٍ عدّة ، ولكنّه لا ينطبق على هذه الحالة . فدوروثي أقوى بكثير من روزي . أنا أظنّ أن دوروثي تختفي عندما يُناسبها ذلك ، أضف إلى ذلك أنّ اليوم هو موعد لعلاج بالألعاب ودوروثي تكرهه » .

- « ما هو ؟ » .

- « إذا بقيت هنا ، فسوف ترى » .

وفتح الخزانة وأخرج مريولاً أبيض : « هل لك أن ترتدي هذا ، أظنّه على مقاسك » .

- « بالطبع ، لكن لماذا ؟ » .

- « حتى يظنّ المرضى أنّ طبيب ، معظمهم يُعاني من شعورٍ قوي بالذنب . كالمرأة التي التقيت بها على الباب - إنّها تفضّل الكلب البوليسي(*) على زوجها . وعندما شاهدها زوجها أصرّ على ضرورة خضوعها للعلاج » .

فقال سلتفليت : « يا إلهي ! » .

كان المريول ضيقاً إلاّ أنّه جاء على مقاسه بالضبط بعدما خلع السترة . وساعده مورو على ارتدائه .

قال سلتفليت : « أشعر بأنّي مزيّف في هذه الثياب » » .

- « أفضل من هروب مرضاي ، وهو ما سيحدث لو عرفوا أنّك شرطي ، والآن عليّ أن أرى مريضاً واحداً قبل أن نتحدث » .

شعر سلتفليت بالقلق وقال : « أليس من الأفضل أن أذهب ؟ » .

- « ليس هذا ضرورياً . يكفي أن تجلس خلف مكتبي » .

- « هل أنت متأكد أنّ هذا . . . قانوني » .

- « كلياً ، فكلّ سجلاتي مفتوحة للشرطة ، ويُسمح لي بالمقابل

(*) الراعي الألماني German Sheperd .

بالاحتفاظ بالمرضى هنا ، إلى أن يحين موعد محاكمتهم على جرائمهم الجنسية . . . هل تسمح لي بمعرفة اسمك ؟ » .

ـ « جريجوري » .

ـ « آه ، أجل ، بالطبع ، إذاً سوف أناديك بدكتور جريجوري ، هل تأذن لي بلحظة » .

وعاد بعد عدة ثوان يتبعه رجل صغير الجسم أشيب الشعر ، أخذ ينظر إلى سلتفليت بكآبة .

قال مورو : « إنّه الدكتور جريجوري . ماذا يمكن أن أفعل لك اليوم يا سيد ترمبل ؟ » .

فاختلس الرجل الصغير نظرة عصبية إلى سلتفليت وقال : « إنها مسألة دقيقة » .

ـ « هل تُعاني من مشاكل جديدة مع الشرطة ؟ » .

ـ « لا ، لا شيء من هذا القبيل ، أعني أنها في مكانٍ دقيق . . . » .

ـ « أرني » .

وبدون تردّد فكّ الرجل الصغير حزامه وخلع سرواله وقال : « إنّها هنا » .

ـ « يا إلهي ، في المكان نفسه ، استلق » .

استلقى الرجل على الكنبة ، وطوى ركبتيه وفتح ساقيه ، بدا الجلد ما بين فخذيه أحمر ، فانحنى مورو وأخذ يركز نظره ثمّ ضغط على نقطة تحت الخصيتين فرجف الرجل .

ثم قال مورو : « أهي إبرة ؟ » .

فقال بصوتٍ متهدج : أجل .

ودون أن يتكلم مضى مورو إلى المكتبة وفتح درجاً وأخرج وعاء أبيض يحتوي على أدوات جراحية وأخذ ملقطاً وركع إلى جانب الكنبة ، وأخذ يتحسس بيد ويستعمل الملقط باليد الأخرى ، وفجأة صرخ الرجل من الألم ، ثمّ ارتاح وانفرجت ملامحه عن ابتسامة سعيدة . أخرج مورو إبرة صغيرة بجذبة واحدة ، ورماها في سلة المهملات . فتنهد الرجل ، وأراد أن يجلس ، إلّا أنّ مورو قال بحدّة :

ـ « إبقَ نائماً » .

ـ « لكن كل شيء على ما يرام الآن » .

ـ « لا ، فقد تلتهب » . ثم أخذ مورو دواء مضاداً للالتهاب ورشّه بين ساقي الرجل ، ثمّ وضع قطعة قطن كبيرة وألصقها بشريطٍ لاصق . وقال :

ـ « حسناً الآن بإمكانك أن تذهب » .

ارتدى الرجل سرواله بارتباك شديد وكاد أن يقع ، ثم مشى مقوّس الساقين كالجوكي .

عندما خرج قال سلتفليت : « ما به ؟ » .

ـ « إنه يُستثار جنسياً بغرز الإبر في أعضائه الجنسية . أحياناً يغرزها أكثر مما يجب فيأتي إليّ لأنزعها » .

ـ « ألا يُسبّب المرض لنفسه ؟ » .

ـ « كلا ، فهو يفعل ذلك طوال حياته ، ويبدو أنّه اكتسب مناعة » .

غسل مورو يديه في المغسلة في إحدى زوايا الغرفة . وقال :

ـ « الآن ، أنت هنا لتتحدّث عن روزا » .

ـ « ذهبت البارحة إلى أورينغتون لأرى عمتها فيوليت والتقيت أيضاً بابن عمتها جوي » .

ـ « آه . وأخذ مورو يصغي بانتباهٍ شديد : « أرجوك أن تخبرني . . . » .

وجلس خلف مكتبه .

« هذه العمّة لا تبدو لي شخصاً عطوفاً وهي تكره روزي بكل تأكيد ، عندما أخبرتها بأنّي أُحقّق في جريمة قتل ، خالجني شعور بأنها تتمنى أن تكون روزي هي القاتلة » .

ـ « هل عرفت السبب ؟ » .

ـ « تقول إنّهم عاملوا روزي معاملة الابنة وإن روزي كانت تتصرف كإنسانٍ ساقط وناكر للجميل » .

هز مورو برأسه : « فتاة في الرابعة عشرة من العمر لا تهرب من البيت إلّا إذا كانت تعيسة ، خصوصاً أنّها فقدت منزلها الأول » .

ـ « هذا ما فكّرت به . أخبرتني العمّة أيضاً بعض الأشياء عن طفولة روزي ، يبدو أن والدها كان متعصباً دينياً ، عرفت ذلك من جوي ، فقد

ضبط والد روزي زوجته مع أحد الباعة المتجولين الذين يعملون في مؤسسته . هل كنت تعرف ذلك ؟ » .

هزّ مورو رأسه نافياً . وأخرج سلتفليت دفتره وقال :

ـ « لقد استخدمتْ جملة مثيرة للاهتمام عندما سألها كيف أمكنها أن تفعل ذلك ، قالت : لأني بحاجة إلى رجل ولم أتزوج رجلاً » » .

ـ « ومن ذلك تستنتج . . . . » » .

ـ « أنها ربما كانت امرأة شبقة ، في حين كان الزوج يعتبر الجنس عملاً قذراً » .

ـ « هذا مثير للاهتمام حقاً ، لقد ذكرت روزا أنّ أباها يذهب إلى الكنيسة بانتظام ، إلاّ أنّها لم تقل إنه من المتعصبين دينياً ، وهذا يظهر أنّها لا تزال مخلصة « لذكراه » » .

ـ « أخبرني جوي شيئاً آخر : في عيد ميلادها الثامن ، ضبطها والدها في الخزانة . ويقول جوي : كاد أبوها أن يجن وحسب أنه سوف يقتلها » .

ـ « مجنون » ، فأومأ سلتفليت برأسه موافقاً ، وأكمل حديثه قائلاً :

ـ « إنّ هذا اكتشاف مهمّ جداً » .

ومضى مورو إلى خزانة ملفاته وعاد يحمل ملفاً برتقالياً وقال :

ـ « هذا سجلّها الطبي ، ويظهر أنّه عندما بلغت الثامنة مرضت ثلاثة أيام بمرض شُخّص على أنّه التهاب الدماغي الوبائي Encephalitis hethargica ـ وهو مرض فيروسي . غير أن هذا لا يمكن أن يكون صحيحاً ، لأنها شفيت في غضون أسبوع . كنتُ أحسب أنّها حمى دماغية عادية ناتجة عن توتر عاطفي . ثمّ فقدت شعرها وعانت من مشكلة جلدية ، نوع من الصَدَف . لكن عندما حدّثتها بذلك تظاهرت بأنها لا تتذكّر . وعندما حاولت أن أسألها تحت التنويم المغناطيسي أُصيبت بهستيريا واستيقظت . إنّي مدين لك بكل هذه المعلومات الهامة » .

هزّ سلتفليت كتفيه ، كان المديح يحرجه دائماً .

ـ « إن كان أبوها يعتبر الجنس عملاً قذراً فلا ريب أنّه جعلها تحيا حياة شقيّة جداً بعد حادثة الخزانة ، والأرجح أنه قال لها إنّ فقدانها لشعرها عقاب إلهي » .

قال سلتفليت : « زوجتي تقول إنّ الشعور بالذنب هو الذي جعلها ماسوشية . لعلّ ذلك هو السبب فقد حملها أبوها على تبني نظرته إلى الجنس » .

قال مورو بحماسة : « وربّما ورثت بعض الشهوانية الجنسية عن أمّها ، فإذا ما أحسّت برغبة جنسية شعرت بضرورة معاقبة نفسها بالبحث عمن يضربها . وهذا بلا ريب هو سر حالتها » . وفرك يديه فرحاً ، إلاّ أنّ ابتسامته ما لبثت أن اختفت : « فيما عدا شيء واحد : إذا كان طهرانياً إلى هذا الحدّ لماذا سمح لها برؤية ابن عمتها ؟» .

ـ « لم يملك أي خيار آخر ، كان يعمل طوال النهار بينما أخته تعنى بروزي لدى عودتها من المدرسة . بالإضافة إلى ذلك ، فقد شاهدت بعض الصور التي أخذت لروزي بعد أن فقدت شعرها ، والتي تبدو فيها هزيلة وقبيحة إلى حدّ يجعلها في مأمن حتى مع مهووس جنسي » .

ـ « معك حقّ » وابتسم ابتسامة غريبة وقال :

ـ « لقد استطعت في بضع ساعات أن تعرف عن روزي أكثر مما اكتشفت أنا في ستة أشهر » .

فابتسم سلتفليت وهز كتفيه ، وفكّر في أنّه لو جشم مورو نفسه عناء الذهاب إلى أورينغتون لعرف كل ذلك بنفسه .

وقال : « المشكلة هي : هل هذه المعلومات مفيدة ؟ » .

ـ « بالطبع ، فهي تساعدني على فهم ما تحاول روزا كبته » . ونظر إلى ساعته :

ـ « دعني أذهب لأرى كيف حالها ، وإن استطعت فسوف أعيدها إلى هنا » .

فقال سلتفليت : « هل هذه فكرة جيدة بعدما حدث في المرة الماضية ؟ » .

ـ « إنّها مخاطرة لا بدّ من القيام بها ، ولك الحق في البقاء ورؤية ما سيحدث . بالإذن » .

أخذ سلتفليت ينظر إلى محتويات الخزائن الزجاجية محاولاً أن يقرأ الشيفرة المكتوبة على البطاقات مستعيناً بما كان قد تعلمه من الالمانية في المدرسة . ثمّ

استحوذت عدة اليومات أنيقة على اهتمامه . فحمل أحدها وقرأ عليه العنوان التالي المطبوع بعناية على الآلة الكاتبة : « Transverstitismus und tödliche unglücksfallebei Autoerotischer Betätigung » وترجم ذلك كما يلي : « عصاب تقليد ملابس الجنس الآخر والحوادث المميتة بفعل النشاط الجنسي الذاتي » . واحتوى الألبوم على صور لرجال يرتدون ملابس داخلية نسائية ، وهم معلقون بأنشوطات . وكان أغلبهم في وضعية الجلوس . وتضمن الألبوم صورة لرجل يرتدي ملابس أطفال كبيرة المقاس ، بما في ذلك « الحفاظ » والدبوس (الهائل الحجم بالطبع) .

لقد التقى بالعديد من هذه الحالات من قبل خصوصاً لدى عمله في شرطة الأخلاق ، عندما كان شرطياً شاباً ، لم يكن ليصدّق أنّ الشنق يولّد إثارة جنسية ، لكن ما إن مضى شهر على تخرّجه من معهد التدريب حتى استدعته مومس في حالة هستيريا ، طالبة منه أن يحاول إنعاش أحد زبائنها ، لقد طلب الرجل منها أن تستثيره وهو يشنق نفسه على أن تقطع الحبل عندما يفقد الوعي ، إلاّ أنّها تركت الحبل أكثر مما ينبغي ، فمات الرجل ، لكن بعد أن توصّل إلى تحقيق الرعشة الجنسية . ولقد التقى بعدة حالات أخرى اتسمت جميعها بأن المريض كان بمفرده عندما مات . أمّا الأجهزة المستخدمة فغالباً ما كانت مبتكرة .

كان الألبوم يغطي فترة تزيد على النصف قرن . فجذب اهتمام سلتفليت تغير شكل الملابس الداخلية عبر السنين ، من السروال الذي يصل إلى الركبة في العشرينات إلى اللباس الداخلي المؤلّف من القطعة الواحدة والذي يصل إلى الركبة في الثلاثينات والأربعينات ، إلى « البكيني » غير اللائق في الثمانينات . وبينما هو يهمّ بإغلاقه استرعت انتباهه إحدى الصور الحديثة ، فلقد بدا الوجه المنتفخ مألوفاً ، ثمّ تذكّر أنّ ذلك الرجل الصغير المدعو ترميل ، الذي نزع مورو له إبرة من عضوه التناسلي . كان يجلس في جهاز مصنوع من أحزمة جلدية سوداء بدا أنّها تتدلى من السقف ، وكان رأسه مربوطاً إلى أنشوطة . أمّا أعضاؤه الجنسية فبدا أنها مشدودة بإحكام إلى قطعة بلاستيك سوداء ، ووجد على الصفحة المقابلة صورة أخرى للجهاز الجلدي نفسه ، علّق فيه شاب في العشرينات ، وقد شُدّ ثوبه الداخلي النسائي ذو

الحمالات إلى ركبتيه . وفي الصفحة نفسها صورة أخرى لأعضائه التناسلية وفخذيه ، تظهر آثار عضات واضحة وعدداً من البقع الحمراء التي تبدو وكأنها حروق أحدثت بواسطة السجائر .

عندما رجع مورو بعد مضي خمس دقائق ، كان سلتفليت جالساً وراء المكتب وألبوم الصور مفتوح أمامه . فقال مورو :

ـ « آسف لتأخري عليك ، لقد نومتها ، هل تأتي معي ؟ » .

فأشار سلتفليت إلى الألبوم وقال : « هل يمكنك أن تخبرني من أخذ هذه الصور ؟ » .

ـ « وقف مورو خلف سلتفليت وقال : « آه ، أجل » . ثمّ قال بعد تلكؤ :

ـ « أعطاني إيّاها ذلك الرجل الذي رأيته هذا الصباح ، ألبرت ترميل » .

ـ « لكن من الذي صورها ؟ » .

ـ « إنّه أحد . . . الشاذين جنسياً ـ « البصّاصين » ـ سأعطيك اسمه إن كان ذلك ضرورياً » .

لاحظ سلتفليت تلكؤه فاتخذ قراراً فورياً : « لا ، ليس ضرورياً » .

وأغلق الألبوم : « إلا أنّي أودّ التحدّث إلى السيد ترميل فيما بعد » .

ـ « بالطبع » .

لاحظ سلتفليت ارتياح مورو الذي أضاف قائلاً : « إلاّ أنّي أفضّل أن تفعل ذلك على أنّك د . جريجوري ، فأغلب مرضاي ترعبهم الشرطة » .

ثمّ وقف وأعاد الألبوم إلى مكانه وقال : « ماذا حدث لدوروثي ؟ » .

ـ « كانت تعاني من صداع حاد » .

ـ « هل أصابها بعد أن اتصلت بك هذا الصباح ؟ » .

ـ « أجل » .

ـ « إذاً فعلى الأرجح أنا المسؤول . لقد أخبرتها أنّي أودّ التحدّث إليك عنها » .

ـ « لماذا ؟ » .

ـ « كي أحاول منعها من التصدّي الدائم لي » .

ابتسم مورو بمرارة وقال : « يبدو أنّك نجحت ، غير أنّي عانيت من

صعوبة هائلة في تنويمها ».

ـ « هل تعتقد أنك قد تقنع روزي بالظهور مجدداً ؟ ».

ـ « سأحاول ، هل تنزل معي ؟ ».

لحق به سلتفليت إلى الطابق الأرضي وكان يعرف من قبل غرفة دوروثي ، إذ سبق له أن لمحها تدخل إليها قبل يومين . كانت الغرفة واسعة ، ديكورها بسيط وجميل والجدران مطلية بلون فاتح مريح .

كانت الفتاة النائمة على السرير تتنفس بشكل منتظم وهادىء وقد وضعت يديها على معدتها . كانت الغرفة مملوءة باللمسات الشخصية ، أوانٍ وحلىً من العصر الفيكتوري على الرف ، وحدوة حصان فضيّة على الجدار المقابل للسرير ، ورسوم للأبراج وعدد من الصور على الرف الذي يعلو المدفأة ، ومن بينها صورة حديثة لجوي مما يشير إلى أنهما كانا على اتصال في السنوات الأخيرة .

أشار مورو إلى كرسي بالقرب من النافذة ، فجلس سلتفليت بهدوء . كان يودّ أن يعلّق على الصورة ، إلّا أنه أدرك بشكل غريزي أنّ مورو يفضل أن يبقى ساكتاً .

جلس مورو على السرير بجانب الفتاة النائمة ورفع جفنيها ، ثمّ رفع معصمها وتركه فسقط ، فمال نحوها قائلاً بصوت حنون :

ـ « دوروثي هل تسمعينني ؟ ».

فتحرّكت شفتاها بصمت مشكلة كلمة « نعم ».

وضع مورو يده على جبينها : « أريد منك أن تنامي بشكل عميق ، أعمق من أي مرّة نمت فيها من قبل . . . ارتاحي بشكل عميق ، كأنك تغوصين في أعماق البحر وتنزلين أكثر فأكثر فأكثر ، إن ذلك مريح جداً وهادىء جداً . . . ».

أخذت الفتاة تتنفس بشكل عميق ، ثمّ تنهدت ورجفت رجفة خفيفة وعادت بعد ذلك إلى التنفس بشكل ناعم وهادىء .

استمر مورو يتحدث إليها هامساً حوالى خمس دقائق . ثمّ أخذت حركة صدرها تخفّ حتى كادت أن تتوقّف .

قاس مورو نبض الفتاة فبدا عليه الارتياح ثمّ أخرج آلة تسجيل من درج

المكتب ووضعها قرب الوسادة وشغّلها . ثمّ تحدّث إليها مقرباً فمه من أذنها :

ـ « هل روزي هنا ؟ أريد أن أتحدث مع روزي ، هل أنت هنا يا روزي ؟ ».

مضت دقيقة قبل أن يحدث شيء ثمّ انتظم تنفسها من جديد وابتسمت ابتسامة باهتة جعلت شفتيها تتقوسان وعاد مورو ليقول :

ـ « روزي هل أنت هنا ؟ ».

وفجأة عبست الفتاة فأدرك سلتفليت أنّ الطفلة هي التي رجعت ولاحظ مورو ذلك أيضاً .

ـ « قولي مرحباً يا روزي ».

ابتسمت ابتسامة ساخرة وقالت بصوت يضجّ بشقاوة الأطفال : « مرحباً ».

قال مورو : « كيف حالك اليوم يا روزي ؟ ».

ـ « لا بأس ».

ـ « ألا تشعرين بصداع ؟ ».

ـ « لا ، أنا لا أصاب بصداع أبداً ».

بدا صوتها طبيعياً إلى حدّ أنه من السخف أن يكون صادراً من فتاة ممدّدة مغلقة العينين .

ـ « كم عمرك يا روزي ؟ ».

جاء الجواب سريعاً : « سبعة ».

حاولت الجلوس ، فضغط مورو على كتفيها ليعيدها إلى السرير .

ـ « لا يا عزيزتي ، أريد منك أن تهدأي كالفتاة العاقلة ».

ـ « لا أستطيع أن أرى » . ورفعت يديها إلى وجهها . فأمسك مورو بمعصميها وأجبرها على اعادتها إلى مكانها ، فقاومت قليلاً ثمّ استسلمت .

قال مورو مهدئاً : « هذا حسن ، لم يحن وقت الاستيقاظ بعد . أريدك أن تنامي ثانيةً ، نامي فوراً ».

كان يتكلم بلهجة الآمر ، وبعد قليل أصبح تنفسها خفيفاً ومنتظماً مرة أخرى .

فقال مورو : « روزي هل تسمعينني ؟ ».

بعد قليل هزّت روزي رأسها وابتسمت فقال :
ـ « أريد منك الآن أن ترجعي إلى عيد ميلادك السابع ، اليوم أتممت السنوات السبع وأنت قد استيقظت لتوك من النوم ، هل ستقيمين حفلة ؟ » .
ـ « كلا » . كان صوتها حزيناً .
ـ « لماذا ؟ » .
ـ « لأنّي كسرت إناء سمكة الزينة » .
ـ « كسرت الإناء ، كيف فعلت ذلك ؟ » .
ـ « لم أكن أنا ، إنّه جوي لكني قلت بأنّي أنا التي كسرته لأني لا أريد أن يقع جوي في مشكلة » .
ـ « وهل تركك جوي تُلقين اللوم على نفسك ؟ » .
فقالت مدافعة : « إنّه لا يعرف » .
ـ « وماذا أهداك أبوك في عيد ميلادك ؟ » .
ـ « كتاب يدعى ـ إنجيل الصغار ـ » وكان واضحاً أنّها غير متحمّسة .
ـ « هل يطلب منك أن تقرأي الإنجيل ؟ » .
ـ « نعم » .
ـ « لماذا ؟ » .
ـ « يريدني أن أذهب إلى الجنّة » .
ـ « وهل تريدين الذهاب إلى الجنّة ؟ » .
ـ « نعم » .
ـ « لماذا ؟ » .
ـ « أريد أن أرى أمّي » . وارتجف صوتها وبدا أنّها على وشك البكاء .
فقال مورو بسرعة : « حسناً ، ارجعي إلى النوم ، ارجعي هذا صحيح » .
ووضع يده على جبينها وقال : « والآن أريدك أن تنتقلي إلى عيد ميلادك الثامن . إنّه صباح عيد ميلادك الثامن . اليوم أتممت السنوات الثماني . وعمّا قريب ستصبحين فتاة كبيرةً ، أليس كذلك ؟ » .
هزّت رأسها وابتسمت فرحة فسألها : « هل قدّم لك جوي هدية ؟ » .
ـ « أجل » .

ـ « ما هي ؟ » .
ـ « ربطة شعر مزيّنة بفراشة خضراء » .
ـ « وماذا أعطاك أبوك ؟ » .
ـ « لعبة شعرها ذهبي وفستانها أزرق رائع » .
ـ « هل ستقيمين حفلة عيد ميلاد ؟ » .
أومأت برأسها .
ـ « ومن سيحضر الحفلة ؟ » .
ـ « جوي وسيدني بيير وماري فرانكلين وميريل وأختها جسيكا وأخوهما بيل وميشي ، وميني ستحضر كلبها الصغير سكتربراين » .
ـ « الساعة الآن الرابعة والنصف بعد الظهر ، هل وصل جميع ضيوفك ؟ » .
ـ « أجل ، فيما عدا ماري فرانكلين ، تعثّرت بزجاجة حليب وجرحت رجلها » .
ـ « ماذا أكلتم مع الشاي ؟ » .
ـ « جاتو بالشوكولا وجلو الأناناس ، وجلو الفريز وفطيرة حلوى بالكرز ، عمتي « في » هي التي أعدّتها » .
ـ « هل لعبتم بعض الألعاب ؟ » .
ـ « لعبة الكراسي الموسيقية ، ولعبة أنا جاسوس ، ولعبة صيد الكشتبان ، وتلعب الآن لعبة الاستغماية » .
ـ « أين أنت الآن ؟ » .
ردّت بشقاوة : « في الخزانة » .
ـ « هل أنتِ وحدكِ ؟ » .
ـ « كلا ، جوي هنا معي » .
ـ « ماذا تفعلان ؟ » .
ـ « لن أقول » .
ـ « يمكنك أن تقولي لي » .
هزّت رأسها بحدّة . فقال مورو :
ـ « هل هو يقبّلك ؟ » .
ـ « لا » . وبدا أنّها ضاقت ذرعاً بأسئلته .

ـ « ألا تخافين أن يأتي أحد ويراكما ؟ » .
ـ « لا » .
ـ « لماذا ؟ » .
ـ « لأنّهم لا يعرفون أنّنا في غرفة اللعب » .

ثمّ ساد الصمت . وفوجيء سلتفليت بالفتاة الراقدة على السرير يحمرّ وجهها خجلاً . ثمّ وضعت يديها على فخذيها .

فقال مورو : « أخبريني ما الذي يجري ؟ » .

ـ « إنّه . . . « يشيطن » » . وكانت يداها تشدّان بالفستان إلى الأسفل بقوة .

ـ « كيف ؟ » .

أخذت تقهقه ، « لا يمكنني أن أقول لك . . . جوي . . . أرجوك توقّف . . . » وتلاحقت أنفاسها : « جوي . . . إنّك تؤلمني . . . آه . جوي لا تفعل . . . » .

كان من الواضح أنّ جوي يتجاهلها . وفجأة توترت أعصابها وقامت بحركة ، كأنّها كانت تنزل فستانها ، وقالت :

ـ « هناك أحد . . . » ورغم أنّهما كانا يتوقعان ما سيحدث إلاّ أنّ صرختها أجفلتهما .

حاول مورو أن يضع يده على فمها فدفعته وأخذت تصرخ وتصرخ .

اندفع الباب بقوة ودخلت هارييت ، المرأة التي تنزل في الغرفة المجاورة . وسألت :

ـ « ماذا يجري ؟ » .

وفي الوقت نفسه توقف صراخ روزي . وفجأة انفجرت في نوبة من البكاء الهستيري . وأخذت تتقلب على السرير رافعة يديها وكأنّها تحمي رأسها . كتفاها يهتزّان بعنف ودموعها تنهمر من عينيها المغلقتين .

اقترب سلتفليت من السرير وحاول أن يداعب شعرها . وتمكّن من تمييز الكلمات التي كانت تردّدها باستمرار :

ـ « لا تضربه ، أرجوك لا تضربه . إنّها غلطتي أنا وحدي . . . » .

شدّ مورو كتفي الفتاة ليعيدها إلى السرير ثمّ أخذ نحيبها يخفّ تدريجياً . وقال :

ـ « كل شيء على ما يرام الآن ، لم يعد هناك ما يقلقك » .

تحوّل بكاء الفتاة إلى نشيج ثمّ أخذت تتنفّس بهدوء ، وحتى عندما بدا أنّها غفت ، كانت الشهقات تقطع تنفسها بين الحين والآخر .

التفت مورو إلى هارييت وأشار بيده فخرجت المرأة ، وأغلقت الباب خلفها ، نظر سلتفليت إلى الوجه المبقّع بالدموع ، وغلبه شعور بالشفقة ، فقال :

ـ « يبدو أنّنا لم نحقّق شيئاً إيجابياً » .

ابتسم مورو ووقف قائلاً : « على العكس ، فقد حقّقنا نتائج طيبة جداً ، انظر كم تبدو هادئة الآن » .

لم يكن مورو مبالغاً ، إذ بدت كملاك نائم .

ـ « ما فعلته هو أنّي جعلتها تستعيد تجربة مؤلمة بإخراجها خارج نظامها . وهذا العلاج ندعوه التحرّر . وفي المرة القادمة لن تكون مضطربة ومستاءة إلى هذه الدرجة ، بل ستكون قادرة على أن تصف ما حدث بالضبط » .

نظر سلتفليت إلى الفتاة النائمة التي تتنفس بهدوء وانتظام مشكّكاً في صحة ما قاله الطبيب وسأل :

ـ « ماذا نفعل الآن ؟ » .

نتركها تنام ونرى ماذا يحدث عندما تستيقظ ، فإن كانت تشعر بأنّها مرتاحة بشكل كاف نشركها بجلسة العلاج بالألعاب بعد الظهر . هل تودّ أن تبقى معنا على الغداء ؟ » .

ـ « شكراً لك هذه الدعوة الكريمة ، فعليّ أن أنهي بعض الأعمال » .

7

من معهد العلوم الجنسية في لانسدون غاردنز إلى مركز الشرطة في نوتنغ هيل ، مسافة ثلاث دقائق سيراً على الأقدام .

أبرز سلتغليت بطاقته إلى الشرطية الجميلة المناوبة وسألها :

ـ « هل الضابط ايفانز موجود ؟ » .

ـ « أجل يا سيدي . إنّه في غرفة مكتب التحقيقات الجنائية مع المفوّض العام ماكفيل ، هل تودّ أن تدخل لتراهما ؟ » .

تراجع سلتغليت ، فهو لا يودّ أن يلفت نظر ماكفيل إلى أنّه يشتغل على هذه القضية فقال :

ـ « لا ، أفضّل ألاّ اقاطعه . سأتصل به هاتفياً بعد الظهر » .

ـ « حسناً يا سيدي » .

جاء رجل ضخم الجثّة ذو شاربين أسودين ، حيا الفتاة ودلف إلى مكتب الرقيب المناوب . كان ثمّة شيء مألوف في ذلك الوجه الأصفر الضخم وتلك الحلقات الداكنة التي تحيط بعينيه . فاقترب سلتغليت من الفتاة وسألها بهدوء :

ـ « من هذا ؟ » .

فردّت بصوت منخفض : « رجل يدعى جو لفكوفيتش » .

ـ « بالطبع ، إنّه جو الأمريكي الجنوبي » .

كان زوج ألفي قد تغير كثيراً عن آخر مرّة رآه فيها منذ حوالى عشرين سنة .

ـ « وماذا يفعل هنا ؟ » .

ـ « عليه أن يوقّع على سجلات الخارجين بكفالة مرتين يومياً » .

ـ « وماذا فعل ؟ » .

ـ « طعن أحدهم بسكين ، واظنّهم وجدوا بحوزته أيضاً بندقية غير مرخّصة » .

فقال سلتغليت : « هكذا إذاً » وابتسم لها قائلاً : « شكراً جزيلاً » .

وأسرع إلى الخارج فلن يحتاج إلاّ إلى بعض اللحظات لتوقيع اسمه . وبعد ذلك بثوان خرج جو . فقال له سلتغليت :

ـ « كيف حالك يا جو ؟ » .

فرمقه جو بنظرة عدائية ما لبثت أن تحوّلت إلى نوع من التجهّم .

ـ « أهلاً بالمفتش ـ وعاء البهار ـ » ، وهو لقب أطلقه جو عليه تحبّباً لدى تعارفهما عندما كان سلتغليت يعمل على قضية عاريات التايمز .

وكان يطلق عليه أيضاً لقب « مستودع الملح »(*) .

تصافحا وقال سلتغليت : « أنا سعيد برؤيتك بعد هذه المدّة الطويلة » .

ـ « نعم ، قالت ألفي إنّها التقت بك » .

ـ « فكّرت أن أمرّ بها كرمى لذكرى الأيام الخوالي » . لم يشأ أن يقول إنّ ألفي ساعدته ببعض المعلومات حتى لو كان ذلك لزوجها .

ثمّ انتبه إلى أنّه لم يتعرّف إلى جو وهو يدخل إلى المخفر . قبل عشرين سنة كان جو يتمتع بجسم أبطال الرياضة ووسامة البطل الشرير في أفلام الكاوبوي الرخيصة . لكنّه الآن شخص سمين ، انقلبت سمرة سحنته اصفراراً ودبغت أسنانه وتحوّلت وسامته إلى نوع من الترهل الناتج عن إفلات العنان لشهيته ، أمّا لقبه فقد أخذ من أغنية شعبية في الثلاثينات احتوت على المقطع التالي :

عندما يطأ صندله في أي مكان .
يجعل النساء تعزفن الماندولين .
نعم ، نعم ، نعم ، إنّه جو الأمريكي الجنوبي .

أمّا نساء جو فكنّ دائماً على استعداد للقيام بما هو أكثر بكثير من مجرّد العزف على الماندولين ، إحداهنّ أقدمت على الانتحار لدى تخليه عنها ، ولقد

نحته شهاداتهنّ في العديد من الحالات من السجن . ولهذا لم يصدر بحقّه أي حكم رغم شهرته باستخدام السكين ، حتى قيل إنّه تدرب على يد قاطع طريق باريسي .

سأله سلتغليت : « أتسمح لي بالتمشّي معك ؟ » .

ـ « لا بأس ، فأنا لست متكبراً » .

أدرك سلتغليت بأنّ تلك النفسية العدوانية المتمثّلة في الرغبة في تحدّي السلطات المغلقة بمظهر المزاح ، لا تزال تسيطر على جو .

ثمّ قال سلتغليت : « يؤسفني أن أسمع عن مشكلتك » .

فقال جو بسرعة : « كان حادث دفاع عن النفس » .

ـ « عنيت مشكلة ظهرك » .

فعبس وقال : « هذا ما يجنيه المرء من العيش الشريف » .

ـ « وما هي مشكلتك مع القانون ؟ » .

قرّر سلتغليت أنّه من الأفضل السؤال بشكل مباشر . فقد كان جو شديد الحساسيّة ، بحيث لم يكن تفادي الموضوع إلاّ ليزيد الأمور سوءاً .

زمجر جو قائلاً : « قاضٍ ابن حرام يظنّ نفسه مرحاً » .

ـ « ماذا جرى ؟ » .

ـ « قال لي ذلك الزنجي اللعين في آول سينتس رود ، أغرب عن وجهي أيها الأبيض . أنا لا أقبل مثل هذا الكلام من أي كان ، فركلته على خصيتيه ، شهر عليّ سكيناً ، فأخرجت سكيني لأدافع عن نفسي . ثمّ حضر رجال الشرطة وألقوا القبض علينا ، لكن الشقي استفاد من هرج الكرنفال واستطاع أن يمرّر السكين إلى أحد أصحابه » .

ـ « هل جرحته ؟ » .

ردّ جو بارتياح : « مجرّد خدش » . كان سلتغليت يعرف خدوش جو ، فلقد احتاج قواد منافس إلى ثلاثين قطبة لمعالجة « خدش » يمتدّ من الركبة حتى أعلى الفخذ .

ـ « أنت محظوظ لأنّهم لم يقسوا عليك ، فارضين أشدّ العقوبات » .

قال جو بمرارة : « سيفعلون ، إلاّ أنّهم يأخذون وقتهم . إنّهم يحاولون الإمساك بي منذ عدة سنوات . وهذه هي فرصتهم الأولى ، فلا بدّ أنّهم سوف

يستغلونها على أحسن وجه . يريدونني أن أحضر مرتين كل يوم » .

وبصق : « كما لو كنت أحد الأحداث الجانحين » .

كان بوسع سلتغليت أن يدرك سبب غضب جو . فلقد مضى زمن كانت إحدى صحف الأحد تطلق على جو لقب « ملك نوتنغ هيل » وتعتبره« من أخطر رجال لندن » . إلاّ أنّ أحداً لم ينجح في إدانته ، والآن وهو متهم بما يعتبره جنحة بسيطة ، قياساً إلى حجم الجرح الذي سببه للزنجي ، كان من الممكن أن يعاقب عليها بغرامة كبيرة أو بالسجن مع وقف التنفيذ ، أمّا أن يطلب منه أن يحضر إلى المخفر مرتين يومياً ـ وكأنّ هذا ما يمنعه من الهرب ـ فالأمر لا يخلو من إذلال متعمّد في محاولة لإفهامه أنّه فقد سطوته . لم يكن سلتغليت يحبّ جو ، وكان من الممكن لو علم بقصته في ظروف اعتيادية أن ينظر إلى سقوطه بعين الرضا ، إلاّ أنّ محادثته بهذه الطريقة ، ورؤية الأشيار ولو بشكل مؤقت انطلاقاً من وجهة نظره حملته على التعاطف معه والموافقة على أنّ ثمّة ظلماً فادحاً قد لحق به .

ـ « هناك على ما يبدو بعض الإجحاف » .

ـ « إجحاف !! بل إنّه أمر مخزٍ » .

كان من المستحيل على سلتغليت ألاّ يجد إشفاق جو على نفسه مسلياً ، فالرجل الذي أمضى سحابة حياته في إرهاب النساء ، يبدو وكأنّه على حافة البكاء . تظاهر سلتغليت بأنّه لم يلاحظ الأمر .

ـ « لكن ما سبب هذا التأخير ؟ » .

ـ « لقد وجدوا بندقية قديمة تحت ألواح المنزل الخشبية ، لم يستخدمها أحد منذ عشرين سنة ، لكنهم يُصرُّون على أنّها تبدو كإحدى البنادق التي استُخدمت في سرقة شاحنة بريد الإيست أند » .

ـ « وهذا مستحيل على ما أظن ؟ » محاولاً أن يخفي فضوله .

ـ « بالطبع مستحيل » . إلاّ أنّه لم يكن غاضباً ، ممّا يشير إلى مدى تحطّم معنوياته .

فقال سلتغليت : « دع الأمر لي ، سأرى ما يمكنني عمله » .

نظر إليه بدهشة وارتياب وقال : « هذا لطف منك » .

طبعاً لم يكن جو يتوقّع ذلك إلاّ أنّه كان يعرف سلتغليت حقّ المعرفة

ويعرف أنّه إذا وعد وفى .

ولكي يقضي على الصمت المحرج الذي أعقب هذا الحوار قال سلتفليت :

ـ « هل ألفي في البيت ؟ » .

ـ « كانت هناك عندما تركتها » .

ـ « كنت أودّ أن أتحدّث إليها قليلاً ، أريد أن أسألها عن بعض الشاذّين جنسياً » .

ـ « ماذا ، في هذه المنطقة ؟ » .

ـ « أجل » .

ـ « ليسوا كثيرين . فمنذ أن شرّعوا الشذوذ الجنسي وهم يستخدمون النوادي بدلاً من الأكواخ »(*) .

ـ « هل توجد نوادٍ في هذه الناحية ؟ » .

فكّر جو قليلاً ثمّ قال : « ليس على حدّ علمي ، لكن العديد منهم يذهبون إلى مقهى مايك قرب محطة المترو . إلاّ أنّهم من الهواة » .

توقفا أمام منزل في كينسنغتون بارك رود وقال جو :

ـ « هل تودّ أن تدخل للتحدّث إليها ؟ » .

ـ « شكراً » .

وبينما هما يصعدان الدرج تأوّه جو ووضع يده على ظهره وقال :

ـ « يا إلهي ، ظهري يكاد يقتلني اليوم » . وأخذ يصعد الدرج بتمهّل متكئاً على الدرابزين .

فُتح الباب قبل أن يصلا إليه ، وبدت الدهشة والسرور على ألفي ، التي كانت ترتدي شالاً لفّته على رأسها على شكل عمامة ، وقالت :

ـ « أهلاً يا جريج ، ماذا تفعل هنا ؟ » .

ـ « التقيت جو في الشارع » . متفادياً بلباقة أي ذكر لمخفر الشرطة .

ـ « تفضّل » . ونظرت إلى جو باهتمام : « يبدو أنّك في حالة يرثى لها » .

ـ « فعلاً ، أنا تعب جداً » . كان العرق يتصبّب من وجهه .

ـ « اذهب واستلقِ وسوف أحضّر لك كوباً من الشاي » .

(*) الكوخ دورة المياه العامة .

تركها جو تساعده في الوصول إلى غرفة النوم ، ولاحظ سلتفليت حنانها ، فاستغرب أن يوقظ جو هذا القدر من العطف . ثمّ خرجت ألفي وأغلقت الباب وراءها بهدوء .

فقال : « آسف لرؤية جو على هذه الحال » .

ـ « إنّ قضية تلك البندقية قد أثّرت فيه كثيراً » .

ـ « أعلم ، وسأرى إن كان بوسعي أن أعرف ما هو الأمر بالضبط ، وإن كان هناك ما بإمكاني عمله » .

ـ « شكراً » . قالتها بلهجة جافة ، إلاّ أنّه يعرف أنّها لا تعني شيئاً ، فهي تجد صعوبة في قبول خدمات الآخرين .

تبعها نحو المطبخ وأخذ يراقبها وهي تملأ إبريق الشاي . وكانت تبدو بإزارها وعمامتها كأي ربّة منزل أخرى ، تنظّف بيتها .

قالت ألفي : « هل أقدم لك مشروباً ؟ » .

ـ « إنّها فكرة جيدة » .

ـ « أعرف أنكم ، أنتم رجال التحقيق الجنائي ، تفضّلون الويسكي السكوتلندي ، إلاّ أنّه لا يوجد سوى ويسكي ايرلندي » .

ـ « لا بأس به » .

ـ « وأخذ يراقبها وهي تصبّ جرعة كبيرة له وأخرى أصغر منها لنفسها ، ثمّ تبادلا الأنخاب وقال : « لعلّ جو يفضّل الويسكي على الشاي » .

ـ « لا ، فقد مُنع عن الخمرة منذ إصابته باليرقان » .

ـ « هل أصيب باليرقان ؟ » .

ـ « ألم تلاحظ ذلك ؟ » .

ـ « أنا آسف ، لقد عانى بلا ريب من مشاكل كثيرة » .

فتنهدت وقالت : « لن تكون شيخوخته مريحة » .

صفر إبريق الشاي فقالت : « لِمَ لا تجلس في غرفة الجلوس بينما أعدّ الشاي وسوف أكون معك بعد دقائق » .

كانت الشقّة مؤثثة بشكل أنيق ومرتب ، كشقة مدير بنك متقاعد ، فثمّة مسجّل فيديو تحت جهاز التلفزيون ومكتبة ذات واجهة زجاجية تحتوي على مجموعات من الكتب ، بما في ذلك مجموعات الريدرز دايجست . أمّا الكتاب الذي تُرك مفتوحاً بالقرب من المكتبة فيحمل اسم (عاشق الصحراء) .

ذهبت ألفي إلى غرفة النوم ثمّ عادت على رؤوس أصابعها . وقالت :
ـ « إنه نائم » . كمن يتحدّث عن طفل صغير . ووضعت الصينية على الطاولة . وقالت :
ـ « هل تأخذ ساندويتشاً ؟ » .
كانت الويسكي قد نبّهته إلى أنّه جائع :
ـ « لا أريد أن آكل غداء جو » .
ـ « لا يهمّ ، فسينام غالب فترة ما بعد الظهر » .
ووضعت سندويتش اللحمة على ذراع الكنبة التي جلس عليها .
ثمّ قالت : « كيف تسير القضية ؟ » .
ـ « اكتشفنا أنّ البحّار قد مكث في لندن أكثر ممّا نظنّ ، ونحاول الآن أن نعرف ماذا فعل وأين ذهب » .
فنزعت مئزرها وجلست : « وماذا عن تلك الفتاة روزي ؟ » .
ـ « قابلتها ، ولا أظنّ أنّ لها أيّة علاقة » .
لم يكن مستعداً للغوص بالتفاصيل خصوصاً وأنّ فمه مليء بالطعام .
ـ « وأنا كذلك ، إلاّ إذا كان معها رجل » .
أومأ سلتفليت برأسه موافقاً وقال : « ما يحيرني هو محاولة الإخصاء ، فهي تجعلني أبحث عن رجل سادي شاذّ جنسياً . هل تعرفين أحداً منهم في هذه المنطقة ؟ » .
حدّقت إلى السجّادة وقالت : « كلا . . . هناك إريك هايغ وهو يجلد أولاد المدارس ، إلاّ أنّه لا يقتل أحداً » .
ـ « وهل تعرف الشرطة بأمره ؟ » .
ـ « آه ، بالطبع ، لقد سُجن مرتين بتهمة إغواء القاصرين » .
صبّت له مزيداً من الويسكي ، فاستطال الصمت بينما هو يأكل ، ثمّ قالت : « هل شاهدت فيلماً سادياً ؟ » .
فهزّ رأسه : « أجل ، لقد صادرت شرطة الأخلاق أحدها قبل أيام » .
ـ « وهل هي حقيقية ، أعني هل يموت الناس فعلاً ؟ » .
ـ « أجل ، لقد ماتت الفتاة بالفعل ، بل وبُقرت ونُزعت أحشاؤها » .
ـ « يا إلهي ، أي نوع من الناس ذاك الذي يقوم بعمل كهذا ؟ » .
ـ « أناس مثل ذلك الرجل الذي نبحث عنه » .

فقالت : « سيد واريس ـ صاحب مكتبة الفيديو على ناصية الشارع ـ قال إنّ هناك رجلاً يسأله عن هذه الأفلام » .
ـ « إنْ كان يريد مشاهدة مقتل امرأة فهو على الأرجح ليس شاذاً » .
ـ « لم يكن يريد ذلك ، بل كان مهتماً فقط بالصبيان » .
ـ « هذا يبدو واعداً ، هل أخبرك أي شيء عن الرجل ؟ » .
ـ « لا » .
ـ « هل يعرفه ؟ » .
ـ « لست أدري ، بإمكانك أن تسأله » .
ـ « شكراً سأفعل ذلك ، هل هو صديق لك ؟ » .
ـ « أفترض ذلك » .
ـ « هل تقدّمينني إليه ، من الأفضل دائماً أن يتمّ التعرّف بواسطة صديق مشترك » .
ـ « بالطبع » .
ـ « شكراً ، وسوف أتصل بروي كوتس وأحاول أن أعرف ما هي قضية جو » .
وكان كوتس ، أحد مفوضي مخفر نوتنغ هيل ، يعرف سلتفليت منذ التحقا بالخدمة .
ـ « سوف يسعدني ذلك » .
ـ « تقولين إنّ تلك البندقية لم تستخدم أبداً » .
ـ « كلا ، إنّها تحت ألواح الأرضية منذ عدة سنوات ، وكانت مغطاة بالغبار ، وأنت تعرف كيف يفكر جو ، يظن أن العالم كله يسعى للنيل منه . لكنّه لم يعد يستخدم البندقية ، وكنت ألحّ عليه للتخلّص منها » .
ـ « وماذا عن الشجار الذي ورّط نفسه فيه ، هل جرح الرجل جرحاً بالغاً ؟ » .
ـ « احتاج إلى بعض القطب ، لكن الرجل الآخر هو الذي سحب السكين أولاً » .
فقال سلتفليت : « لست أفهم ماذا حدث لجو ، كان أكثر حذراً » .
فضحكت فجأة وقالت : « هل تودّ أن تعرف فعلاً ما الذي حدث ؟ » .
ـ « أجل » .

ذهبت إلى باب غرفة النوم وتنصّتت ، ثمّ جاءت بكرسي وضعتها بالقرب من سلتفليت وجلست عليها :

ـ « جو يعاني من مشاكل مع رجله العجوز » . وأشارت إلى عظم عانتها .

« ولقد أضرّ به مرض السيلان كثيراً . وبالفعل فإنّ الرجل يتضايق جداً إن لم ينتصب عضوه ، لذلك استشار طبيباً ، أعطاه بعض الحبوب ـ حبوب ذهبية كبيرة نسيت اسمها ـ تحسّنت الأمور قليلاً ، ولكن ليس كما يجب ، حاول أن يضاعف الجرعة ، إلاّ أنّ ذلك جعله يشعر بالنعاس . فذهب إلى الطبيب وسأله أن يصف له دواء أقوى فوصف له الطبيب دواء اسمه . . . يا إلهي ، بحقّ الجحيم ما اسم ذلك الدواء . . . تستو . . . تستوستيرون ؟ » .

« هذا هو . . . ميثل تستوستيرون ، هذا هو اسمه ، كما أنّه غال جداً أيضاً » .

وأخذت تقهقه :

« على أي حال ، فعل الدواء فعله ، فجرعة واحدة منه تجعله يمارس الجنس كالثعبان ذي الجرس . لقد حوّله الدواء إلى مهووس جنسي ، لم يكن هكذا أبداً ، ولا حتى في أيام شبابه . ولكنّ الدواء جعله عدوانياً . أنت تعرف ما أعني ، لكني لم أتضايق ، فأنا معتادة على هذه الأمور ، غير أنّ بعض الفتيات تضايقن من صفعه لهنّ ، وهذا هو سبب شجاره مع هذا الرجل ، أخذ هذا الميثل تستوستيرون . . . » .

ـ « هل يعرف القاضي كل هذا ؟ » .

ـ « كلا بالطبع !! » وأطلقت نظرة تحذير باتجاه غرفة النوم :

ـ « وبحقّ الله لا تخبر أحداً فإنّه يفضّل الذهاب إلى السجن على أن يعرف أحد أنّ رجله العجوز لا ينتصب » .

ـ « لن يعرف أحد ، فلن تصل المسألة إلى محكمة علنية . إذا كتب طبيبه رسالة إلى القاضي . . . » .

بدا عليها القلق الشديد : « سيقتلني لو عرف بأنّي أخبرتك » .

ـ « لا تقلقي ، أنت تعرفيني » .

أومأت برأسها موافقة وإن لم تخل نظرتها من ارتياب وقالت : « إنّه يكره الشعور بأنّ الناس يضحكون عليه من وراء ظهره » .

ـ « لن يحدث هذا ولكن هل يوافق الطبيب على كتابة الرسالة ؟ » .

ـ « سيوافق ، لأنّها ليست غلطته فقد نبّه جو إلى مخاطر استخدام هذه المادة » .

ـ « أتعنين أنّه نبّه جو إلى أنّها قد تجعله عنيفاً ؟ » .

ـ « لا ، لقد حذّره من أنّها قد تسبّب له اليرقان » .

كان يهمّ بشرب ما تبقى من كأسه ، فأخفض الكأس وصرخ : « ماذا ؟ » .

ـ « هذه المادة تصيب بعض الناس باليرقان » .

ـ « يرقان فعلي أو مجرّد اصفرار في الجلد ؟ » .

ـ « لا ، يرقان حقيقي ، وهو ما أصيب جو به » .

شرب سلتفليت الكأس متأملاً : « هل تظنين أنّ محل الفيديو مفتوح الآن ؟ » .

ـ « أظنّ ذلك ؟ » .

ـ « هل تأتين معي ؟ » .

ـ « بالطبع » . ذهبت إلى باب غرفة النوم وفتحته ونظرت إلى الداخل ثمّ أغلقته بهدوء وقالت :

ـ « إنّه يغطّ في نومه » .

ساعدها سلتفليت في ارتداء معطفها . وقالت :

ـ « بالمناسبة ، أعرف أنّه لا ضرورة لسؤالك . . . . لكن هل يمكنني أن أقول لـه سيد » إنّك لا تأبه لتأجيره أفلاماً إباحية ؟ » .

ـ « طبعاً » .

خلف مكتبة الفيديو يوجد مقهى للعمال والموظفين غالباً ما كان سلتفليت يأكل فيه بيضاً وبطاطا مقلية . انتظر سلتفليت وألفي حتى خلا المحلّ من الزبائن .

دخلت ألفي بمفردها إلى المكتبة وأخذ سلتفليت يراقبها وهي تتحدّث إلى الرجل الواقف خلف الطاولة . بعد ذلك دعته إلى الدخول . وأدّت واجب التعريف وتصافح الرجلان . كان واريس قصيراً قويّ البنية أصلع الرأس ، تخطّ التجاعيد العميقة جبهته ، وبدا أسلوبه ودياً دون تملّق :

ـ « بماذا يمكنني أن أخدمك ؟ » .

ـ « أخبرتني ألفي أن أحد زبائنك يسأل عن أفلام سادية ، هل تخبرني باسمه ؟ » .
ـ « غوردن » .
ـ « هل هذا هو اسمه الأول أم اسم عائلته ؟ » .
ـ « إنّه اسم العائلة » . ومضى إلى خزانة للملفات ، وأخرج منها بطاقة أعطاها لسلتفليت . وكان مكتوباً عليها : ج . غوردن ٩ شارع كولفيل ـ و١١ ـ » .
ـ « ألا يوجد رقم هاتف ؟ » .
ـ « قال إنه لا يملك هاتفاً » .
ـ « هل طالبته بتأمين ؟ » .
ـ « على أفلام الراشدين فقط » .
ـ « ما هي نوعية الأفلام التي يحبّها ؟ » .
ـ « كل ما هو عنيف ، وكلما زاد الفيلم عنفاً كلما ازداد إعجاباً به » .
ـ « مثل ؟؟ » .

مدّ واريس يده إلى الدرج وأخرج نشرة أعطاها للمفوّض ، كتب على الغلاف « شركة أفلام الراشدين » وعنوان الشركة في كوبنهاغن . وفي الداخل أسماء الأفلام ومنها : الخاصي ، مخرز في الأحشاء ، الحلمات ، الوحش القادم من الجحيم، وبرز على الصفحة الأخيرة العنوان التالي : « إلى المشاهدين الشباب » . وكان بين أفلامها اغتصاب في غرفة تغيير الملابس ، وممارسات الفتيان .

قال سلتفليت : « هل تقومون فعلاً بإنتاج أفلام إباحية للأطفال ؟ » .
ـ « كلا ، إنّها مجرّد أفلام للأطفال إلاّ أني لا أقتني منها » .
كانت ابتسامة صريحة ومفضوحة أكثر قليلاً مما ينبغي .
ـ « ألم تحاول أن تتحقق من العنوان ؟ » .
ـ « لا حاجة إلى ذلك ، فهو زبون منتظم ، لا يتأخر في إعادة الأشرطة » .
ـ « أتعرف أنّه لا يوجد كولفيل بلاس في المنطقة ، توجد ساحة كولفيل ، وشارع كولفيل ، وتراس كولفيل ، لكن لا يوجد ما يدعى بكولفيل بلاس » .

كان سلتفليت يحفظ منطقته ـ « الوست ايلفين » ـ عن ظهر قلب .
« قال دون أن يتفاجأ : « لم أكن أعرف ذلك » .
ـ « هل بوسعك أن تصفه لي ؟ » .
ـ « حسناً ، لنر ، إنّه رجل قصير ، أقصر مني ، أسود الشعر أجعده ، أظنّ أنّه يضع شعراً مستعاراً ، في منتصف الثلاثينات ، مدوّر الوجه ، أفطس الأنف ، ويرتدي دائماً ملابس أنيقة ، وهو على الأرجح موظّف يرتدي البذلة في أيام الأسبوع والكنزة والسروال القطني في نهايته . . . وهناك أثر لجرح قديم بالقرب من مفاصل أصابع يده » .

دخل أحد الزبائن إلى المحل فقرّر سلتفليت ألاّ ينتظر .
ـ « شكراً جزيلاً ، يا سيدي » .
ـ « أهلاً وسهلاً بك » .
وفي الخارج سألت ألفي : « هل كان ذلك مفيداً ؟ » .
ـ « جداً » .
ـ « بالرغم من العنوان المزيّف » .
ـ « إن كان قد أعطى عنواناً مزيفاً ، فلا بدّ من أنّ لديه ما دفعه إلى ذلك ، فمن ليس لديه ما يخفيه لا يعطي عنواناً مزيفاً » .

* * *

كانت الساعة تشير إلى الواحدة والنصف عندما دخل إلى المنزل في لادبروك غاردنز وسرّه عدم وجود أحد في البيت . فلقد أراحه ذلك من الشعور بالذنب نحو ميرندا ، وجد ورقة على الطاولة كُتب عليها : ـ اتصلت جويس فدعوتها إلى الغداء في أحد المطاعم ، غداؤك في البرّاد ـ كانت جويس بارلو أعزّ صديقة لميرندا في التايمز ديتون ، فكلاهما يهوى شراء الأشياء التي تعرض في مواسم التنزيلات .

وجد في البرّاد قطعة لحم بقر وقطعة من فطير الجبن ، إلاّ أنّه لم يكن جائعاً فاكتفى بصبّ زجاجة بيرة ، ثمّ طلب رقم مخفر نوتنغ هيل وسأل عن روي كوتس ، لم يكن يتوقع أن يجده ، لذا لم يستغرب عندما أبلغته عاملة الموزع بأنّه خرج للغداء ، ثمّ طلب سكوتلانديارد وسأل الموزع أن يصله بشرطة الأخلاق .
ـ « هل المفتش رايس موجود ؟ » .

- « من المتكلّم من فضلك ؟ » .
- « المفوّض العام سلتفليت » .

بارني رايس هو الرقيب الذي كان تحت إمرة سلتفليت عندما كان في شرطة الأخلاق وهو يملك ذاكرة فوتوغرافية ، وهو بالفعل يستحقّ الترقية .

- « مرحباً جريج » . سمع ذلك الصوت اليوركشيري الودود الذي طالما دفع العديد من المجرمين إلى الشعور بالاطمئنان الكاذب :
- « ماذا يمكنني أن أفعل لك ؟ » .
- « بارني ، عندي لك قضيّة صعبة ، لأنّي لا أعرف إن كان لديه سجلّ جنائيّ ، كما أنّي لا أعرف اسمه الحقيقي ، فهل يمكنك معرفته انطلاقاً من أوصافه ؟ » .
- « صِفْهُ » .
- « يسمّي نفسه غوردن ، واسمه الأول يبدأ بحرف « ج » إلاّ أنّي أظنّ أنّه اسم مزيّف يقصد به الإشارة إلى عائلة غوردن التي اشتهر بعض أعضائها بالشذوذ الجنسي . إنّه شاذّ جنسياً وسادي ، شعره أسود مجعّد ولعلّه يضع شعراً مستعاراً وأنفه أفطس . . . . » .

قاطعه رايس مقهقهاً : « هل لديه ندب على مفاصل أصابع يده اليمنى ؟ » .

- « أجل هذا هو » .
- « إنّه يدعى طوني سبراغز ولم أسمع في حياتي عمن هو أكثر لؤماً وحقداً من ابن . . . هذا . ولسوف يسعدنا أن نزجّه خلف القضبان » .
- « هل تحدّثني عنه ؟ » .
- « إنّه سادي - ماسوشي لا فرق لديه في أن يضرب أحدهم أو أن يتعرّض للضرب . يحب الفتيان الزنوج إن تمكن من الحصول عليهم إلاّ أنّه لا يكتفي بهم . . . ويمضي أغلب وقته في البحث عن ضحاياه في هل كينتش « مطبخ جهنم » في شارع غرومبي » .
- « لم أسمع بهذا الاسم من قبل ، هل هو جديد ؟ » .
- « افتتح منذ ستة أشهر ، يرتاده اللواطيون ، والذين يرتدون السترات الجلدية وملابس النازيين ويقودون الدراجات النارية . والمكان يعجّ بالرعاع على اختلاف أنواعهم . حتى حوالي السنة كان هؤلاء يتحلقون حول سوق

اللحم(*) . وهناك كان عدد من الشاذين يتعرضون للضرب والسرقة ، وبعد مقتل المدعو سايكس فريرنا قرّرنا أن نحملهم على عدم التجمّع في المحطة فاتخذوا من « مطبخ جهنم » مقراً جديداً لهم .

- « هل يتعاطى أغلبهم الدعارة ؟ » .
- « ذلك يعتمد على مفهومك للدعارة ، معظم هؤلاء ليسوا شاذّين جنسياً ، الأمر الذي يمنحهم جاذبية خاصة عند اللواطيين وقد يجدون شخصاً يجامعونه لقاء مبلغ من المال ، إلاّ أنّهم لا يسمحون لأحد أن يجامعهم . وهم في العادة يتقاضون عشرين جنيهاً عن المرة الواحدة » .
- « كيف عرفت بأمر سبراغز هذا ؟ » .
- « قبل عام تقريباً تلقينا شكوى من إمرأة سوداء تعيش في نورث فينشلي ، كان ابنها قد انضمّ إلى نادي الدراجات النارية الدولي والتقى سبراغز الذي دعاه إلى حفلة في نوتنغ هيل - حيث يعيش الأخير . عندما أفاق كان يبصق دماً وأدرك أنّه تعرّض للضرب والاغتصاب ، قال طبيب الصبيّ إنّه أصيب بعطب في كبده بفعل جرعة كبيرة من المخدرات . أخذنا إفادة الصبيّ وقبضنا على سبراغز ، إلاّ أنّه جاء بواحد من أولئك الذين يركبون الدراجات ليقسم بأنّ سبراغز يخضع لعلاج للتخلّص من مشاكله الجنسية وخرج بكفالة . ثمّ سحب الصبيّ إفادته فجأة ، أنا متأكد أنّ سبراغز أوعز إلى بعض « الشبيحة » بزيارته ، فاضطررنا إلى إسقاط القضية » .
- « هل تذكر ما اسم ذلك الشاهد ؟ » .
- « هل تنتظر ريثما أجيء بالملف ؟ » وعاد بعد لحظة ليقول إنّه د . روبرتو مورو ، هل أعطيك عنوانه ؟ » .
- « كلا شكراً لدي العنوان » .

« ماذا يفعل سبراغز ليكسب معاشه ؟ » .

- « لن تصدّق ذلك ، إنّه يعمل لدى مفوضيّة الكنيسة » .
- « ألا يمكنك أن تلمح لرئيسه حول نشاطاته ؟ » .
- « لقد قمت بما هو أكثر من ذلك ، أخبرته كل شيء ، فأفهمني أنّه إن لم نتوقف عن ملاحقة هذا الشاذ المسكين البريء فإنّه سيسعى إلى استجواب برلماني . هؤلاء الناس يضعون كمامات وسدادات للأذنين » . كان الانفعال

(*) إشارة إلى دورة المياه العامة في محطة مترو البيكاديلي .

واضحاً في صوته .

ـ « ما الذي دفعك إلى الاهتمام بسبراغز ؟ » .

ـ « رأيتُ بعض الصور وأظنّ أنّه هو الذي التقطها » .

ـ « آه » . بدا الاهتمام في صوت رايس : « صور ماذا ؟ » .

ـ « أشخاص في نوع من المقعد ـ السرير الجلدي وقد علّقت المشانق في أعناقهم » .

ـ « إنّه هو ، هل لديك الصور ؟ » .

ـ « لا لسوء الحظ . رأيتها عند مورو » .

ـ « هل يمكنك الحصول عليها ؟ » .

ـ « قد يكون الأمر صعباً ، إلاّ أنّ من يأخذ صوراً كهذه لا بدّ من أنّه يحتفظ بمجموعة كبيرة منها في منزله . فإن تمكّنت من إصدار مذكرة تفتيش . . . » .

تنهّد رايس : « هذه هي المشكلة ؟ » .

ـ « باستطاعتي أن أساعدك ، هل تذكر ذلك البحّار الذي وجد مقتولاً في لادبروك غروف في نهاية الأسبوع ، أعتقد أن سبراغز هو الرجل الذي تريده » .

ـ « ليس للأمر زاوية جنسية على حد علمي » .

ـ « إخصاء الأعضاء الجنسية » .

صمت رايس حتى يستوعب الأمر ثمّ قال : « يا إلهي » .

وكاد سلتفليت أن يرى البريق في عينيه .

ـ « هذا يبدو واعداً » . كان التحفّظ إحدى سمات رايس البارزة .

ـ « عندما رأيت الصور ، خطر لي أنّ الرجل الذي التقطها هو القاتل » .

ـ « من شرّح الجثة ؟ » .

ـ « اسبينال » .

ـ « ومن المسؤول عن القضية ؟ » .

ـ « مفتش تحرّ من مخفر هامر سميث يدعى فينش » .

ـ « لا أعرفه ، وأنت ما هو دورك ؟ » .

ـ « ليس لي دور . المفروض أنّي في إجازة ، لذا فمن الأفضل ألاّ تزجّ

باسمي ، خصوصاً لسكوتي ماكفيل » .

ـ « لا لن أفعل ذلك بالطبع ، كيف أتصل بك إذا لزم الأمر » .

أعطاه الرقم وودّعه وأقفل الخط ، وحاول أن يطلب اسبينال ، إلاّ أنّه وجد ـ كما هو متوقع ـ أنّه لا يزال خارجاً . فطلب مخفر هامر سميث وسأل عن فينش ، فقيل له إنّ فينش لم يحضر منذ الصباح فترك له رسالة يطلب منه أن يتصل أو أن يمرّ به إذا كان في الجوار ، فهو على الأرجح يجري بعض التحقيقات الروتينية في المنطقة .

ظهرت الشمس من خلف الغيوم ، فحمل كأس البيرة وخرج إلى الحديقة الخلفية وجلس على الكرسي الهزّاز . كان يشعر بالتعب ، لكنه كان راضياً عن نفسه . فأخذ يهز الكرسي بهدوء ، وأحسّ بدفء أشعة الشمس وتنشق رائحة الأرض الرطبة والزهور الخريفية ، وشعر برضا وقناعة تامين ، ويتوحّد مع ذاته ومع العالم .

دخل سلتفليت سلك الشرطة لأنه يهتمّ بالناس ويعنى بأمورهم ، وأذهلته غرائب النفس الإنسانية ، إلاّ أنّه لم يكن يتوقع تلك الإحباطات . التحقيقات الروتينية التي لا تنتهي والساعات التي يقضيها مراجعاً لقوائم المنتخبين ومتحدّثاً إلى دوائر المجالس المحليّة ، أو جالساً في السيارة ساعات وأحياناً أيّاماً لمراقبة باب أو نافذة ، وفوق ذلك يعرف أنّ أغلب هذا الجهد سيذهب هدراً ، لكن أحياناً تجيء قضية ما تجعله يشعر بأنّ الأمر يستأهل هذا كلّه . وعندها يشعر أنّ كل شيء في مكانه الصحيح ، وهذه القضية تبدو من هذا النوع من القضايا ، ولا يغيّر من الأمر شيئاً ، عدم تكليفه المباشر بها . أخذ يهزّ الكرسي ببطء مستمتعاً بأشعة الشمس وترك عقله يبحث في مختلف الإحتمالات كما لو كانت لعبة شطرنج .

أيقظه رنين الهاتف ، فأدرك أنّه أغفى قليلاً ، فركض إلى الداخل :

ـ « أهذا أنت يا جريج ؟ أنا فرانسيس » .

ـ « مرحباً فرانسيس ، جميل منك أن تعاود الاتصال بي » .

ـ « ماذا يمكنني أن أفعله من أجلك ؟ » .

ـ « هل سمعت بمستحضر يدعى ميثل تستوسترون ؟ » .

ـ « لا أذكره ، دعني أبحث عنه في مراجعي » .

غاب بعض الوقت ثمّ عاد وقال : « هذا مثير للاهتمام » .

ـ « كنت أتوقع أن تقول ذلك » .

ـ « إنّ استخدامه بكميات صغيرة في المستحضرات التي تقوّي القدرة على الجماع . . . يؤدي إلى التسبّب باليرقان المركّز جداً . هل تظنّ أن تشورومنسكي استعمله ؟ » .

ـ « يبدو أنّ هذا هو ما حصل ، فالطبيب عاينه وقال إنّه مصاب فعلاً باليرقان ، لا بمجرّد دواء مضاد للملاريا » .

ـ « وبحسب المرجع ، قد يحوّله هذا الدواء إلى مهووس جنسي » .

ـ « هل يمكن ذلك ؟ » .

ـ « نعم ، عرف عنه أنّه يسبّب درجات متفاوتة من الإنعاظ »(*) . ولقد عرفتُ حالة واحدة مصابة بهذا المرض ، طبيب متمرّن مجري قال لي مرّة إنّه نام مع ثماني نساء خلال اثنتي عشرة ساعةً . كأنّه الفحل الوحيد في مزرعة لتربية الخيل » .

ـ « بالمناسبة ، هل التقطت صوراً لأعضاء القتيل التناسلية بعد الإخصاء ؟ » .

ـ « كلا ، لم أفعل ، إلاّ أنّ مصوّر الشرطة قام بذلك وأظنّها محفوظة لدى قسم المستندات » .

ـ « حسناً ، هذا رائع ، شكراً جزيلاً » .

ـ « أنا حاضر في أي وقت » .

كان يكتب رسالة إلى ميرندا عندما سمع صوت مفتاحها في قفل الباب . دخلت إلى المطبخ وتبعتها جوزي بارلو ، وهي امرأة جميلة في أوائل أربعيناتها فقال :

ـ « سرّني رجوعك ، كنت على وشك أن أذهب إلى د . مورو هل تمانعين ؟ » .

ـ « كلا بالطبع ، سوف أري جوزي كيف تعدّ « Boeuf strongasoff » .

قبل سلتقليت جوزي على خدّها ، كان لديه شعور بالمسؤولية نحوها ، فقد هجرها زوجها ـ الطبيب النفسي ـ من أجل سكرتيرته ذات الثمانية عشر ربيعاً .

(*) شبق مفرط أو غير سوي عند الرجل .

ـ « لماذا لا تُبقي جوزي على العشاء ؟ » .

قالت جوزي : « رائع ، يسعدني ذلك » .

أراح ذلك ضميره وغمره شعور بالزهو وهو يسرع الخطى نحو مؤسسة العلوم الجنسية ، كمن يتوقّع أحداث الحلقة التالية من مسلسل .

8

كان الباب مفتوحاً ، همّ بوضع أصبعه على جرس الباب ثمّ غيّر رأيه ، وفي الرواق ، وقف وتنصّت ، فتناهى إليه صوت الراديو من إحدى الغرف . ثمّ صعد الدرج بهدوء وطرق باب د . مورو طرقاً خفيفاً ، لم يلقَ جواباً فتح الباب ففوجيء بإميل يرتّب الكراسي في وسط الغرفة .

ـ « مرحباً أميل ، الدكتور موجود ؟ » .

ـ « أظنّه في المكتب الآخر ، سأذهب وآتي به » .

ـ « لا تتعب نفسك ، لا أريد إزعاجه ، سأنتظر » .

وجلس على الكنبة التي كانت قد وُضعت في الزاوية ، وكانت جميع كراسي الغرفة قد رتّبت في صفّين بمحاذاة الجدار الخلفي ، وأُزيح المكتب إلى إحدى الزوايا .

ما إن غادر إميل الغرفة ، حتى هرع سلتغليت إلى المكتب ، وأخرج من درجه ألبوم الصور المسمّى (عصاب تقليد لباس الجنس الآخر) وأخرج منه الصورة الغريبة لأعضاء الرجل التناسلية ، وكان يهمّ بوضعها في جيبه الخلفي عندما فتح الباب ودخلت دوروثي :

ـ « ماذا تفعل ؟ » .

غمرهُ الارتياح عندما سمع صوتها ، إنّه صوت الطفلة ذات السبع سنوات : « أتفرّج على الصور » . وأعاد الألبوم إلى مكانه .

ـ « هل تسمح لي أن أتفرّج ؟ » .

ـ « لا ، هذه الصور ليست للفتيات الصغيرات » .

ـ « آه ، أرجوك » . ولدهشته وضعت فمها على أذنه وهمست مرة أخرى :

ـ « أرجوك » .

هزّ رأسه فتشبّثت به بيديها . وأحس بطرف لسانها يلامس أذنه فشعر بنشوة جنسية مفاجئة . ثمّ ضحكت وأحسّ بيدها تفتش جيب سرواله ، فلم يتحرّك ممّا سمح لها بتفتيش جيبه الأخرى . ثمّ وضعت كلتا يديها في جيبي سترته . ووجدت ما كانت تبحث عنه : علبة الحلوى الصغيرة .

ـ « هل هذه لي ؟ » .

ـ « أجل » .

ـ « شكراً ، عمو جريج » .

كانت تتحدّث بطريقة الطفلة التي يُطلب منها أن تكون مهذّبة ، إلاّ أنّه أدرك أنّها لعبة ، فهي تحاول أن تدّعي أنْ علاقتها به هي علاقة رسمية جداً .

ـ « هل تخبرني قصة ؟ » .

ـ « أجل يا عزيزتي » .

ـ « شكراً » .

مرّة أخرى ذلك الصوت المؤدب الأجوف . تركها تأخذ يده وتقوده إلى الكنبة . جلس وحاول أن يدفعها للجلوس بجانبه ، لكنها انتظرت حتى ارتاح في جلسته ، وجلست على ركبتيه ولفّت يديها حول رقبته .

فقال لها : « ألا ترين أنّك صرت أكبر من أن تجلسي على ركبتي » .

وندم على ما قاله على الفور ، وكأنّها تلقّت صفعةً على وجهها وقالت :

ـ « ألا تريدني ؟ » .

قال محاولاً منع دموعها : « بلى بالطبع ، إلاّ أنكِ أصبحت فتاة كبيرة . . . » .

ـ « لست كبيرة إلى هذه الدرجة » .

كان ذلك صحيحاً فوزنها بالكاد يتعدى وزن الأطفال . ألصقت وجهها برقبته وقالت :

ـ « إذاً إبدأ » ، وشعر فجأة بأنّها تتلاعب بمشاعره .

ـ « حسناً ، كان يا ما كان ، في قديم الزمان . . . » .

فتح الباب ودخل مورو ، يتبعه رجل طويل ، أشقر الشاربين ، وإن كان قد فوجئ برؤية روزي جالسة على ركبتي سلتغليت ، فلا ريب في أنّه أخفى ذلك بشكل جيد . واكتفى بأن ابتسم وقال :

ـ « مساء الخير » .

ردّ سلتغليت بارتباك : « مساء الخير » . وهمس لروزي : « سأخبرك القصّة فيما بعد » .

قالت بلهجة آمرة : « لا ، الآن » .

هرع مورو إلى نجدته : « روزي ألا تريدين الاشتراك في اللعب بعد قليل ؟ » .

ـ « بلى ، أرجوك » .

ـ « إذاً ، لم لا تذهبين لتغيير ملابسك وارتداء فستانك الجميل ذي الخطوط الصفراء ؟ » .

فتنهدت : « آه ، حسناً » .

وقبّلت سلتغليت على خدّه وقالت : « وداعاً عمّو جريج » .

لقد عادت إلى التمثيل مرة أخرى .

ـ « مع السلامة يا روزي » . ولاحظ أنّها خصّت الرجل ذا الشاربين الأشقرين بابتسامة رقيقة .

قال مورو : « ريك هندرسون . . . ريك د . جريجوري » .

حاول سلتغليت أن يخفي انزعاجه وهو يصافح الرجل . كان هندرسون شاباً في منتصف عشريناته ، عيناه شديدتا الزرقة ، شبه أصلع تمنحه جبهته العالية مظهر الإنسان المثقف .

ـ « ريك أيضاً سيكون معنا في المجموعة ، هل تودّ أن تذهب لتغيير ثيابك ؟ » .

قال الشاب : « حسناً » ، وكان يتحدّث بلكنة أمريكية .

ـ « هل تلبس معطفك الأبيض ؟ » .

ـ « إن كنت ترى ذلك ضرورياً » .

فوضع مورو يده على كتف سلتغليت وقال : « أرجوك ألاّ تعتبر الأمر نوعاً من الخداع ، ففي العلاج باللعب ، كلنا نلعب أدواراً مختلفة ، وعليك أن

تنسى أنّك شرطي وأن تصبح طبيباً . فلعلّه من قبيل المصادفة المحض أنّك شرطي ولست طبيباً . ولو اختلفت الظروف لكنت أنت الطبيب وأنا الشرطي » . وأعطى سلتغليت المعطف الأبيض .

ـ « أتعني أنّنا جميعاً نلعب أدواراً طوال الوقت » .

ـ « بالضبط ، إلاّ أنّنا لا نعي ذلك لأنّنا تمادينا مع أدوارنا . فكّر عما قد يحدث لو أنّ الممثّل السينمائي يفقد ذاكرته في كل مرّة يلعب فيها دوراً فيعتقد بأنه أصبح الشخص الذي يلعب دوره . لنفترض مثلاً ، أنّك لعبت دور المجرم ، عندها ستشعر بشكل غامض بأنّ هناك خطأ ما ، وأنّ هذا ليس أنت فعلاً . وأنّ القدر الغاشم أجبرك على لعب هذا الدور وأنّ الدور نفسه لا يتجانس مع شخصيتك الحقيقية . هذه الأزمة ستولّد الحالة التي ندعوها نحن بالعصاب . ويمكنك أيضاً أن ترى أنّ الطريقة الوحيدة لعلاج هذا العصاب تتمثّل في أن تجعلك تدرك أنّك شرطي ولست مجرماً » .

فكّر سلتغليت في الأمر وقال : « أحياناً أظنّ أنّي أقرب إلى كوني مزارعاً ، إلاّ أنّي أتخطى المزارع العادي في اهتمامي بالناس » .

زرّر أزرار معطفه وأخذ مورو سترته وعلّقها في الخزانة .

ـ « أنت الآن طبيب وأريدك أن تعتبر نفسك طبيباً . أنت طبيب طوال فترة بعد الظهر » .

دخلت هارييت إلى الغرفة ، وهو يتكلّم ، وكانت ترتدي بذلة زهرية من قطعتين ، أصغر بكثير من عمرها ، وكانت قد كحّلت عينيها ووضعت أحمر شفاهٍ فاقع اللون . خصّت سلتغليت بابتسامة غامضة ساحرة وقالت له : « ألست ذلك الشرطي الرائع ؟ » .

فقال مورو : « لا ، إنّه ليس هو ، بل هو الدكتور جريجوري » .

فأمعنت النظر في وجه سلتغليت وكانت قد وضعت شيئاً في عينيها ، بحيث بدتا أوسع بكثير وأكثر بريقاً .

ـ « إلا أني أعرف . . . . » .

فقاطعها مورو : « إنّه اليوم الدكتور جريجوري أنت تعرفين شروط اللعبة » .

فقالت بكآبة : « بلى ، بالطبع ، أنا آسفة » . ثمّ مدّت يدها : « كيف

حالك يا دكتور ؟ » .

فصافحها سلتفليت فقرّبت وجهها من وجهه وقالت : « لكنّي أفضّلك شرطياً » .

فقال مورو بحزم : « هذا يكفي يا هارييت » .

فتح الباب ودخل إميل وامرأة شقراء يحملان صندوقاً كبيراً .

وكان واضحاً أنّه ثقيل جداً . وعندما وضعاه على الأرض ، لاحظ سلتفليت شاربي المرأة الشقراء ، إنّه الأمريكي ريك ، كان يرتدي فستاناً أحمر ومعطف فرو قصيراً وحذاء عالي الكعب . وضعا الصندوق على بعد حوالى ثلاثة أمتار من المكتب ، ومن الواضح أنّ هناك أهمية لموقعه ، ثمّ خرجا معاً .

سأل سلتفليت : « من هو ريك هذا ؟ » .

ـ « إنّه مريض جديد ، يُعاني من مشاعر عدائية حادّة نحو النساء » .

ـ « سادي ؟ » .

ـ « ليس تماماً ، السادي يتمتع بإيلام الآخرين ، أمّا ريك فلا يحبّ الإيلام لمجرّد الإيلام . لكنه عندما ينام مع امرأة يطغى عليه فجأة شعور بالغضب الشديد ، حتى كاد أن يقتل إحدى الفتيات التي كان يقضي الليل معها في لوس انجلس وهذا ـ بيني وبينك ـ هو ما دفعه لمغادرة أمريكا » .

لاحظ سلتفليت أنّ مورو لم يحاول خفض صوته وأنّ هارييت كانت تنصت باهتمام شديد .

ـ « وهل يريد أن يتعالج ؟ » .

ـ « طبعاً ، يخاف إن بدأ بممارسة الحبّ مع فتاة أن يفقد سيطرته على نفسه ويقتلها » .

ـ « صورة معكوسة عن روزي » .

دخلت روزي إلى الغرفة مع فرانكي ، كانت ترتدي ثوباً صيفياً فاتحاً مخطّطاً بخطوط خضراء وصفراء . لاحظ سلتفليت أنّ فرانكي كان يمسك بيدها عندما دخلا إلّا أنّه بدا محرجاً وترك يدها عندما انتبه لوجود مورو .

وقف مورو وأخذ يتأمل روزي بإعجاب شديد وقال : « يا لها من فتاة جميلة » . فاحمرّ وجهها خجلاً :

ـ « تعالا ، اجلسا » .

ـ « سأجلس قرب عمو جريج » .

وجلست بجانب سلتفليت بحيث أصبح كتفها العاري ملتصقاً بمعطفه .

دخل ريك وإميل يحملان ستائر من النوع الذي يُستخدم لتغيير الملابس ، وضعاها بين المكتب والصندوق بحيث شكّلت مكاناً مقفلاً ككخشب المسرح . ثمّ فتح إميل الصندوق وأسند الغطاء إلى مكنسة طويلة كي يبقى مفتوحاً . ثمّ جاء بالمرآة الطويلة من زاوية الغرفة ووضعها على المكتب . ووضع عدة كتب أمام قاعدتها لتمنعها من الانزلاق . وأخذ سلتفليت يتابع إميل بفضول وهو يعود إلى الصندوق ويخرج منه معطفاً طويلاً وصدرية ، ثمّ وقف أمام المرآة وارتدى الصدرية ، ثمّ أخرج ساعة يد هائلة الحجم ووضعها في صدريته بحيث تدلّت سلسلتها الذهبية على بطنه بشكل شبه دائري .

وضع سلتفليت فمه على أذن مورو وقال : « أليس من الأفضل أن يلبس إميل ملابس النساء ؟ » .

فهزّ مورو رأسه : « لا ، لأنّ إميل قد أصبح امرأة بالفعل ، إنّه امرأة في جسم رجل » .

ارتدى إميل المعطف الطويل ثمّ أخرج قبعة من الصندوق ووضعها فوق رأسه ثمّ ارتدى ربطة عنق قصيرة ووضع نظارة طبية على إحدى عينيه (مونوكل) ، وحمل سيجاراً أسود كبيراً . أخذ يتأمل نفسه في المرآة وقصّ طرف السيجار فيما انفجر الحضور بالضحك والتصفيق . فأخذ إميل ينظر إليهم مدّعياً الغضب . بدا متعجرفاً متغطرساً كالخنزير الرأسمالي في أفلام الصور المتحركة ذات الاتجاه اليساري .

لاحظ سلتفليت أنّهم ليسوا في عجلة من أمرهم للبدء باللعب ، ففي العشر الدقائق التالية دخل عدد من الأشخاص وجلسوا . كان الجميع يعرف بعضهم بعضاً دون استثناء ، فأخذوا ينظرون إلى سلتفليت بفضول شديد . انتهز مورو فرصة انشغال الجميع بتبادل أطراف الحديث ليشرح لسلتفليت حالة كل مريض . فتلك السيدة الأنيقة ذات الفم الشهواني التي تخطّت الثلاثين والتي يصل شعرها الأسود إلى كتفيها لديها هوس بالفتيان الصغار وتحاول أن تصطادهم في دور السينما . وذلك الشاب العصبي ذو الشفتين الدقيقتين قام بثلاث محاولات لقتل والده . والرجل القصير الغريب الذي

يبدو كمدير بنك والذي يعمل مندوباً لشركة تأمين مهووس بالبراز وقد دفع لعدد من المومسات كي يتبرّزن على لوح زجاجي يضعه فوق وجهه . لاحظ سلتفليت أنّ أياً منهم لم يكن ليلتفت إلى ريك رغم كون الجلسة ـ كما أخبره مورو ـ أول جلسة له ، وحدها روزي ظلّت تختلس نظرات الإعجاب إليه .
عندما دقّت الساعة ثلاث دقّات قال مورو :
ـ « آن لنا أن نبدأ » .

وأشار إلى اميل الذي أغلق جميع الستائر ووجه ضوء مصباح كشّاف نحو المسرح ، ثمّ مضى مورو إلى الصندوق وأخرج شعراً مستعاراً أشيب ووضعه على رأسه بحيث تدلّى على كتفيه ثمّ ارتدى قبعة ثبته بها ووضع على أنفه إطار نظارة خضراء كبيرة . ثمّ أخرج قناع مهرّج من الصندوق مثبتاً إلى عصا وأمسك بثُوبٍ يبدو أنه قطع حديثاً وضرب به الأرض محدثاً دوياً . فتوقف الجميع عن الحديث على الفور .

كان يتحدث بهدوء وجديّة دون أن يحاول الاستعراض . ولاحظ سلتفليت أنّ مورو لم يبد سخيفاً رغم شعره المستعار الطويل ونظارته الفارغة ، بل على العكس فقد بدا ، بشكل ما ، طبيعياً :
ـ « معنا اليوم ثلاثة ضيوف : د . جريجوري خبير في السلوك المعادي للمجتمع » . حاول سلتفليت أن يخفي ابتسامته . « ريك هندرسون مهندس معمار من أمريكا» . وربّما نبيا لكم أنكم رأيتم روزي من قبل ، إلاّ أنكم لم تفعلوا ، فالفتاة التي تجلس بينكم لا يتعدّى عمرها السبع سنوات ، وهي معنا للمرّة الأولى .

استدارت روزي وابتسمت للجالسين خلفها .
« سألخص مبادىء العلاج بواسطة الألعاب من أجل القادمين الجدد . إنّ شخصيتك هي أساساً الطريقة التي تنظر بها إلى نفسك » .

وذهب مورو ووقف أمام المرآة .
« إلاّ أنها ليست بالضرورة شخصيتك الحقيقية » .
وضع قناع المهرّج على وجهه واستدار نحو الجمهور :
ـ « إنه مجرّد قناع ابتكرتموه عبر تفكيركم بطريقة معيّنة في أنفسكم . وتفكيركم هذا يجعلكم تتصرفون بطريقة معيّنة . وهكذا فإنّ تفكيركم يقوّي

أعمالكم ، وأعمالكم بدورها تقوّي من تفكيركم » .
بدت الحيرة على روزي وأخذت تمصّ أصبعها .
ـ « وقد ينتج عن ذلك تكوين شخصية لا علاقة لها بما أنتم عليه في الحقيقة . ولكن ، ولأنها التصقت بكم بقوة مثل هذا القناع ، فمن الصعب نزعها . والآن كلكم تعرفون بأنّ كلاّ منكم يشعر باختلاف شخصيته حسب الظروف ، عندما تتحدّث إلى شخصية قويّة تفرض نفسها ، تشعر بأنّك ضعيف ، وعندما تتحدّث إلى شخصية ضعيفة تشعر بأنّك قوي ، وعندما يواجهك تحدٍّ مثير تشعر بأنّك أكثر حيوية ، فذلك التحدّي ينمّي لديك شخصية جديدة . واللعبة تهدف إلى منحكم الفرصة لاختبار شخصيات جديدة ، بالطريقة التي تجرب بها المرأة القبعات الجديدة » .

مدّ يده إلى الصندوق وأخرج قناعين وضع أحدهما على وجهه ثمّ استبدله بالآخر بسرعة . كان الأول لميكي ماوس والثاني لطفل أشقر ذي خدّين مشربين بالحمرة . ثمّ أمسك بالأقنعة الثلاثة من العصي المربوطة بها كأنها ورق لعب ورفعها وأخذ يتطلّع من فوق الأقنعة .
ـ « في كل مرّة تغير فيها القناع تلمح فيها نفسك الحقيقية ، وعندما تتعرّف إلى طبيعة هذه النفس ، تبدأ بالتصرّف والتفكير بشكل مختلف وتختفي مشاكلك » .

ونظر إلى سلتفليت : « هل لديك أي سؤال يا د . جريجوري ؟ » .
فهزّ سلتفليت رأسه نافياً .
وضع مورو الأقنعة على الطاولة : « حسناً ، من يودّ أن يبدأ اليوم ؟ أتبدأ أنت يا فرانكي ؟ أظنّ أنه دورك » .
قطب فرانكي جبينه .
ـ « ما رأيك بالشرطي واللصّ ؟ لم تقم بهذا الدور منذ فترة » .
وقف فرانكي متثاقلاً ومشى ببطء نحو المسرح . فأخرج سلتفليت من الصندوق قبعة شرطي وهراوة سوداء من البلاستيك . ثم وضع فرانكي القبعة على رأسه :
ـ « والآن يا فرانكي عليك أن تختار اللصّ » .
جلس مورو مرّة أخرى وجال فرانكي بنظره بين الحضور ، مستمتعاً

بمركزه الجديد ، ثمّ أشار بهراوته إلى السيدة الجميلة ذات الشعر الجميل . فقالت : « لا ، أرجوك » .

أشار إليها فرانكي بسبابته أن تأتي . فتنهدت ووقفت .

ـ « حسناً ، إلاّ أني لا أريد أن أكون لصّة ، هل يمكن أن ألعب دور توم الذي يختلس النظر ؟ » .

كانت توجّه الحديث إلى مورو . فقال لها : « يجب أن تسألي فرانكي » .

فقال فرانكي بلهجة تنمّ عن ثقة كبيرة في نفسه : « حسناً » .

فتنهدت المرأة وقالت : « في هذه الحالة يجب أن أغيّر ثيابي » .

نزعت فراءها ووضعته على الكرسي في حركة مسرحية ، ثمّ أخذت وقتها في البحث في محتويات الصندوق وأخرجت أخيراً مريولاً أزرق من النوع الذي يرتديه العمّال وقلنسوة وشاربين كشاربي الشرير الصيني فومان شو . ثم ذهبت إلى خلف الستائر ، فوضعت تنورتها على حافة الستار وأتبعتها بتنورتها الداخلية . وكان سلتفليت يستطيع لو مال قليلاً أن يشاهدها وهي تخلع بلوزتها . كان واضحاً أنّها غير متحمّسة لإخفاء مفاتنها .

في ذلك الوقت كان فرانكي يذرع المسرح ذهاباً وإياباً ملوّحاً بهراوته . كان يبدو أقرب إلى ضابط نازي منه إلى شرطي ، فهو يمشي بزهو وينظر حوله في حركات فجائية ، ثمّ توقّف ليتأمل نفسه أمام المرآة وفتل شاربيه المفترضين وضرب بهراوته راحة يده الأخرى .

خرجت المرأة من وراء الستار مرتدية المريول الأزرق . كان منظرها مضحكاً ، فكتفاها عاريتان وقد ظهر رباط الصدرية ، وقبعتها أكبر بكثير من رأسها ، والشاربان مائلان . كان فرانكي لا يزال يمشي متخايلاً على رؤوس أصابعه ينظر إلى اليمين وإلى اليسار في حذر مبالغ جداً فيه .

وعندما استدار الشرطي ببطء وتثاقل ، قهقهت روزي وأمسكت بيد سلتفليت .

إثر بداية سيئة ، أضفت المرأة بعض الحرارة على دورها ، لقد رأت شيئاً بهرها وبدأت تراقبه باهتمام شديد ، ثم فتحت باب حديقة وهمية ، وتقدّمت على رؤوس أصابعها ، واختبأت خلف إحدى الشجيرات . أمّا فرانكي فكان لا يزال يذرع المسرح ذهاباً وإياباً ، متظاهراً بأنّه لا يراها ، وعندما اقترب منها

مرة أخرى سمعت وقع قدميه واختبأت في ظلّ شجرة . فوجىء سلتفليت بأنّه دخل في اللعبة ، فهو يتخيّل النافذة المضاءة والفتاة التي تخلع ثيابها ، دون أن تنتبه إلى أنّ هناك من يراقبها ، والرجل البصّاص الذي يتنازعه الشعور بالخوف من الشرطي والرغبة في التجسّس على الفتاة . عندما وقف الرجل طرطقت مفاصله فانتبه الشرطي وحاول أن يحدق في الظلام ، ثم دبّ على يديه ورجليه وزحف خلف الطاولة وأزاح الفراء بحذر وكأنّه يزيح بعض الأغصان التي تعوق زحفه . أمّا توم فقد مشى على رؤوس أصابعه واختبأ خلف الصندوق ، وأخذ كلاهما يقف قليلاً ليحدّق في الظلام ، ثمّ يخفض رأسه بسرعة .

انفجرت روزي بالضحك ، ونمت عن المتفرجين ضحكات هادئة . تجاهل الممثلان الأمر وأكملا اللعبة بتركيز شديد . ووضع مورو يده على كتف روزي ، ثمّ وضع أصبعه على فمه .

فتح الشرطي درج المكتب العلوي بهدوء ثمّ أوقف هراوته في داخله وركّز قبعته عليها ، بحيث يبدو أنّه لا يزال خلف الطاولة .

وضعت روزي أصبعها في فمها وأخذت تمصّها بعنف ، وأمسكت بشحمة أذنها بيدها الأخرى . خلع الشرطي حذاءه وزحف وراء الستار كي يمسك بالرجل من الخلف . فضحك الجميع . احتار الرجل لثبات الشرطي (القبعة) في مكانه ، فاقترب من حافة الصندوق ليتحقق من الأمر ، وفي الوقت نفسه صرخ فرانكي من خلفها : « باسم القانون اقبض عليك » .

فصفّق الجميع وكانت روزي أشدّهم حماسة .

قالت المرأة : « هذا ليس عدلاً » .

تجاهلها فرانكي ونظر نحو الجمهور مبتسماً بزهو وهو يمسك بمريول أسيره .

وقف مورو وربّت بيديه على كتفيها قائلاً :

ـ « كنتما ممتازين » .

وقال للمرأة : « تمكّنت من إقناعي بأنّك تراقبين شخصاً وهو يخلع ملابسه » .

فابتسمت بامتنان .

ـ « وأنت يا فرانكي كنت رائعاً وتصلح لأن تكون شرطياً ممتازاً » .

فابتسم فرانكي مزهواً . والتفت إلى سلتفليت متباهيا بانتصاره .

قال مورو : « والآن يا ريك هل تشعر بأنك مستعدّ للدخول في اللعبة ؟ » .

ـ « أظنّ ذلك » .

ـ « جيّد ، إذاً دعني أشرح لك شخصيتك ، أنت امرأة ملّت زوجها ، فقرّرت أن تجمع بعض المال عبر ممارسة الدعارة . أتعتقد أنّك قادر على أداء هذا الدور ؟ » .

ـ « أعتقد ذلك » . ووقف أمام المرآة وأخذ يداعب شعره بطريقة أنثوية .

وعادت المرأة التي لعبت الدور السابق إلى وراء الستار لتغيّر ملابسها . ولاحظ سلتفليت باهتمام أنها في هذه المرة قد ابتعدت عن مجال رؤية الجمهور .

قال مورو : « في العادة يحقّ لك أن تختار الفريق الذي يلعب معك ، لكن بما أنّك لا تعرف معظمنا فأنا سأختار لك ، دافيد ، هل تأخذ دور الزوج ؟ » .

وأشار إلى الشاب العصبي ، ثمّ قال : « اميل لعلّك تأخذ دور الزبون ؟ ومن منكم يتطوّع للعب دور الزبون الثاني ؟ » .

رفع مندوب شركة التأمين يده بخجل .

ـ « شكراً سيد مورلي » .

سرعان ما بدا واضحاً أنّ ريك ممثّل موهوب فقد ارتجل هو والشاب المذعور دافيد مشهداً على مائدة الفطور وقد جلس كلاهما على كرسيين متقابلين . وكان الزوج يقرأ الصحيفة ويدلي بملاحظات مملّة عن الطقس وعن سوق الأسهم وتردّ المرأة بتعليقات لا علاقة لها على الإطلاق بما يتحدّث عنه ، تتحدّث عن الجيران وعن حماتها وعن صحّة كلبها وهرّها . وكاد ريك أن يكون محترفاً ، لكن كي يتمكن من تقليد النساء بهذه الدقّة فلا بدّ من أنّه قد راقبهن عن كثب .

كان من السهل معرفة ما الذي دفع مورو إلى اختيار الشاب العصبي ،

فهو يريد أن يرى كيف يتصرّف كزوج وأب . وفي الحقيقة ، فإنّ الأداء حمل جميع الملامح التي تشير إلى شخص يعرفه سلتفليت جيداً .

عندما ذهب الزوج إلى مكتبه ـ عاد إلى مكانه بين الجمهور ـ عمدت الزوجة إلى التبرّج ، ثمّ سرّحت شعرها ، وخرجت . صعد اميل ـ الذي يغيّر المشاهد ـ وحمل الكراسي . وبدأ المشهد التالي ، المرأة تقف على ناصية الشارع ، وتقوم بحركات الإغراء للرجال المارّين . ظهر زبونها الأول ـ السيد مورلي ـ من خلف الستارة ، يعتمر قبعة مستديرة سوداء ، ويحمل مظلّة ، ثم تلا مشهد إيمائي رائع . فعندما وقع نظره على الفتاة بدا واضحاً أنه ليس قادرا على التأكد من أن ذلك لم يحصل مصادفة . فتظاهر بأنّه قد نسي شيئاً ورجع . وعندما التقت عيناهما مرّة ثانية عمدت المرأة إلى رفع حاجبها ، فلم يصدّق ما يرى ، تردّد ثمّ تراجع مرّة أخرى . وفي المرة الثالثة ، ساعدته بأن سألته عن الوقت . فتجمّد في مكانه غير قادر على الحراك ، ثمّ أجفل عندما أمسكت بيده ، ورغم خوفه مما هو قادم عليه سمح لها بأن تقوده إلى البيت فصفّق الجمهور .

ثمّ دخل اميل ـ الذي كان يراقب المشهد من الكواليس ـ ابتسم للفتاة ، ثمّ رمقها بنظرة متعجرفة ، فابتسمت الفتاة له وتوقفت .

انتبه الرجل الصغير إلى أنّه على وشك أن يخسر المرأة فحاول أن يدفعها إلى الأمام ، إلاّ أنّها قاومته .

فوجىء سلتفليت بمدى الصدق الإنساني في الموقف ، إذ اندمج الثلاثة في أدوارهم حتى تحوّل التمثيل إلى حقيقة . كان اميل مصمّماً على كسب المعركة ، إلاّ أنّ الرجل الصغير كان ساخطاً جداً إلى الحدّ الذي دفعه للتخلّي عن جبنه الطبيعي ، ثمّ أسفر الوضع عن توازن آني عبّر عنه التقاء عيون الرجلين . وعندما حاول اميل جرّ الفتاة من ذراعها رفع الرجل الصغير مظلّته مهدّداً . ولمح سلتفليت من زاوية عينه مورو وهو يهزّ رأسه موافقاً ، وبدا أنّ الرجلين على وشك التشابك بالأيدي ، لكنّ اميل هزّ كتفيه واستدار راجعاً . والتهب الجمهور في تصفيق حار .

كان المشهد التالي في غرفة نوم المرأة . دخلت إلى الغرفة ثمّ لحق الرجل القصير بها وبدا أنّه اكتسب ثقة جديدة بالنفس . وأخذ يراقبها بنهم وهي تخلع

معطفها وقبعتها ، ثمّ تركها تأخذ قبعته ومظلّته ، ثمّ استدارت لتواجهه فوضع يده على خدّها بحركة تنمّ عن عاطفة حقيقية وأنزلها بتردّد إلى كتفها ومن ثمّ إلى ذراعها . ثمّ حدث فجأة ما أذهلهم جميعاً . فقد طوّقته بذراعيها وأمطرته بوابل من القبل المعبّرة عن شوق شديد ، كأنّها ثعبان البوا العاجي وقد التفّ حول فريسته . وحاول الرجل الصغير التخلّص منها بعصبية وعنف ، وعندما تمكّن من الإفلات أخيراً ، كان وجهه أحمر من الإذلال الذي تعرّض له ، وعلى الفور وقف مورو ليقول :

ـ « جيد جداً ، كنتما رائعين » .

كانت لهجته عادية ثمّ وضع يديه على كتفيها وقال :

ـ « كان هذا نموذجاً رائعاً لوضع معكوس » .

منح كلام مورو الفرصة للرجل الصغير كي يتمالك أعصابه فردّ بابتسامة خجلة وعاد إلى مكانه . فقال مورو :

ـ « شكراً ريك ، يسعدنا أن نرحّب بك في مجموعتنا » .

فابتسم ريك وجلس في كرسيه .

أُعجب سلتفليت بالطريقة التي اتّبعها مورو في ترطيب الجو والسيطرة على الوضع .

أخرجت روزي أصبعها من فمها لتقول :

ـ « متى نلعب ألعاباً حقيقية ؟ » .

فابتسم مورو وقال : « ماذا تحبّين أن تلعبي ، الاستغماية ، أم لعبة الكراسي الموسيقية ؟ » .

هزّت رأسها وقالت : « ولم لا ؟ » .

فنظر مورو إلى الآخرين مبتسماً ، طالباً مساعدتهم بشكل غير مباشر ، ثمّ قال : « هيّا نلعب هذه اللعبة ، لنرتّب الكراسي ونلعب لعبة الكراسي الموسيقية » .

فقالت روزي : « لكن ليس لدينا موسيقى ! » .

فقال ريك : « بل ، لديّ مسجّلة ، سأذهب وآتي بها » كان بحاجة إلى أن يبتعد قليلاً .

حمل الجميع الكراسي إلى وسط الغرفة ورتّبوها في صفين متقابلين .

ثمّ قال مورو : « عندي فكرة » . وأخذ بيد روزي وقادها إلى المكتب :

ـ « لنتظاهري أنّه عيد ميلادك . اجلسي كي نتمكن من رؤيتك ، كم عمرك ؟ » .

ـ « سبع سنوات وثمانية أشهر » .

ـ « لنقل إنّه عيد ميلادك الثامن ، وإنّك ستقيمين حفلة . هل هناك من ترغبين بدعوته ؟ » .

فأجابت بحماسة : « أجل ، جوي » .

ـ « حسناً ، فرانكي سيلعب دور ابن عمتك جوي . افسحي له مكاناً يا روزي » .

فابتسمت روزي بفرح لفرانكي .

ـ « ماذا أهداك فرانكي في عيد ميلادك ؟ » .

ـ « لا أعرف » .

فقال فرانكي : « إنّك تعرفين ، أعطيتك ربطة شعر مزيّنة بفراشة خضراء » .

بدا الارتباك على وجهها ثمّ قالت : « آه ، تذكّرت » .

فقال مورو : « وماذا أهداك أبوك ؟ » .

فهزّت رأسها .

ـ « أهداك لعبة شقراء الشعر ترتدي فستاناً أزرق رائعاً . أليس كذلك ؟ » .

فعبست ونظرت إليه بارتياب مفاجيء . فابتسم لها مطمئناً .

ـ « ومن سيأتي إلى الحفلة بالإضافة إلى جوي ؟ ألن تأتي ميرل وأختها جسيكا وأخوهما بيل ؟ » .

نظرت إليه بدهشة : « أوتعرف هؤلاء أيضاً ؟ » .

ـ « أعرف أشياء كثيرة ، هل ندعو سندي بير وميني وكلبهما الصغير سكتربرين » .

فأومأت برأسها . إلاّ أنها كانت لا تزال حائرة .

ـ « وهل ندعو ماري فرانكلين أيضاً . آه ، كلا ، لقد نسيت ، لقد وقعت على بعض زجاجات الحليب وجرحت رجلها . هل كنت تعرفين هذا ؟ » .

بدا القلق على روزي . وكانت تبدو كمن يحاول أن يتذكّر شيئاً لكن بدون جدوى .

عاد ريك حاملاً جهاز تسجيل غالي الثمن . وعندما ضغط على الزر ، امتلأت الغرفة بموسيقى الروك أند رول . فأمسكت روزي بيد فرانكي .

ـ « آه ، هيا بنا » . وبدا أنّ جميع شكوكها قد زالت في لحظة .

وُضعت ثمانية كراسي في وسط الغرفة ، فاضطر سلتفليت إلى المشاركة في اللعبة . جلس مورو على المكتب ووقفوا جميعاً حول الكراسي . وأدار المسجّلة فدار الجميع حول الكراسي . كانت روزي تقفز قفزاً ، أوقف مورو الموسيقى بعد عدة دقائق . فعمل سلتفليت على التأكد من أنه الوحيد الذي لن يجد كرسياً .

قالت روزي متعاطفة معه : « مسكين عمو جريح » .

جلس سلتفليت بجانب مورو ، بينما كانت الموسيقى تدور من جديد ، وقال هامساً : « آمل أن تكون مدركاً لما تفعله » .

فهزّ مورو كتفيه ساخراً .

بعد حوالى عشر دقائق لم يبقَ سوى كرسي واحد .

كان فرانكي وروزي يدوران حوله عندما توقفت الموسيقى ، حاول كلاهما الجلوس في الوقت نفسه فضجّت روزي بالضحك ثمّ دفعته فوقع على الأرض ، وصفّق الجميع . وعندما وقف فرانكي مستاءً ، هرعت روزي إليه ووضعت يديها حول عنقه وقبّلته على خدّه .

صفّق مورو بيديه مستدرجاً انتباه الجميع وقال : « وماذا نلعب الآن ؟ » .

فأجابت روزي : « لعبة الكشتبان » .

فردّ فرانكي : « ما رأيكم بلعبة الاستخباية ؟ » .

ـ « حسناً ، لنلعب الإستخباية ، يمكنكم أن تختبئوا في أي مكان ، سأعدّ إلى المائة ثمّ أبدأ بالبحث عنكم » .

فرغت الغرفة في خلال لحظات . ولم يبقَ فيها إلاّ مورو وسلتفليت الذي قال :

ـ « هل يعرف فرانكي ماذا يجري ؟ » .

ـ « أجل ، لقد شرحت له الأمر قبل أن نبدأ » .

ـ « هل تعرف أين سيختبئان ؟ » .

ـ « أجل ، في خزانة مكتب دوروثي » .

ـ « ماذا ستفعل ؟ » .

ـ « أخشى أنّي سوف أسترقُ السمع ، هل ستأتي معي ؟ » .

كان اميل جالساً في أعلى الدرج يقرأ صحيفة .

قال مورو : « خذ الآخرين إلى المطبخ وأعدّ لهم الشاي ، وسنستأنف الجلسة بعد عشرين دقيقة » .

سأل سلتفليت : « هل يعرف الجميع ماذا يجري ؟ » .

ـ « ليس تماماً ، إلاّ أنهم يحاولون المساعدة . وهذا ما يجعل العلاج باللعب مفيداً إلى هذه الدرجة ، إذ ينسى الناس مشاكلهم ويحاولون حل مشاكل الآخرين » .

لم يكن باب مكتب دوروثي مغلقاً تماماً ، فوقفا أمام الباب وأصاغا السمع قليلاً ، ثمّ دفع مورو الباب بيده . ولاحظ سلتفليت أنّه تمّ تزييت المفصلات مؤخراً . لقد فكّر مورو بكل شيء .

كانت الخزانة الخضراء الكبيرة تبدو وكأنّها خزانة تهوية من النوع الذي يستخدم في تجفيف الملابس . وبينما هما يدخلان الغرفة على رؤوس أصابعهما ، سمعا ضحكة من الداخل . ثمّ خيّم الصمت . كان سلتفليت سعيداً بحذائه ذي النعل المطاطي ، أمّا مورو فقد أحدث حذاؤه صريراً على الأرض الخشبية ، فسمعا روزي تقول :

ـ « اش ، اش » .

فردّ فرانكي : « ما الأمر ؟ » .

ـ « سمعت شيئاً » .

بعد فترة من الصمت قال فرانكي : « لا يوجد أحد » .

وقف سلتفليت ومورو على جانبي الخزانة التي كانت ألواحها ذات ثقوب دائرية يخرج منها البخار . وبالتالي فإنّه يمكن سماع أي حركة في الداخل بوضوح تام .

قالت روزي : « هل تظنّهم سيبحثون عنا ؟ » .

ـ « كلا ، على الأقل لن يبحثوا عنّا هنا . لن يجدونا أبداً » .

ثمّ سمعا صريراً ، سألت روزي على أثره :

ـ « أنت مرتاح ؟ » .

ـ « لا بأس » .

ثمّ ساد الصمت فترة طويلة ، تقطعه بين الحين والآخر أصوات الحفيف والصرير . ثمّ قالت روزي :

ـ « ألا تحبّ تقبيلي ؟ » .

ـ « بلى ، بالطبع » .

بدا الصوت وكأنّه لا يعني ما يقول ، فلا ريب في أنّ معرفته بأنّه هناك من يسمعه كان له أبلغ الأثر .

ـ « فلماذا توقفت إذاً ؟ » .

تبادل سلتفليت وموررو النظرات ، ولم يكن هناك مجال للشكّ في نبرة الإلحاح في صوتها .

ساد الصمت طويلاً هذه المرّة ولم يقطعه إلاّ صوت الحفيف .

ثمّ قالت روزي : « إنّها مفكوكة » .

فقال فرانكي : « ماذا يوجد في الداخل ؟ » .

ـ « أنا » .

بدأ سلتفليت يشعر بالانزعاج . فالتنهدات التي أعقبت ذلك جعلته يشعر أنّه يلعب دور البصّاص . كما حملته على استرجاع ذكريات جيرالدين وما حدث في الكوخ . لكنه لم يعد يشعر بذلك المزيج الغريب من الغضب والغيرة والتهيّج الجنسي . ولأنّه كان يشفق على روزي مسترجعاً طفولتها البائسة فقد أحزنته فكرة مقاطعتها . لكن التعاطف مع روزي يعني التعاطف مع جيرالدين .

ثمّ قالت روزي فجأة : « اوه . . . جوي » . ولهثت ثمّ قهقهت : « جوي . . . أرجوك توقّف » .

ـ « حسناً » . بدا وكأنّه قد ارتاح لطلبها هذا .

ـ « لا ، لا تتوقف ، تابع » .

نظر موررو إلى سلتفليت وهزّ رأسه ، فاضطر المفوّض إلى أن يردّ بالمثل على الرغم منه . مشى موررو على رؤوس أصابعه نحو الباب ثمّ صفقه بقوة .

وعلى الفور توقفت الحركة داخل الخزانة وساد الصمت وتخيّل سلتفليت أنّهما يعيدان ترتيب ملابسهما بسرعة هائلة .

مشى موررو داخل الغرفة بخطى عادية وفتح باب الخزانة . لمح سلتفليت روزي وفرانكي شبه مضطجعين على كوم من الوسادات والمساند .

وصرخ موررو بغضب : « ما الذي يجري هنا ؟ » .

وأمسك بياقة قميص فرانكي وسحبه إلى خارج الخزانة وهو لا يزال يصرخ في وجههما . كان فرانكي وروزي لا يزالان يرتديان ملابسهما الكاملة ، إلاّ أنّ « لباس » الفتاة الداخلي كان قد أنزل إلى ركبتيها . أخذ موررو يضرب فرانكي على رأسه وعلى كتفيه .

فصرخت روزي : « لا تؤذه أرجوك . إنّها غلطتي » (شعر سلتفليت بالارتياح لأنّ روزي لا تستطيع رؤية وجه فرانكي الذي كان يبتسم) .

خرجت روزي من الخزانة وهي تبكي بهدوء ورفعت ملابسها فلاحظ سلتفليت أنّ أزرار فستانها مفتوحة حتى الخصر ، ولمح آثار كدمات .

قال موررو بحزم : « اذهبي إلى غرفتك . سوف أصفّي حسابي معك فيما بعد » .

وخرجت روزي وهي تبكي فانتهز فرانكي الفرصة ليرفع سحابه ، وتظاهر موررو بعدم الانتباه ، ثمّ لاحظ فرانكي وجود سلتفليت فاحمرّ وجهه خجلاً .

وضع موررو ذراعه على كتف فرانكي وقال : « شكراً يا فرانكي ، لقد قدّمت لنا مساعدة كبيرة » .

فرد بارتباك : « لا بأس » .

وكان يحاول أن يتحاشى عيني سلتفليت : « أما زلت بحاجة إليّ ؟ » .

ـ « لا شكراً لك » .

أسرع فرانكي إلى الباب .

ـ « آه ، ثمّة شيء واحد ، إذا سمحت لي أن أسألك هذا السؤال : هل كانت روزي بحاجة إلى . . . تشجيع ؟ » .

فقال فرانكي بصدق : « لا ، أبداً » .

ـ « شكراً » . وخرج فرانكي .

سأل سلتفليت : « ألا يجدر بنا أن نذهب إليها ؟ » .

هزّ مورو رأسه نافياً : « آه ، لا ، ستنام بمجرّد أن تضع رأسها على المخدّة » .

- « كيف يمكنك أن تتأكد ؟ » .

ابتسم مورو قائلاً : « الخبرة ، فهذا ما يحدث دائماً بعد هذا النوع من العلاج الذي يعتمد على إطلاق عاطفة مكبوتة ، لقد استنزفت كل عواطفها » .

- « هل أنت متأكد من أنها قد استنزفت عواطفها ؟ » .

- « أتعني أنّ ردّة فعلها لم تكن عنيفة كردّة فعلها هذا الصباح . إنّ هذا طبيعي . . . . » .

- « ليس هذا ما أعنيه بالضبط . فقد عاشت التجربة في الصباح تحت تأثير التنويم المغناطيسي . أمّا الآن فهي تعرف أنها لعبة وتعرف أنّ فرانكي ليس ابن عمتها جوي . فلماذا تستنزف عواطفها ؟ » .

هزّ مورو رأسه موافقاً : « إنّي أفهم اعتراضك ، ولقد تكوّن لديّ الانطباع نفسه عندما شاهدت علاج التحرّر للمرة الأولى . كان ذلك في مؤتمر لعلم النفس في نيويورك : كانت المريضة قد أصيبت بانهيار عاطفي بعد أن أخبرها حبيبها بأنه سيتخلى عنها من أجل امرأة أخرى . حدث ذلك داخل سيارة ، وكانت ترتدي معطفاً من الفرو . ثمّ أخبرنا الطبيب أنه سيجعلها تستعيد التجربة كلها وهي مستيقظة تماماً . بالطبع لم يصدّقه أحد منّا . إلاّ أنه طلب من المرأة أن تجلس ووضع معطف الفرو حول كتفيها ، ورشّ رائحة تشبه رائحة الجلد على يدها ثم راقبناها وهي تعيش المشهد كلّه مرة ثانية ، كان من المستحيل أن تمثّل ذلك كلّه . وعندها خطرت لي فكرة العلاج باللعب . . . » .

- « لكن من الممكن أيضاً أن يكون الأمر مجرّد خداع . فكيف تتأكد ؟ » .

هزّ مورو رأسه بعنف : « هل رأيت ما حدث في الجلسة مع ريك وآرثر مورلي . لقد ظنّ ريك أنّه يلعب لعبة ، لكنه في الحقيقة كشف لنا بدقّة عمّا يدفعه إلى ممارسة العنف مع النساء » .

قال سلتفليت بفضول : « لماذا ؟ » .

- « أولاً ، لدى ريك عنصر نسائي قوي في داخله . إلاّ أنّه من بيئة تضع أهمية كبيرة للذكورة والفحولة ، لذا فهو يرفض هذه الفكرة . وعندما يمارس الجنس مع فتاة ، ينتابه شعور مفاجيء بأنّها جرّته إلى السرير وأنّها كالأخطبوط الذي ينتظر الانقضاض على فريسته . وهكذا تنشأ لديه الرغبة في تعذيبها » .

- « والرجل الصغير ، هل كشف عن شيء ؟ » .

- « لقد كشف عن كل شيء ، فهو لا يصدّق بأنّ النساء ينجذبن إليه ، ولكنه يعشقهنّ ، وأنا أعرف أنّه كانت لديه مشاعر جنسية نحو أمّه ونحو أخته الكبيرة فكلاهما امرأتان جميلتان جداً . ولذا فهو يريد أن يعاقب نفسه ويذلّها بواسطة المومسات ، وكلما كنّ أشدّ قبحاً كلما أعجبنه أكثر . وما أثار اهتمامي اليوم هو غضبه عندما حاول اميل أن يأخذ الفتاة منه فوقف ودافع عن نفسه . ولو تعلّم أن يفعل ذلك دائماً فإنّ مشاكله سوف تختفي . لكن للأسف ، أفسد ريك كل شيء بالانقضاض عليه . . . . » .

- « وهل عرفت شيئاً جديداً عن روزي ؟ » .

- « عرفت الكثير ، فحتى بعد ظهر اليوم ، كنت أعتقد أنها بريئة مسكينة تسمح لابن عمتها بأن يفعل ما يشاء . . . » .

فقاطعه سلتفليت : « لقد عرفت أنّ ذلك غير صحيح منذ الصباح » .

- « حقاً ! أنت إذاً أكثر فراسة منّي » .

هزّ سلتفليت رأسه قائلاً : « عندما سألتها ماذا كانت تفعل في الخزانة قالت : لن أقول لك ، كانت تعرف تماماً ماذا يحدث . وعندما قالت : جوي ، توقف . لم تكن تعني ما تقول ، وكانت ستصاب بخيبة أمل فيما لو توقّف بالفعل . إنها فتاة حسيّة . هل أخبرك شيئاً آخر ؟ قبل دخولك إلى الغرفة بعد الظهر ، قرّبت فمها من أذني ، كما لو كانت ستسرّ إليّ بشيء ، ثمّ دغدغت أذني بلسانها ، وأنت تعرف ما تأثير ذلك في الذكور » .

- « هي فتاة حسيّة بالفعل » .

لم تكن جميع هذه الأفكار قد خطرت له من قبل ، إلاّ أنّها كانت تتدفّق في عقله بما يشبه الحدس بينما كان يتحدّث :

- « وتلك الحيلة التي تتبعها عندما تضع يديها داخل جيوب سروال الرجل ، لقد فعلت ذلك قبل دخولك الغرفة ، رغم أنها تعرف تماماً أنّني أضع علبة الحلوى في جيب سترتي » .

كان مورو لا يزال يشكّك في صحّة ما يسمعه :

ـ « بالنسبة إلى طفلة في السابعة من عمرها ، قد لا يكون ذلك متعمداً » .

ـ « لم أقل إنّها تعمّدت ذلك . بل أرى أنّها تقوم بذلك بشكل غريزي وأظنها مارست هذه اللعبة مع أبيها » .

هزّ مورو رأسه وقال : « أنت تعرف أنّي أعتبره أحد الطهرانيين المجانين . لماذا تزوّج أمها أساساً ؟ » .

أخذ سلتفليت يسترجع الأفكار التي دارت في رأسه عندما كان يسترق السمع إلى الأصوات الصادرة من داخل الخزانة وفجأة بدا كل شيء واضحاً أمامه .

ـ « أظنّ أنّه كانت هناك علاقة جنسية لاواعية بين الأب وابنته ، ولم يجرؤ على الاعتراف بها ، إلاّ أنّه على الأرجح كان يعتبرها زوجة ثانية ، زوجة لن تكون غير مخلصة له كما كانت زوجته . ثمّ أمسك بها في الخزانة مع جوي ، فثارت ثائرته وشعر بالغيرة تأكله ولم يعترف لنفسه بأنّه كان يشعر بالغيرة ، إلاّ أنّ هذا ما حدث ، وأكثر من ذلك ، فهو على الأرجح قد أدرك غريزياً أنّها هي البادئة . فالأولاد في سن جوي ـ أولاد الطبقة الوسطى المحترمون ـ خجلون ومتخلفون جنسياً ، أظنّ أنّ روزي هي التي أغرت جوي » .

قال مورو ببطء : « لعلّك على صواب ، يجب أن أفكر في المسألة » .

وأخذ يمعن النظر في الخزانة والوسادات المخربطة ، غارقاً في تفكير عميق .

ـ « إن كنت محقاً ، فلا بدّ من أنّ روزي قد لمست الطبيعة الحقيقية لغضب أبيها ، وعرفت أنّها قائمة على الغيرة الجنسية . لكنه قال لها إنّ الجنس شرّ وإنّها سوف تذهب إلى جهنم . فيجب أن يكون هذا قد ولّد ضغوطاً رهيبة في داخلها . . . » .

دقّ أحدهم على الباب فجفل الرجلان . ودخل ريك قائلاً :

ـ « لقد عادت المجموعة إلى مكتبك يا سيدي » .

ـ « شكراً ، سأكون هناك بعد لحظات » .

ثمّ سأل سلتفليت : « هل ستنضمّ إلينا ؟ » .

ـ « لا ، ثمّة أشياء أخرى يجب أن أقوم بها » .

وبينما هما يمشيان في البهو ، قال سلتفليت : « أليس من الأفضل أن نطمئن على روزي ؟ » .

ـ « بلى ، بالتأكيد » .

كان باب غرفة روزي مغلقاً ، ففتحه مورو بهدوء ونظر إلى الداخل ، كانت روزي في فراشها تغطيها ملاءة بيضاء . وقد جلس فرانكي على كرسي بالقرب من رأسها . ولدى دخولهما أخذ فرانكي ينظر إلى سلتفليت بغضب .

قال مورو : « هل هي بخير ؟ » ووضع يده على جبين الفتاة ، فأخذت تتنفّس بشكل أعمق وتحرّكت قليلاً . فابتسم مورو إلى سلتفليت .

ـ « أرأيت ، إنّها نائمة » .

نظر سلتفليت إلى الوجه الشاحب فانقبض قلبه وقال :

ـ « تبدو كأنّها روزي » .

ثمّ انحنى على السرير وسحب الغطاء عن الفتاة . فبدت على الجزء الظاهر من ظهر الفتاة آثار جرح شبه ملتئم ، فأمسك بطرف فستانها وشدّه بقوة فظهرت آثار جرح آخر على الكتف . وفجأة انتزع فرانكي الأغطية بعنف أذهله وغطّى الفتاة قائلاً :

ـ « لماذا لا تتركها وشأنها ؟ » .

نظر سلتفليت إليه نظرة عميقة : « أنت تعرف السبب » .

حوّل فرانكي نظره .

ـ « فقد قتل رجل قبل يومين ، وكانت معه قبل أن يموت » .

ابتسم مورو إلى فرانكي : « أنت لا تصدّق أنّ لها أي علاقة بالجريمة وأنا أيضاً ، لكن لا بدّ من أن تخبرنا بنفسها » .

فقال فرانكي : « إنّها لا تستطيع إخباركم بأي شيء » .

فسأل سلتفليت : « لماذا ؟ » .

هزّ فرانكي كتفيه متحاشياً عينيّ المفوّض .

وقال مورو : « يجب أن أعود إلى المجموعة » .

فقال سلتفليت : « هل من الممكن أن أعود في الصباح » .

ـ « بالطبع ، في أي وقت تحب » .

وأعاد مورو وضع الغطاء حول عنق الفتاة : « لعلّك تتمكّن من التحدّث إلى روزي » .

خرج فرانكي وصفق الباب وراءه فتنهدت الفتاة وتحرّكت قليلاً لكنها لم تفق من نومها .

وقال سلتفليت : « أودّ أن أعرف ما الذي يدفع فرانكي إلى التأكّد من أنّها لا تستطيع أن تقول لي شيئاً » .

***

9

أمام عتبة الباب الخارجي لمنزله ، وجد سلتفليت مغلفاً بنياً رسمياً ، معنوناً باسم مفتّش المباحث فيتش .

كانت ميرندا وجوزي في غرفة الجلوس وقد تركتا باب الحديقة مفتوحاً على مصراعيه . ورغم غياب الشمس كان الهواء لا يزال دافئاً وناعماً . جلست المرأتان تشربان « الشيري » .

ـ « أتريد شيئاً من الشيري يا عزيزي ؟ » .

ـ « لا ، شكراً ، أريد شيئاً أقوى » .

وصبّ لنفسه جرعةً كبيرةً من ويسكي الملط(*) . شرب الويسكي دون أن يضيف إليه شيئاً ، كان « عديله » جيرار يعرف أنّه خبير في الويسكي وأنّ خزانته مليئة بأصناف الأشربة الكحولية ، ومن بينها اثنا عشر نوعاً من الويسكي ، هي من أهم العوامل التي أقنعته بالانتقال إلى منزله .

ـ « هل اتصل بي أحد ؟ » .

ـ « كلا » .

ـ « أعتقد أنّ فيتش سيأتي لزيارتنا ، لقد وجدت مغلفاً باسمه أمام الباب » .

ـ « في هذه الحالة ، أرجو أن يأتي سريعاً ، فإنّ العشاء سيكون جاهزاً في الساعة السابعة » .

(*) وهو مزيج خاصّ يُصنع في شمالي سكتلندا ، لونه أعمق من الويسكي الممزوج إلا أنه أكثر سلاسة .

كان مسترخياً على الكنبة وقد مدّ رجليه على طاولة صغيرة ووضع زجاجة الويسكي على طاولة صغيرة أخرى بالقرب منه .

قالت ميرندا : « أرجو ألاّ يكون لديك مانع ، فقد كنت أتحدّث مع جوزي عن تلك الفتاة روزي » .

ـ « طبعاً لا ، فالأمر ليس سراً » .

فقالت جوزي : « لقد مرّت بدوغلاس حالة مشابهة » .

فقال سلتفليت باهتمام شديد : « هل تذكرين التفاصيل » .

ـ « نعم ، كانت تلك الفتاة جوانا . . . . جوانا فيتون في الخامسة عشرة من عمرها وتعيش مع أمّها في كريدون في بيت بائس . بدأت الفتاة تمشي في نومها فلم يهتمّا للأمر كثيراً في البداية ، فالكثير من المراهقين يفعلون ذلك ، لكن في إحدى الليالي تعثّرت الفتاة بعصا مكنسة فاستيقظت لكنها لم تستطع التعرّف إلى أمّها ، بل جلست في الظلام وأخذت تتحدّث عن حادثة سيارة ، ظنّت الأم أنّ ابنتها لا تزال نائمة فأعادتها إلى السرير . تكرّر الأمر عدة مرات ـ لا أعرف عددها بالضبط ـ إلى أن أدركا أنّ الأمر ليس مجرد حلم ، فعندما استيقظت في منتصف الليل زعمت أنّها فتاة فرنسية تدعى ميشال ، ماتت في حادثة سيارة إثر حفلة سكر . والغريب أنّها لم تكن تتحدّث بلكنة فرنسية حتى أنّها لم تكن تجيدها إلاّ بمقدار ما تعلّمته في المدرسة الثانوية . لا أذكر الكثير من التفاصيل ، لكن دوغلاس كان يعمل آنذاك كمستشار للسلطات التعليمية المحليّة ، ولقد استدعوه عندما رسبت تلك الفتاة ـ جنيفر ـ هل قلت جوانا ، لا ، كان اسمها جنيفر في امتحان الدخول إلى الكليّة . زعمت أمّها أنّ الفتاة الأخرى ميشال كانت تسيطر عليها عندما تبدأ جوانا بالدرس ، فتستيقظ في صباح اليوم التالي لتكتشف أنّها لم تكتب فروضها . ظنّ دوغلاس في البداية أنّها خدعة ، ثمّ اتصلت بنا والدتها ذات مساء وقالت إنّ ميشال قد سيطرت على ابنتها فأسرع إلى بيتهم على الفور . ولم أرَ في حياتي شخصاً مصاباً بحالة من الذهول والصدمة تشبه الحالة التي عاد بها . كان قد قابل جنيفر وحادثها عدة مرات وكان يعرفها بشكل جيد ، ولقد اكتفى بالقول إنّ ميشال وجنيفر شخصان مختلفان » .

هزّ سلتفليت رأسه : « هذا هو المذهل في الأمر إنّها بالفعل شخصان مختلفان » .

ـ « على أي حال ، سمحوا لها بأن تعيد الامتحان بناءً على توصية دوغلاس . ونجحت هذه المرّة ، إلاّ أنّ ذلك لم يغيّر شيئاً ، فقد عادت إلى سيرتها الأولى من جديد . فتركت المدرسة بعد فترة وعملت في مقهى . وهناك حدث شيء غريب ، لقد كانت صاحبة المقهى امرأة تحضّر الأرواح ، أدخلت الفتاة في إحدى جلساتها . وبينما كانوا جالسين متشابكي الأيدي في الظلام ، دخلت الفتاة في غيبوبة وظهرت ميشال . طبعاً قال دوغلاس إنها سخافات ، لكن هذه الطريقة نجحت » .

ـ « ماذا تعنين « بنجحت » ؟ » .

ـ « لم تعد تعاني من مشاكل ، ويبدو أنّها أصبحت ـ ماذا يسمّونه ـ وسيطاً . أظنّ أنّ دوغلاس قال آنذاك إنّ روح هندي أحمر تعمل كدليل روحي لها . ولم نعد نسمع عنها بعد ذلك » .

سألت ميرندا : « هل التقيت بها ؟ » .

ـ « بضع مرات ، عندما كنت أعمل كموظفة استقبال لدى دوغلاس » .

لاحظ سلتفليت الحزن الذي ظهر على وجهها .

فسألها محاولاً أن يجذب اهتمامها إلى موضوع آخر : « ما هي النظرية التي كوّنها دوغلاس من المسألة كلّها ؟ » .

ـ « في البداية ، كان يظنّ أنّها تكذب ، وأنّ الأمر لا يعدو اختلاق الأعذار لتبرير كسلها . غير أنّه غيّر رأيه عندما توقّفت معرفته بها ورأى أنّ مفتاح فهم الحالة يكمن في اللاوعي ، بقي على اعتقاده بأنّها تكذب ، إلا أنّه ظنّ أن لا وعيها هو الذي يدفعها إلى ذلك ، وتحدّث عن « الظلّ »(*) ، ذلك الاصطلاح الذي استخدمه يونغ(*) . وهو يعني على ما يبدو ، ذلك الجزء الذي لم تتوفر لديه الفرصة ليعبّر عن نفسه . وهذا ما أذهله لدى لقائه الأول بالفتاة الفرنسية . وحاول بأقصى ما في وسعه أن يبرهن أنّها جزء من شخصية جنيفر .

فمثلاً طلب من الفتاة أن تعدّ له لائحة بكل الكتب التي قرأتها في حياتها ، آملاً أن تكون قد قرأت شيئاً عن هذه الفتاة الفرنسية ، ولكنه لم يصل إلى نتيجة » .

(*) الجزء المكبوت من الشخصية .

سألت ميرندا : « هل حاول أحد التحقّق فيما إذا كانت هذه الفتاة قد وجدت فعلاً ؟ » .

ـ « لا ، لكن الفتاة قالت إنّها كانت تعيش في مدينة كبيرة نسبياً ، ليون على ما أظنّ . . . . » .

ففكّر سلتفليت : « كسل نموذجي في تتبّع دليل مهمّ » .

وأضافت جوزي : « على أي حال ، فقد دوغلاس أي اهتمام بها منذ أن بدأت تتّصل بمحضري الأرواح ، ثمّ رجع فجأة إلى رأيه الأول بأنّ الفتاة كانت تمثّل طوال الوقت » .

ـ « تمثّل ! ؟ » كاد سلتفليت أن لا يصدّق ما يسمعه .

ـ « إنّها فتاة بسيطة قبيحة الشكل ، رأى دوغلاس أنّها أرادت أنْ تجذب الاهتمام إليها . وكان والدها هو الشخص الوحيد الذي يهتمّ بها لكنّه رحل وهي لا تزال طفلة ، لذا رأى دوغلاس أنّ لاوعيها هو الذي ابتكر هذه الطريقة لتلبية هذه الحاجة » .

ـ « ولكنّك قلت إنّه ذهل عندما واجه الفتاة للمرّة الأولى وأدرك أنّها شخص مختلف تماماً » .

ـ « أجل ، إنّما . . . . حسناً ، أنا أفهم الطريقة التي فكّر بها . فنحن لا نعرف شيئاً عن اللاوعي ، أليس كذلك؟ وحتى الممثّل الجيد ، أو ذلك الذي يحمل دمية يتحدّث من خلالها ، بإمكانه أن يقنعك أنّه شخص مختلف تماماً . أعتقد أنّ اتصالها بالروحانيين هو الذي جعله يغيّر رأيه . فهو ببساطة لم يعد قادراً على أن يحمل الأمر على محمل الجد » .

قمع سلتفليت التعليق الذي كاد يقفز إلى شفتيه ، فلم يكن معجباً على الإطلاق بدوغلاس بارلو ، وكان يكره نفاقه ويستفزّه وجوده . أمّا الآن فقد ترسّخ لديه الاقتناع بأنّه رجل أحمق ، لكن جوزي لا تزال على إخلاصها الغريب له . لذا فمن الأفضل أن يحتفظ برأيه لنفسه .

سألت ميرندا : « ماذا كانت تفعل تلك الفتاة الفرنسية عندما تسيطر على جنيفر ؟ » .

ـ « حسب معلوماتي . لا شيء مهمّ ، سوى سماع موسيقى البوب والتهامها لروح النعناع . كانت جنيفر تعرف متى تأتي ميشال من رائحة النعناع . وكانت تسطو على حصالة جنيفر وتشتري بالنقود روح النعناع .

حاولت جنيفر أن تخبىء الحصالة في أماكن لا تخطر على بال أحد ، لكن دون جدوى ، فقد كانت ميشال تعرف دائماً مكانها » .

صاح سلتفليت « يا إلهي ! » .

نظرت إليه ميرندا بدهشة ، وفوجئت جوزي بردّة فعله ـ سلتفيت يحتفظ عادةً بأعصاب هادئة في البيت ـ لكنها اعتبرته نوعاً من الإطراء على روايتها .

فأكملت : « نعم ، الأمر يبدو غريباً حقاً . لو أنّ دوغلاس تعمّق في الموضوع أكثر ممّا فعل لكان لديه الفرصة لتأليف أحد الكتب الأكثر مبيعاً ، لكنه لم يأخذ الأمر بشكلٍ جدّي . . . . » .

لاحظت ميرندا أنّه دخل في تفكير عميق فسألت : « ما الأمر يا عزيزي ؟ » .

ـ « لا شيء ، مجرّد فكرة مفاجئة ، هل تأذنان لي بلحظة ؟» .

صعد إلى غرفة النوم في الطابق العلوي وطلب رقم مورو . وبعد رنّات سمع صوت امرأة : « آلو » .

فعرف ما كان يسعى إلى معرفته . فالصوت صوت دوروثي ـ ثمّ سمع جرس الباب فأقفل الخطّ دون أن يتكلّم .

وجد فيتش في غرفة الجلوس وهو يقول : « لا شكراً ، لن أخلع معطفي فلن أمكث طويلاً ، أرجو ألاّ أكون قد قاطعتكم . . . . » .

قالت ميرندا : « أبداً ، كنا على وشك تناول العشاء ، هل تشاركنا في أكل السلمون المدخن ؟ » .

ـ « أشكرك يا سيدتي على هذه البادرة » .

كان فيتش من النوع الذي يرتبك في حضور النساء .

وعندما خرجت ميرندا وجوزي . قال سلتفليت : « ماذا تحبّ أن تشرب ؟ » .

ـ « لا بأس بجرعة من هذا » .

صبّ سلتفليت بعض الويسكي وقال : « هلاّ جلست » .

ـ « شكراً ، هكذا أفضل ، كان واحداً من تلك الأيام المضنية ، لقد رجعت لتوي من تلبري . ثمّ اتصل بي صديقك بارني رايس في شرطة الأخلاق . آه ، هذا جيد بالفعل » .

ملأ سلتفليت كأسه وعاد إلى كرسيه .

ـ « ماذا حدث ؟ » .

ـ « أشياء كثيرة ، لذلك قرّرت أن أزورك وأطلعك على المعلومات كافة ، إنّه أقلّ ما يمكن أن أعمله بعد كل مساعدتك لي » .

أخرج سلتفليت المغلّف البني من جيب سترته .

ـ « هذا لك » .

بدت الحيرة على وجهه وقال : « ماذا ؟ إلى هنا ! » .

وفتح المغلّف فوجد فيه صورة فوتوغرافية مغلّفة بورقة بيضاء . فبدا الاشمئزاز على وجهه .

تحسّس سلتفليت جيبه الخلفي وأخرج منه الصورة التي انتزعها من ألبوم مورو . وكانت قد تقوّست قليلاً . ووضعها في حجر فيتش .

ـ « حاول مقارنة هذه مع تلك » .

حدّق فيتش إلى الصورتين ثمّ حدّق إلى وجه سلتفليت .

ـ « لا يمكن أن تكونا لرجل واحد » .

ـ « لا ، لم يكن صاحب هذه الصورة ميتاً عندما التقطت له . هل أستطيع أن أراهما ؟ » .

تناول سلتفليت الصورتين . كانت الصورة التي أرسلت في المغلّف مع تحيّات ضابط المستندات صورة مكبّرة لأعضاء تشوروملسكي الجنسيّة وتظهر بشكلٍ واضح أنّ قضيبه جدع جزئياً ، كما ظهر عدد من جروح السكين الصغيرة البشعة التي اخترقت الجلد فوق القضيب وفي أعلى الفخذين ، وقد حُلق شعر العانة كي تظهر الجروح بشكل واضح .

أمّا الصورة التي أُخذت من الألبوم فلا تشبه الصورة الأخرى إلاّ في الظاهر . فالأعضاء الجنسية نتأت من الرباطات الجلدية التي بدت أشبه برباط السرج . أمّا النقاط الحمراء السوداء على القضيب والفخذين ، فقد أدرك سلتفليت أنّها آثار حروق بأعقاب السجائر . وأمّا شعر العانة فكان ملطخاً بالدماء التي سالت من جرح يعلوه مباشرة . كما ظهرت آثار عضّة في الجهة الداخلية من الفخذ الأيمن . وهكذا ، فالصورتان مختلفتان في تفاصيلهما . غير أنّ وضعهما جنباً إلى جنب يوحي بتشابه كبير ، يكمن في جو العنف

والوحشية المتعمّدة الذي يُسيطر عليهما .

أعاد سلتفليت الصورتين إلى فيتش وقال : « أعتقد أنّ أيّ قاضٍ تلجأ إليه سوف يعطيك مذكرة تفتيش إذا أريته الصور » .

ـ « لكنك قلت إنّهما غير مرتبطتين » .

ـ « لست أدري ، يبدو لي أنّ رجلاً واحداً هو الذي صوّرهما » .

ـ « ذلك المدعو طوني سبراغز » .

ـ « صحيح » .

ـ « لقد أخبرني رابس عنه وهو يظنّ أنّ والدة الصبي قد تتقدّم للشهادة ، إن تمكّنا من وضع سبراغز خلف القضبان . يبدو أنّ الصبي قد أصيب بنزيف داخلي وضرر هائل ـ أعني ضرراً عقلياً ـ مما ولّد لدى أمه رغبة شديدة في الانتقام .

ـ « يمكنني فهم ذلك » .

ـ « من أين أتيت بهذه الصورة ؟ » .

ـ « من المعهد الجنسي الذي حدّثتك عنه ، فلدى الطبيب المسؤول مجموعة منها » .

ـ « هل لديك فكرة عمن هو صاحب الصورة ؟ » .

ـ « كلا ، لكن من السهل معرفته ، فثمّة صورة أخرى للرجل يظهر فيها وجهه » .

ـ « ما الذي يحملك على الظنّ بأن سبراغز هو الرجل الذي تبحث عنه ؟ » .

ـ « ما قاله لي مورو عندما كنت أحادثه عن الجريمة . لقد قال لي إنّه يعتقد بوجود شخصين على الأقل في المنطقة يقدران على ارتكاب جريمةٍ كهذه . وأنا متأكد من أنّ الرجل الذي صوّر هذه الصور يعيش في هذه المنطقة ، فقد رأيت صورة أخرى مشابهة لمريض آخر من مرضى مورو . ومن المؤكد أنّ الصورتين قد التقطتا في المكان نفسه » .

ـ « هل أنت متأكد أنّ سبراغز هو الذي أخذ هذه الصورة ؟ » .

ـ « لا ، لست متأكداً ، لكن من السهل أن أعرف ذلك من مورو ، لقد عرض عليّ أن يخبرني باسمه إن كان ذلك مهمّاً ، إلاّ أنّي لم أكن أود أن ألفت انتباهه إلى أنّي مهتمّ بأمر سبراغز » .

رمقه المفتش بنظرة حادّة وقال : « أتظنّ أنّه قد يحذره ؟ » .

ـ « لا أظنّه يقدم على هذا ، بيد أنّ رجال الشرطة والمحلّلين النفسيين يميلون إلى اتخاذ مواقف متعارضة عندما يتعلّق الأمر بالجرائم ، ولا أريد أن أستعديه » .

أخذ فيتش ينظر إلى الصورة وقد بدا عليه الارتباك .

ـ « ما يقلقني هو أنّ تشوروِمنسكي لا يبدو من النوع الذي يسعى وراء اللواطيين . فكلّ ما سمعته عنه يشير إلى أنّه يهوى النساء » .

ـ « كلامك صحيح في الظروف العادية ، لكنّ ظروفه لم تكن عادية على الإطلاق . أعتقد أنّي عرفت كيف أصيب بمرض اليرقان . فقد استخدم مستحضراً يدعى ميثل تستوسترون وهو يحوّل الرجل ـ كما أخبرني اسبيتال ـ إلى مهووس جنسي . أظنّ أنّ تشوروِمنسكي كان يهوى الجنسين فلما لم يحظ بامرأة ـ رفضته مومستان لأنّهما وجدتاه غريب الأطوار ـ قرّر أن يكتفي برجل .

أنت نفسك قلت لي بأنّ الخادم نظر إليك بطريقة غريبة عندما سألته إن كان تشوروِمنسكي لواطياً . . . » .

ـ « لكن لماذا قتل سبراغز تشوروِمنسكي ؟ » .

ـ « حسناً ، ما رأيك مثلاً بهذا السبب : كيف نعرف أنّ تشوروِمنسكي سادي ، فلو كان سبراغز سادياً مثله ، لكانا على طرفي نقيض . . . » .

قهقه فيتش وقال : « تبدو وكأنّها إحدى تلك النكت : « من فعل هذا بمن ؟ » .

وهزّ رأسه وأضاف : « والذي أريد أن أعرفه هو كيف توصّل جاسوس روسي إلى الالتقاء بشخص مثل سبراغز ؟ » .

ـ « هل أنت متأكد من أنّه جاسوس ؟ » .

ـ « ليس ثمّة مجال للشكّ في الأمر ، فالاستخبارات تعرف كل شيء عنه » .

ـ « هل أنت متأكد ؟ » .

ـ « تماماً » . واخفض فيتش صوته وقال : « إنّه سري جداً ، بيد أنّني أظنّ أنّه من الممكن أن أخبرك ، فأنت ، في النهاية ، أول من شكّ في الأمر . اسمه الحقيقي ليس تشوروِمنسكي بل كريلوف ولقد عرفت القسم الأكبر من حكايته من بلايك في القسم الخاصّ » .

ملأ سلتفليت كأس فيتش دون اعتراض الأخير ، فهو يعتقد بأنّه قد استحقّ تلك الكأس وقال :

ـ « يبدو أنّ كريلوف نزل إلى الشاطىء ليتّصل بالعميل في قيادة الاتصالات العامة ـ حيث يخزنون المعلومات ، التي تردهم من أقهار التجسّس الصناعية ، كالمعلومات عن الصواريخ النووية السوفياتية في سيبيريا وغيرها ـ ويبدو أنّ الاستخبارات كانت تعرف منذ بعض الوقت بوجود جاسوس في الاتصالات العامة بواسطة عميلهم المزدوج في موسكو . ويبدو أنّهم يرسلون إلى مركز الاتصالات معلومات خاطئة ، ومن ثمّ يراقبون ما يصل منها إلى الجهة الأخرى . وبلايك يقول إنّ هذه العملية تسمى عملية « اقتفاء الصباغ » . وهكذا اكتشفوا هوية العميل ، وأبقوا الأمر طي الكتمان كي لا يأخذ حذره منهم . إنّهم في القسم الخاص يراقبون منذ عدّة أشهر ويأخذون صوراً لكل من يتصل بهم . وقبل أسبوعين لحق به أحد عناصر القسم الخاص إلى ملهى في تشلتنهام وأخذ يراقبه فرآه يلصق قطعة لبان تحت الطاولة . وبعد عشر دقائق دخل رجل آخر وأخذ قطعة اللبان . وتظهر الصورة أنّ الرجل الآخر هو كريلوف . فلحق به عميل القسم الخاص إلى حديقة عامة حيث جلس كريلوف على أحد المقاعد . ثمّ وضع إحدى الصحف على المقعد . فجاء الجاسوس وأخذ الصحيفة ومضى في طريقه . فقرّر عميل القسم الخاصّ أن يتبع كريلوف . بيد أنّ الأخير تمكّن من الإفلات منه فهو على ما يبدو كان قد انتبه إلى أن هناك من يتبعه » .

كان فيتش يروي القصّة بحماسة وحيوية لم يعهدهما سلتفليت فيه من قبل .

ـ « بلايك متأكد تماماً من وجود المال داخل الصحيفة » .

ـ « ومتى اكتشف القسم الخاص موت كريلوف » .

تنحنح فيتش وقال : « عندما أخبرتهم بذلك » .

يا لهذه القضية كم أكسبته من تقدير لنفسه .

ـ « آه لو رأيت وجه بلايك عندما أريته صورة جثّة تشوروِمنسكي . على أيّ حال ، كانت المشكلة التالية تتمثّل في محاولة البحث عمّا أعطاه العميل لتشوروِمنسكي من ميكروفيلم أو غيره . وهذا ما كنّا نحاول أن نقوم به طوال هذا اليوم . فعدت إلى السفينة مع أربعة رجال من القسم الخاصّ ، يتنكّرون

بزي موظفي الجمارك في مرفأ لندن . ادّعينا أنّه لدينا ما يثبت أنّ تشوروومنسكي اشترى هيروين ، وأنّه على الأرجح قد خبّأه في السفينة . وهم لا يزالون يفتشون حتى الآن . ومن بينهم رجل يدعى براين ماركس . يُقال إنّه يقتفي الأثر كالكلب السلوقي ، فإن كان من الممكن أن يجد أحد الميكروفيلم ، فإنّ ماركس هذا سوف يجده » .

قال سلتفليت : « هذا عمل جيد ، ولا بدّ أنّ سكوتي مسرور منك » .

ـ « آه ، حتى إذا افترضنا أنّ ذلك صحيح فلن يعترف به » .

إلاّ أنّ ابتسامته أكّدت لسلتفليت أنّه إنّما يعبّر عن الرأي الذي يدور في داخله .

ـ « ماذا ستفعل بالنسبة إلى سبراغز ؟ » .

ـ « فكّرت في أن أسترشد برأيك في هذه المسألة » .

ـ « أقترح أن تحصل على مذكرة تفتيش بأسرع وقت ممكن ، استخدم الصورتين فهما كفيلتان بذلك ، عليك أن تداهم منزله في الصباح الباكر ، بمجرّد أن يذهب إلى عمله ، إنّه موظف حكومي ، وبالتالي فعليه أن يكون في مكتبه في تمام التاسعة . أنا متأكد أنّك سوف تجد ذلك المقعد الجلدي الغريب ، إلاّ أنّ ما تبحث عنه بالفعل هو الصور . هل ذكر رايس اسم الفتى الأسود ؟ » .

ـ « جاكي جيبسون » .

ـ « أظنّ أنّه أخذ صوراً لجيبسون ، فإذا استطعت أن تجدها فقد تمكّنت منه ، ولسوف تتمكّن على الأرجح من جعل الصبي يدلي بشهادته » .

ـ « وماذا عن تشوروومنسكي ؟ » .

ـ « نصيحتي لك أن تترك هذا الأمر إلى وقت لاحق ، إذا أحكمت الخناق عليه ، فسيعترف بما يعرفه عن تشوروومنسكي . هذا إذا افترضنا أنّه يعرف شيئاً » .

ـ « هل تعتقد أنّه الفاعل ؟ » .

صمت سلتفليت قليلاً قبل أن يجيب . وقد بدا أنّ فيتش يعتقد بأنّه معصوم عن الخطأ ، وهذا بالطبع لن يكون مفيداً لأيّ منهما .

ثمّ قال : « أنا في الحقيقة لا أدري ، لا أظنّ أنّ ثمّة احتمالاً بنسبة ٥٠ ٪ في أن يكون هو القاتل ، لكن حتى لو لم يكن فإنّك ستنال الثناء والتقدير

لقيامك بعمل تحرٍّ جيد . فهذا دليل مهمّ لا بدّ من متابعته » .

ـ « صحيح » . ونظر إليه فيتش نظرة جانبية طويلة .

ثم قال : « ألا زلت مصراً على موقفك الرافض اطلاع سكوتي ، أنك من أوحى لي بهذه الفكرة ؟ » .

ـ « يا إلهي ، بالطبع لا ، أظنّ أنّنا قد اتفقنا على ذلك » .

ـ « طبعاً اتفقنا ، إلاّ أنّه لا يبدو منصفاً . . . » .

قال سلتفليت بحزم : « إنس الأمر ، لقد سررت بمساعدتك » .

ـ « حسناً ، أنت تعرف أنّني جدّ ممتن لك ، وأنا مستعد لخدمتك في أي وقت . . . » .

ـ « شكراً ، أعرف ذلك » . ثمّ خطرت له فكرة : « في الحقيقة هناك أمر ما ، أنت تعرف أنّي تلقيت الكثير من المساعدة من امرأة تدعى ألفي لفكوفيتش ، وزوج هذه المرأة يدعى جو لفكوفيتش ـ ويعرف أيضاً باسم جو الأمريكي الجنوبي ـ وجو هذا هو الذي أخبرني عن سبراغز ، ولقد علمت أنّه يعاني من مشكلة صغيرة تتعلّق بحيازة أسلحة . وهم يفرضون عليه أن يحضر مرتين يومياً إلى مخفر نوتنغ هيل . فإن تحدّثت عن دوره أمام راي كوتس أو بيل واتس . . . قل إنّك عرفت منه أمر سبراغز » .

ـ « هل يفترض أنّي عقدت اتفاقاً معه ؟ » .

ـ « لا شيء من هذا ، لكن إذا أراد سكوتي أن يعرف كيف وصلت إلى سبراغز ، قل لهم إنّ جو هو الذي حدّثك عنه ، وشدّد على مدى تعاونه معك . . . » .

ـ « حسناً ، بكل سرور » .

ـ « شكراً جورج ، أتريد مزيداً من الويسكي ؟ » .

نظر فيتش إلى ساعته وقال : « لا شكراً ، أعتقد أنّه يجب أن أذهب وأرى ماذا يمكنني فعله بالنسبة إلى مذكرة التفتيش » . ثمّ تنهّد وأضاف : « كان يوماً طويلاً . . . » .

ـ « بالمناسبة ، سأخبرك بشيء آخر يجدر البحث عنه في شقة سبراغز ، السكين التي قتلت تشوروومنسكي وهي على الأرجح سكين كباس من النوع الذي يُستخدم في إفراغ أحشاء السمك » .

ـ « حسناً » .

- «هل تقدر أن تعيد لي الصورة بعد حصولك على مذكرة التفتيش أودّ أن أعيدها إلى اليوم مورو».

- «سأفعل ذلك».

على الباب تنحنح فيتش كأنّه يهمّ بقول شيء، ثمّ مدّ يده وشدّ على يد سلتقليت بقوة:

- «شكراً جريج».

- «سررت بلقائك».

كان سلتقليت يشعر بالسرور فعلاً، فهو قد اكتسب صديقاً جديداً».

***

في المطبخ وجد ميرندا وجوزي ترتديان مئزرين، كانت جوزي تشرّح ثمار الأفوكا لتحضير السلطة.

قالت ميرندا: «كنت أتساءل، هل أدعو السيّد فيتش إلى العشاء».

- «لا، كان مضطراً للذهاب إلى البيت، لديّ شعور بأنّه من النوع الذي تسيطر عليه زوجته...».

تناول قطعة من الكرفس وهو يقول: «رغم أنّي لن أستغرب إذا لم يسكت لها اليوم».

بعد نصف ساعة، كانوا يهمّون بتناول الطبق الرئيسي عندما رنّ جرس الهاتف فقال سلتقليت:

- «دعيه يرنّ».

وقفت ميرندا وقالت: «لا، فقد يكون جيرار متصلاً من ناسو».

- صبّ لجوزي جرعة أخرى من النبيذ الفرنسي الأحمر وقال: «أتمنى ألا يكون لي، فأنا أتوق إلى تمضية أمسية هادئة».

عادت ميرندا وقالت: «د. مورو يريد أن يتحدّث إليك، ولقد تراءى لي أنّك ترغب في التحدّث إليه».

وأضافت بينما هو يهمّ بالوقوف: «هل أضع الطعام في الفرن؟».

- «لن يستغرق الأمر أكثر من لحظات».

جلس على الكنبة وتناول السماعة وقال: «سلتقليت يتكلّم».

فقال مورو: «آسف لإزعاجك في مثل هذا الوقت، غير أنّي أعتقد أنّه من الأفضل أن أخبرك: يقول فرانكي إنّه هو الذي قتل السائح البولوني».

***

10

عندما وصل إلى زاوية شارع لادبروك تراس غادرنز كان مورو بانتظاره في الجهة الأخرى . كان يضع يديه في جيبي معطفه والكآبة بادية عليه .

قال سلتفليت : « أين فرانكي ؟ » .

- « إنّه في غرفته » .
- « هل أنت متأكد أنّه لن . . . يختفي ؟ » .
- « لن يختفي » . وأضاف مورو بحزن : « ليس لديه مكان يلجأ إليه » .
- « ماذا حدث ؟ » .
- « جاء إليّ في غرفة الجلوس وقال إنّه يودّ التحدّث إليّ . ثمّ قال :
- « من الأفضل أن أخبرك . . . أنا قتلت الرجل » .
- « هل يعرف أنّك طلبتني ؟ » .
- « أجل ، وقال إنّه يريد أن يتحدّث إليك » .

عندما وصلا إلى باب المعهد ، استوقف سلتفليت مورو قائلاً :

- « أخبرني شيئاً ، قبل أن ندخل ، هل تحدّث مؤخراً إلى دوروثي ؟ » .
- « لا أعرف ، لماذا ؟ لا تأثير لدوروثي فيه » .

ابتسم سلتفليت ساخراً إلاّ أنّه لم يقل شيئاً .

ثمّ سأله مورو : « أين تودّ أن تراه ؟ » .

- « أظنّ أنّ مكتبك هو المكان المفضّل » .

لاحظ سلتفليت أنّ الكرامي والستائر قد نقلت من الغرفة ، وكان ضوء المصباح المثبت فوق المكتب هو الضوء الوحيد فيها . جلس سلتفليت على

الكرسي المريح بجانب المكتب وأخرج دفتره . كان يشعر بالثقل والاسترخاء بعد العشاء . لقد رفضت ميرندا السماح له بالذهاب قبل أن يكمل طبق السلمون المدخن .

دخل فرانكي ، يتبعه مورو ، وبدا عصبياً وغير واثق من نفسه ، كأنه تلميذ استدعاه مدير المدرسة ، وكان لا يزال منتعلاً خفّه الأبيض .

قال سلتفليت : « مرحباً فرانكي ، اجلس » .

تجاهله فرانكي مركزاً نظره على السجادة . وضع مورو يده على كتف فرانكي وضغط برفق ، ثمّ مشى وجلس خلف المكتب .

قال سلتفليت : « والآن يا فرانكي ، تقول إنّك قتلت البحّار البولوني » .

حاول فرانكي أن يقول شيئاً ، إلاّ أنّه اضطر إلى التنحنح ثمّ قال بصوت مختنق :

- « أجل » .
- « لماذا ؟ » .
- « لأنّه . . . كان يحاول قتل روزي » .
- « يحاول قتلها ؟ » .
- « كان يهدّدها بسكينه التي وجّهها إلى عنقها » .
- « وهي ماذا كانت تفعل ؟ » .
- « كانت راكعة أمامه » .
- « وأنت ماذا فعلت ؟ » .

حاول فرانكي أن يسيطر على العصبية الظاهرة في صوته :

- « انتزعت السكّين وطعنته بها » .
- « أين ؟ » .

وعندما لم يردّ فرانكي ، قال سلتفليت : « أين طعنته ؟ » .

- « لا أذكر » .

فقال سلتفليت بصبر : « آه ، دعك من هذا ، يجب أن تتذكّر ، انظر ، أرني كيف طعنته بهذه السكين » .

وأمسك سلتفليت بقطّاعةِ ورق خشبية ، كانت موجودة على المكتب أعطاها لفرانكي :

ـ « أنا البحّار البولوني وقد وجّهت السكين إلى عنق روزي ، أرني ماذا فعلت بالضبط » .

عضّ فرانكي على شفته ، كأنّه يحاول أن يحلّل السؤال لكي لا يقع في فخ منصوب له ، ثمّ لوى يد سلتفليت منتزعاً السكين منه بشكل مرتبك . ووجهها إلى وسط صدره .

فقال سلتفليت : « هنا ؟ » .

ـ « أجل » .

ـ « هنا القفص الصدري ، لو ضربته هنا لالتوت السكين ولما نفذت إلى الداخل » .

ـ « كانت أعلى قليلاً . . . » .

ـ « في الحنجرة ؟ » .

ـ « أجل » .

ـ « هل صرخ ؟ » .

ـ « آ . . . . نعم قليلاً » .

ـ « هل تلطّخت ثيابك بالدم ؟ » .

ـ « لا » .

هزّ سلتفليت رأسه بارتياب ونظر إلى مورو : « حسناً فرانكي ، بإمكانك أن تذهب » .

أخذ فرانكي يحدّق بذهول : « ألن تلقي القبض عليّ ؟ » .

ـ « لا » وأخرج سلتفليت علبة سيجار « مانيكين » من جيبه .

ـ « لماذا ؟ » .

ـ « لأنك لم تقتله ، فهو لم يطعن في حنجرته ولم يصرخ . كما أنّ ثيابك لم تتلطّخ بالدم . كل هذا مستحيل » . وأشعل سيجارا وأضاف :

ـ « أتودّ أن تخبرني بالحقيقة ؟ » .

قال فرانكي بعناد : « هذه هي الحقيقة » .

ـ « بإمكانك أن تذهب » .

ـ « إذا قلت إنّي أنا القاتل ، فلماذا لا تصدّقني ؟ » .

كان يحاول أن يبدو غاضباً .

ـ « ألا تريدون أن تقبضوا على شخص ما ، إذاً أقبضوا عليّ ، أنا القاتل » .

التفت سلتفليت إلى مورو قائلاً : « هناك من دفعه إلى هذا » .

وأخذ كلاهما يتأملان فرانكي .

وقال فرانكي فجأة : « أقدر أن أبرهن على أنّني القاتل » .

ـ « كيف ؟ » .

وقف فرانكي ومضى إلى خلف المكتب وقال لمورو : « بالاذن » .

ثمّ انحنى وفتح الدرج السفلي وأخرج منه رزمة مفاتيح . فتبعه مورو وسلتفليت وهو يتجه إلى الخزانة التي تحتوي على صورة الرجل ذي الشوارب القيصرية . وأخذا يراقبانه وهو يفتح القفل ويرفع الزجاج ويمدّ يده إلى مجموعة السكاكين الموضوعة بين أدوات السطو ولفة الشريط الصدىء ، ويخرج إحداها ويذهب بها إلى سلتفليت .

ـ « هذا ما قتله » .

كان للسكّين مقبض خشبي بطول النصل ، فأخرج سلتفليت منديله وطلب من فرانكي أن يضع السكين فيه . ونظر إليه مورو متسائلاً بينما أمسك سلتفليت بالمقبض وضغط على الكبّاس المعدني الأصفر وهو يضغط على النصل بحافة الخزانة ، فانزلق النصل داخل المقبض ، ثمّ ضغط سلتفليت بإصبعه على الكبّاس فعاد النصل إلى مكانه وبدت عليه آثار دم جاف ممزوج بوحل متيبس .

فقال سلتفليت : « أجل ، لعلّ هذه هي السكّين ، سكين لتنظيف السمك » .

وفجأة بدأ مورو يضحك : « مدهش ، لقد كانت على مرمى أبصارنا طوال هذا الوقت ، إنّها حركة ذكية يا فرانكي » .

بدت إمارات الرضا على وجه فرانكي .

قال سلتفليت : « تعال واجلس يا فرانكي » .

ولفّ السكّين بعناية بالمنديل ووضعها في درج المكتب .

ـ « إذاً لحقت بروزي عندما خرجت يوم السبت . لماذا ؟ » .

أجاب فرانكي على الفور : « لأنّها كانت دائماً تقع في مشاكل » .

ازدادت ثقته بنفسه .

ـ « لحقت بها إلى البار ورأيتها تذهب مع البحّار » .

فأومأ فرانكي برأسه .

ـ « ماذا فعلا بعد ذلك ؟ » .

ـ « ذهبا إلى فندق ، لكنهما لم يدخلا » .

ـ « أين يقع الفندق ؟ » .

ـ « خلف نوتنغ هيل غاسين ، لا أعرف اسمه لكن بإمكاني أن أدلّكم عليه » .

ـ « وبعد ذلك ؟ » .

ـ « ذهبا إلى المقهى الليلي في شارع بايز واتر حيث تناولا العشاء » .

ـ « هل دخلت إلى المقهى ؟ » .

ـ « كلا ، لم أكن أريدهما أن يشاهداني » .

ـ « فتتبعتهما عندما خرجا ، إلى أين ذهبا ؟ » .

ـ « عادا إلى هنا » .

فقال مورو : « إلى هنا ! » .

بدا عدم الارتياح على فرانكي إذ كان يشعر أنّه قد يوقع روزي في مشكلة .

قال سلتفليت : « كانت تأمل في أن تقضي الليل مع البحّار في غرفتها » .

فأومأ فرانكي برأسه موافقاً .

ـ « ولماذا لم تفعل ؟ » .

ـ « كانت غرفة هاربيت لا تزال مضاءة » .

ـ « ماذا فعلا ؟ » .

ـ « عبرا الشارع إلى الحدائق » .

ـ « وأنت راقبتهما وهما يدخلان عبر تلك الفتحة في السور » .

ـ « أجل » .

ـ « وماذا كانا يفعلان ؟ » .

ـ « لم أستطع أن أرى بوضوح ، فالظلام كان شديداً » .

ـ « قلت إنّه كان يضع السكين على عنقها ، هل استطعت رؤية ذلك ؟ » .

بدا الانزعاج على فرانكي ، وكأنّه تلميذ مدرسة اكتُشفت كذبته : « أجل » .

ـ « حسناً ، إذاً دخلت وانتزعت السكّين منه وطعنته » .

فأومأ فرانكي متحاشياً عينيه .

حمل سلتفليت قطّاعة الورق وقال : « سوف أعطيك فرصة أخيرة ، أرني كيف طعنته ؟ » .

اكتفى فرانكي بالنظر إلى السكّين دون أن يحاول أخذها منه .

فقال سلتفليت : « أنت لا تعرف أين طُعِن ؟ أليس كذلك ؟ » .

لم يقل فرانكي شيئاً . فوضع سلتفليت القطّاعة على المكتب ، ثمّ وضع يده برفق على كتف فرانكي .

ـ « لا فائدة يا فرانكي ، فأنا أعرف أنّك لست القاتل ، أنت تحاول أن تحمي روزي ، لقد عدت فقط من أجل السكّين » .

لم يقل فرانكي شيئاً . إنّما اكتفى بالجلوس واضعاً يديه بين ركبتيه . بينما جلس سلتفليت على حافة المكتب ، منحنياً إلى الأمام كي يتمكّن من رؤية وجه فرانكي .

ـ « اسمع يا فرانكي ، إنّ هذا غير منطقي ، لنفترض أنّك أقنعتني بأنّك القاتل ، فسوف تقضي في السجن فترة طويلة ، أعرف أنّك ستواجه تهمة القتل غير المتعمّد ، إلاّ أنّ ذلك أيضاً يعني السجن لفترة طويلة ، أمّا إذا جابهت روزي التهمة نفسها ، فليس ثمّة ما يمكن أن يفعلوه بها . في أسوأ الأحوال يحجرون عليها في مصحّ للمجرمين غير الأصحّاء عقلياً . وستخرج

على الأرجح بعد سنتين » .

كان فرانكي يحدّق إليه بذهول :

ـ « دوروثي لم تقل لك أن تفعل هذا ، أليس كذلك ؟ » .

وملتفتاً إلى مورو : « قل له أن يعود إلى غرفته » .

قال مورو : « هل هذا صحيح ؟ » .

هزّ فرانكي رأسه وبدا أنّه على وشك البكاء .

ـ « إنّك إذاً أسوأ ممّا كنت أظنّ . افعل كما قال لك . اذهب إلى غرفتك وسنحاول أن نحلّ هذه الورطة » .

ومشى فرانكي إلى الباب .

قال سلتفليت : « فرانكي » .

توقّف فرانكي دون أن يستدير .

قال سلتفليت : « لا تقل شيئاً لدوروثي ، فلا نريدها أن تتسبّب بمزيد من الضرر . لقد أحدثت ما فيه الكفاية » .

عندما ذهب فرانكي عاد مورو إلى مكانه وكان يبدو عليه التعب ، غير أنّه لم يعد كئيباً . مضت فترة جلسا خلالها بصمت . ثمّ قدّم سلتفليت سيجاراً إلى مورو الذي هزّ رأسه وقال بلهجة لا تنمّ عن التساؤل :

ـ « إذاً هي روزي » .

ـ « لا ، إنّها دوروثي » .

لم يندهش مورو بل اكتفى بالقول بهدوء : « ما الذي يجعلك تعتقد ذلك ؟ » .

هزّ سلتفليت كتفيه : « كما قلت أنت في لقائنا الأول إنّ روزي غير قادرة على العنف » .

فقال مورو : « لكن دوروثي هي الأكثر توازناً وتعقّلاً بين الثلاث » .

ردّ سلتفليت : « دوروثي هي القاتلة » .

ـ « لكن لماذا ؟ ما الذي يجعلك تعتقد ذلك ؟ » .

وقف سلتفليت ومشى نحو المدفأة « بسبب هاتين الدميتين الصينيتين » ، وأنزلهما من على الرفّ : « أتذكر أنّك قلت لي إنّ إحداهما فوق ، هنا ، والأخرى تحت ، هنا ، وإنّ الشخصية الثانية تعرف كل شيء عن الأولى إلّا أنّ الأولى لا تعرف عن الثانية » .

ـ « لقد قلت إنّ ذلك لا يحدث دائماً » .

ـ « لكن ليس في هذه الحالة ، لقد ذكّرتني إحداهن هذا المساء بما قلته لي . أخبرتني عن حالة تخبىء فيها إحدى الشخصيات حصالة نقودها ، لكن بلا جدوى ففي كل مرّة كانت الشخصية الأخرى تعرف أين تبحث عنها بالضبط . وهذا ذكّرني بشيء آخر ، هذه الجروح على كتفي روزي هي من فعل البحّار ، فلنفترض أنّك على حقّ وأنّ دوروثي لا تعرف ما تقوم به روزي أو العكس بالعكس ، أما كان من المفروض أن تعرف دوروثي عندما استيقظت في اليوم التالي ووجدت الجروح على كتفيها ، إنّ شيئاً ما قد حدث . لقد بذلت ما في وسعها لإقناعنا بأنّها لا تعرف شيئاً على الاطلاق . حتى أنّها أجابت عن سؤالي بخصوص البحّار البولوني بالقول إنّني أمزح . لا ، كانت دوروثي تعرف ، كانت تعرف لأنّها هي التي قتلته » .

ـ « أجد أنّه من الصعب جداً تصديق هذا » .

ـ « إذاً ما الذي تصدّقه ؟ » .

تنهّد مورو وهزّ رأسه « لا أدري ماذا أصدق ؟ روزي هي التي تعاني من مشاكل عقلية . أظنّ أنّه في بعض الظروف من الممكن أن . . . ألا يمكن أن يكون الأمر مجرّد حادثة ؟ » .

ـ « لا ، لقد طعن في القلب ، ولقد تمّ الأمر بسرعة هائلة حتى أنّه لم يتمكن من الصراخ » .

قال مورو : « صدّقني أنا لا أحاول أن أدافع عن دوروثي ، فليس ثمّة فرق بالنسبة إليّ كطبيب ، إنْ كان الرجل قد قتلته هذه الشخصية أو تلك ، لكن إن كانت إحداهما هي التي قتلته فأعتقد أنّها يجب أن تكون روزي . فنحن نعرف أنّها هي التي ذهبت مع البحار . . . » .

ـ « وماذا لو كانت دوروثي قد ظهرت مجدداً بينما كانت روزي تتعرّض للضرب ؟ » .

فكّر مورو مليّاً ثمّ قال : « في هذه الحالة أعتقد أنّ دوروثي ستصرخ . هذا هو رد الفعل الطبيعي لامرأة تستيقظ لتجد السكين على عنقها » .

ـ « لا ، ليس الأمر كذلك إذا كان تصوّري صحيحاً ، وكانت دوروثي تراقب كل ما حدث ، أظنّ أنّ دوروثي كانت تعرف كل ما فعلته روزي في تلك الأمسية ، كانت موجودة عندما ذهبت روزي مع البحّار وكانت موجودة عندما دخلا إلى الحديقة ، وما لم تكن تتوقّعه هو العنف ـ أنْ تُمسك من عُنقها وتُضرب ـ أعتقد أنّها قرّرت في تلك اللحظة أن تتدخل ، قبل أن ينتهي الأمر بروزي إلى الموت » .

قال مورو : « إذاً ، لا يمكن إطلاق صفة جريمة القتل على ما حدث » .

هزّ سلتفليت كتفيه وقال : « أنا موافق » .

لاحظ سلتفليت علامات الارتياح على وجه مورو ، وكان يعرف ما هو سؤال مورو التالي :

ـ « ماذا تنوي أن تفعل ؟ » .

قال سلتفليت : « أتسمح لي بإجراء اختبار ؟ » .

بدا القلق على وجه مورو : « ما هو ؟ » .

ـ « أريد أن أسأل دوروثي عن هذا الأمر بنفسي ، وأريدك أن تعدني بالاّ تتدخل » .

ـ « سأنتظر في غرفة أخرى إن كنت تفضّل ذلك » .

ـ « لا ، أريدك أن تكون حاضراً ، لكن أريد أن تعدني بالاّ تتدخل ولا حتى أن تتكلّم . مهما حدث » .

ردّ مورو بعد قليل من الصمت : « حسناً » .

ـ « هل تأتي بها إلى هنا ؟ » .

ـ « من الأفضل أن نذهب إلى غرفتها » .

ـ « إنْ لم يكن لديك مانع ، أفضل أن تأتي هي إلى هنا » .

هزّ مورو كتفيه وخرج ليعود وحده بعد خمس دقائق .

ـ « كانت نائمة ، ستأتي بعد قليل » .

انتظرا عشر دقائق أخرى ، وكل منهما مستغرق في تفكيره الخاص ، وكان

مورو على وشك أن ينزل إلى الطابق السفلي ليبحث عنها عندما دخلت إلى الغرفة ترتدي « روباً » أزرق وخفّين مبطّنين بالفراء . أشار مورو إلى الكرسي المقابل وقال :

ـ « إجلسي يا عزيزتي » .

فجلست بهدوء وثبات وشدّت روبها إلى ركبتيها . لاحظ سلتفليت أنّها تبدو شاحبة ومرهقة . ثمّ دنا منها ، حتى كادت ركبتاه أن تلامسا ركبتيها . نظرت إليه بهدوء ولامبالاة .

فسألها : « لماذا احتجتِ إلى كل هذا الوقت قبل أن تدخلي ؟ » .

ـ « هذا ليس من شأنك » .

لم تكن لهجتها حادّة ، وكان في وسع سلتفليت أن يرى أنّها مصمّمة على السيطرة على جميع ردّات فعلها . فحدّق إلى عينيها محاولاً كسر نظرتها .

ـ « كل ما تقومين به الآن هو من شأني ، فأنا أعرف بالضبط ماذا حدث .

وأنت ستقولين لي الحقيقة لأنّك تعرفين أنّ روزي ستخبرني بها إن لم تفعلي . وهذا ما يدفعكِ إلى منعها من الظهور . أليس كذلك ؟ لكنكِ لن تستطيعي أن تسجنيها إلى ما لا نهاية . روزي تودّ أن تخرج وقد بدأ التعب ينال منكِ منذ الآن . فكيف بعد ثماني وأربعين ساعة من التحقيق المتواصل في مركز الشرطة ؟ » .

اضطربت نظرتها ، فأدرك سلتفليت أنّه قد أصاب الهدف وقال :

ـ « قلتِ لفرانكي إنّكِ لو سمحتِ لروزي بالخروج فلسوف تخبرني بالحقيقة . وهذا ما دفع فرانكي إلى الاعتراف بارتكابه للجريمة بناء على طلبك ، أليس كذلك ؟ » .

نظرت إليه بتحدّ وقالت : « هذا ليس صحيحاً » .

ـ « لكنكِ كنت تريدين منه أن يتحمّل تبعات الجريمة » .

فتح الدرج وأخرج السكين الملفوف بمنديله ثمّ فتح المنديل كي تتمكن من رؤية السكين . وقال :

ـ « أراهنكِ أننا لن نجد بصمات أصابعكِ على هذه السكّين فقد مسحتها

جيداً قبل أن تقولي لفرانكي أن يضعها في الخزانة . أراهن أنّنا لن نجد عليها سوى بصمات فرانكي » .

ومرّة أخرى لم تستطع أن تنظر في عينيه . فهي لا تعرف ما قاله فرانكي له ، ممّا أضعف ثقتها بنفسها . وواصل سلتفليت ضغطه مستفيداً من نقطة الضعف هذه .

ـ « كل ما قلته لي كان كذباً . والآن أريد الحقيقة » .

نظرت في عينيه وقالت : « لا أعرف ماذا تعني » .

فمال سلتفليت إلى الأمام : « هناك من رآكِ تمشين إلى البيت في صباح الأحد وثيابك ملطّخة بالدم » .

ولاحظ نظرة الاحتقار العابثة في عينيها .

قالت : « لا أصدّقك » .

نظر إليها بتحدٍّ ثمّ قال :

ـ « لماذا لا تصدّقيني يا دوروثي ؟ » .

فقابلت نظرته بنظرة مماثلة رافضة الجواب على سؤاله . فأكمل حديثه قائلاً : « أنا أخبركِ لماذا . لأنّكِ عندما رجعتِ صباح الأحد ، كنتِ تراقبين الشارع طوال الوقت ، ولأنّكِ تحاشيتِ المرور قرب المصابيح . ولهذا أنتِ متأكدة من أنّ أحداً لم يركِ » .

ثمّ وقف فجأة وقبض على ياقة « روبها » وقال : « لماذا زررت كل أزرار الروب ؟ الطقس ليس بارداً » .

ثمّ شدّ « الروب » فحاولت أن تثبته في مكانه ، فانقطع خيط الزر . احمرّ وجهها من الغضب وقالت :

ـ « كيف تجرؤ ؟ » .

جذب سلتفليت « الروب » نحوه كاشفاً عن كتفيها وظهرت آثار الجروح ، فحاولت منعه لكنه أمسك بمعصمها وضغط بقوة قائلاً :

ـ « ما هذه ؟ أهي عضّة ؟ » .

قالت وقد تملّكها الغضب : « دعني » .

وحاولت أن تغرز أظافرها في يده فأمسك بمعصمها الآخر وأجبرها على الجلوس على الكرسي . فقالت :

ـ « إنّك تؤلمني ، د . مورو قل له أن يتركني » .

كان مورو يهمّ بالنهوض عندما التقت عيناه بعينيّ سلتفليت ، فجلس مجدّداً وأراد أن يتكلّم ثمّ غيّر رأيه .

اقترب سلتفليت منها وأدنى وجهه من وجهها مدركاً لما يسبّبه ذلك من نفور واشمئزاز وقال : « أريد الحقيقة » .

أرخى قبضة يده عن معصمها متعمداً ، فتمكنت دوروثي من تحرير يدها وحاولت توجيه ضربة إليه . مال سلتفليت بسرعة محاولاً تفادي الهجوم لكنه أصيب في صدغه . عندها قام وبحركة واحدة أمسك معصمها من جديد ووضع معصميها في يده اليسرى ثمّ صفعها على وجهها صفعة قويّة ، فهبّ مورو واقفاً وقال :

ـ « أرجوك دعها » .

ـ « حسناً » .

تركها سلتفليت وهو يعرف سلفاً ماذا سيحدث . شنّت عليه هجوماً صاعقاً وكادت أن تقلب الكرسي ، ثمّ أنشبت أظافرها في وجهه ، وحاولت أن تصل إلى عينيه وقالت وهي تصكّ على أسنانها :

ـ « أيّها الوغد سوف أقتلك جزاء ما فعلت » .

أدهشته قوتها ، إذ لم يستطع أن يثبتها دون مساعدة مورو . وظلّت تصرخ وتركل وتحاول أن تخدشه بأظافرها ، وقد ابيضّ وجهها من الحقد والرغبة في الانتقام . وحتى عندما قبض سلتفليت على معصميها لم تتوقّف عن الركل ومحاولة التملّص .

قال مورو : « أرجوك دعها » .

وبدا أنّ هذا قد هدأ روعها فأضاف : « اهدئي يا دوروثي لن أدعه يسألكِ المزيد من الأسئلة » .

ثمّ انهارت فجأة . وعندما أخلى سلتفليت سبيلها تركت يديها تنزلان على جانبيها . وقادها مورو برفق إلى الكنبة .

وقال لسلتفليت : « هل لك أن تتركنا لحظة ؟ » .

هزّ سلتفليت رأسه وخرج ، لكنّه لم يغلق الباب كليّاً . وسمع دوروثي تقول :

ـ « لا أفهم ما يعنيه . فأنا لم أكن موجودة ! » .

فقال مورو مهدئاً روعها : « بالطبع لم تكوني ، إنّه لا يفهم الأمر ، استلقي ، يبدو عليك التعب » .

ـ « ما يقوله ليس صحيحاً » .

وكان النعاس قد غلب عليها .

ـ « لا ، لا تقلقي ، فكلّ شيء على ما يرام ، ارتاحي وأغمضي عينيك ، حسناً ، استرخي ونامي ، نامي عميقاً ، عميقاً . . . » .

شعر سلتفليت بشيء يسيل على ذقنه فانتبه إلى أنّ خده مخدوش والدم يسيل من الجرح . وشعر بالألم عندما لمس الجرح .

كان مورو قد رفع يدها وتركها تقع . ثمّ أصلح من وضع « روبها » وجاء بأحد خفّيها وكان قد وقع على الأرض وأعاد وضعه في قدمها . ثمّ تطلّع نحو سلتفليت وهو يدخل ويقف إلى جانبه .

ـ « إنّك تنزف » .

أخرج سلتفليت منديلاً من جيبه وضعه على الجرح . وقال :

ـ « حسناً ، هل تصدّقني الآن ؟ » .

فنظر مورو إلى الفتاة النائمة وقال : « أجل ، أصدّقك » .

ـ « هكذا مات البحّار البولوني ـ أيها الوغد سأقتلك ـ وكانت ستقضي عليّ لو كانت السكين في يدها » .

ـ « هل كنت تعرف ماذا سيحدث عندما صفعتها ؟ » .

ـ « كان لدي فكرة واضحة » .

ـ « لكن ، لماذا كنت متأكداً إلى هذا الحدّ من أنّها هي القاتلة ؟ » .

ـ « لا ريب في أنّ ثيابها قد تلطّخت بالدم وأرجح أنّها أحرقتها في المدفأة كما فعلت بحذاء فرانكي » .

قال مورو بحزن : « إذاً كنت متأكداً طوال الوقت أنّ دوروثي هي القاتلة » .

ـ « لا ، ففي البداية كنت أظنّ أنّ فرانكي هو القاتل ، ومن ثمّ فكّرت بمتهم آخر ـ رجل يُدعى سبراغز ـ » .

وأدرك سلتفليت من التعبير على وجه مورو أنه يعرف الرجل .

ـ « إنّه الرجل الذي أخذ الصور ، أليس كذلك ؟ » .

فقال مورو دون مراوغة : « أجل » .

ـ « ألا تعتقد أنّه يجب أن يودع في السجن » .

قال مورو بهدوء : « أنا طبيب ولست شرطياً » .

ـ « وأنا شرطي ولست طبيباً » .

كان السيجار الذي يدخّنه قد وقع على الأرض فأشعل سيجاراً آخر .

ـ « إلا أنّ هناك ما أودّ أن أسألك عنه بوصفك طبيباً ، قلت إنّ روزي كانت « تلتقط » الرجال بشكل منتظم » .

ـ « نعم » .

ـ « منذ متى بدأت هذا ؟ » .

ـ « بعد انهيارها العصبي الأخير . . . منذ سنتين تقريباً » .

ـ « خطرت لي فكرة مثيرة عندما كنا نتحدّث عن دوروثي . إذا كانت دوروثي تعرف كل ما تفعله روزي ، فهي موجودة بالضرورة عندما كانت تلتقط روزي هؤلاء الرجال . فبوسعنا القول إنّ دوروثي « بصّاصة » من النوع الذي يستمتع باستراق النظر » .

هزّ مورو رأسه باهتمام : « هذا صحيح » .

ـ « تبدو لي دوروثي باردة جنسياً ، من النوع الذي لا يمكن أن يسلّم نفسه لرجل . هل يمكن أن تكون فتاة كهذه مهتمة بالجنس ؟ » .

قال مورو : « بالطبع ، ولعلّها تهتمّ به أكثر من غيرها » .

ـ « إذاً فقد تستمتع « بالبصبصة » كلما ذهبت روزي مع رجل وسمحت له بنزع ملابسها » .

ـ « هذا ممكن ، نعم » .

- « وهل من الممكن أيضاً أن تحمل دوروثي روزي على التفكير بعرض نفسها على الغرباء ، مّما يدفعها إلى التفكير بضرورة معاقبة نفسها » .

تأمّل مورو وجه الفتاة النائمة .

- « لعلّك على حقّ ، لكنّ دوروثي هي الوحيدة التي تستطيع أن تقول لنا » .

- « أو روزي ، ألم يحن الوقت كي نحاول أن نتحدّث إلى روزي » .

هزّ مورو رأسه نافياً : « في الصباح . . . . » .

- « لا ، الآن ، بينما دوروثي منهكة ، قد تصبح قويّة غداً » .

فجلس مورو على الكنبة ولمس وجه الفتاة بأطراف أصابعه .

- « يجب أن تدعها تنام » .

- « دع دوروثي تنم ، أنا أريد التحدث إلى روزي » .

وضع مورو يده على جبين الفتاة وتحدث بالقرب من أذنها :

- « روزي ، روزي ، هل تسمعينني ؟ » .

مشى سلتفليت ووقف بالقرب من الكنبة ، ومضت عدة دقائق ومورو لا يزال يتحدث إلى روزي بصوتٍ منخفض دون أن يحدث شيء . كان صدر الفتاة يرتفع وينخفض بهدوء ، ووجهها لا لون فيه ولا أثر للحياة . ثم لاحظ سلتفليت حركة ، إذ حرّكت الفتاة أحد أصابعها . أما مورو الذي كان وجهه بالقرب من وجهها فلم ينتبه . فربت سلتفليت على كتفه قائلاً :

- « حرّكت يدها » .

- « أية يد ؟ » .

أشار سلتفليت إلى يدها اليسرى ، فابتسم مورو :

- « هذا جيد » .

وانحنى إلى الأمام مرة أخرى وقال : « روزي ، إن كنتِ تسمعينني فحرّكي أصابعكِ » .

حرّكت الفتاة أصابع يدها اليسرى :

- « جيد ، والآن يا روزي عندما أعد من واحد إلى عشرة ، ستستيقظين وتشعرين أنكِ مرتاحة ومنتعشة ولا يوجد ما يقلقكِ على الاطلاق . . . » .

وأخذ يعد ببطء شديد ، وعندما وصل إلى ثمانية ، أخذت تتنفس بشكلٍ

عميق ، وعندما وصل إلى تسعة حرّكت جفنيها . انتهى مورو من العد ثم قال : « أنتِ مستيقظة الآن » .

تنهدت الفتاة وفتحت عينيها ببطء . ثم ابتسمت إلى مورو ابتسامة توحي بثقتها فيه .

فقال مبتهجاً : « هذا صحيح ، جميل أن أراكِ مرة أخرى فقد مضى وقت طويل ، كيف تشعرين ؟ » .

قالت الفتاة بصوتٍ عادي مفاجىء : « بأحسن حال ، شكراً » .

- « ومن أنا ؟ » .

- « د . مورو بالطبع » .

ورغم أن سلتفليت كان قد رأى هذا من قبل ، إلا أن الأمر كان لا يزال يملؤه بالدهشة . فالفتاة لم تكن دوروثي ولم تكن روزي ، وربما أنها كانت تشبه الطفلة بشكلٍ واضح ، لكنها كانت شخصاً آخر مستقلاً تماماً . ولم تكن بحاجة إلا إلى الابتسام والنطق ببضع كلمات حتى يصبح ذلك واضحاً .

أشار مورو إلى سلتفليت وقال :

- « وهل تعرفين من هو ؟ » .

فاستدارت كي تنظر إليه وتأملته قليلاً كأنها تحاول أن تتذكره . فلاحظ سلتفليت أنها مصابة بقصر النظر :

- « كلا . . . » .

ابتسم سلتفليت لها وردت عليه بابتسامة جميلة ، غير أنها ابتسامة تعارف ومجاملة . وأحس أنها تشبه جيرالدين شبهاً شديداً في ابتسامتها ، لم يكن الشبه في وجهها أو في تعبيرها ، بل بشكل ما في شخصيتها نفسها ، وبدا أن ذلك يدعم وجهة نظره التي طالما فكر فيها : « إن البشر جميعاً ينقسمون إلى عددٍ محدود من الشخصيات .

قال مورو : « تبدين أحسن حالاً ، وخداكِ متوردان » .

وكان ذلك صحيح فعلاً ، إذ اختفت كل مظاهر التعب وبدت كمن يصحو من نوم طويل :

- « أشعر أني في أحسن حال » .

- « هل تودين الاجابة عن بعض الأسئلة ؟ » .

فقالت بحبورٍ ظاهر : « حسناً » .

نظر مورو إلى سلتفليت ورفع حاجبيه متسائلاً . فهزّ سلتفليت رأسه ، كان يريد أن يكتفي في تلك المرحلة بالمراقبة .

حمل مورو كرسياً ووضعه إلى جانب الكنبة ، وقال : « طالما رغبت في سؤالك عن عيد ميلادك الثامن » .

اختفت ابتسامتها . فأخذ مورو وقته في الجلوس ، مانحاً إياها بعض الوقت للتفكير وقال :

ـ « هل حدث شيء مميز في ذلك اليوم ؟ » .

ـ « أجل . » كان صوتها بالكاد مسموعاً .

ـ « ما هو ؟ » .

ـ « أبي . . . أبي غضب مني » .

ـ « آه ، لماذا ؟ » .

ـ « ضبطني في خزانة الألعاب مع ابن عمي جوي » .

قالت ذلك دون أن تنظر إليه إلا أن صوتها كان متماسكاً :

ـ « لم تقولي لي هذا من قبل » .

ـ « لا . . . أظن أنه لم يبد هاماً » .

فابتسم لها : « لم يكن هذا هو السبب الحقيقي ، أليس كذلك ؟ » .

ـ « كلا » .

ونظرت إليه : « إنه أمر كان يزعجني جداً . لم أكن أود التحدث عنه » .

فقال مورو بحنان : « لكنه لم يعد يزعجكِ الآن . أليس كذلك ؟» .

فكرت فيما قاله . ثم قالت بدهشة خفيفة : « كلا » .

ـ « هل تعرفين السبب ؟ » .

هزت برأسها .

فقال : «لأنكِ واجهته وأخرجته من نظامك ، وهذه هي الطريقة الوحيدة التي تجعل الأشياء ترحل بعيداً . هل ضربكِ أبوكِ ؟ » .

ـ « كلا » .

ـ « ماذا فعل ؟ » .

ـ « هزني ، هزني حتى كدت أتقيأ » .

ـ « وماذا قال لكِ ؟ » .

ـ « قال إني مومس صغيرة وقذرة ، مثل أمي » .

ـ « هل فهمتِ ماذا عنى بذلك ؟ » .

ـ « لا ، لكني عرفت أنه شيء سيء » .

ـ « وهل ما زال الحديث عنه يزعجكِ ؟ » .

ـ « كلا » . وفكرت قليلاً ثم أضافت : « على الأقل ليس كثيراً » .

أعجب سلتفليت بصراحة الفتاة ونزاهتها .

وقال مورو : « وهو لن يزعجكِ في المستقبل لأنكِ تتحسنين » .

وأمسك يدها : « هل تعرفين لماذا بدأتِ تتحسنين ؟ » .

فابتسمت وقالت : « لأنك ساعدتني » .

ـ « لا ، بل لأنكِ ساعدتِ نفسكِ » .

لاحظ سلتفليت أنها لم تفهم ما يعنيه .

وأضاف مورو موضحاً : « أنتِ تعرفين أن المشاكل العقلية ليست كالمشاكل الجسدية . إذا أصبت بالتهاب بكتيري ، أعطيكِ مضادات حيوية ، ولن يكون مطلوباً منكِ أن تفعلي شيئاً سوى أن ترتاحي وتتركي الدواء يفعل مفعوله . إلا أن الأمر يختلف بالنسبة إلى المشاكل النفسية ، حيث عليكِ أن تمدي لي يد العون وذلك برغبتكِ الصادقة في التخلص منها . بمجرد أن تبدأ مقاومتكِ تكون مرحلة الشفاء قد بدأت . هل في نيتكِ أن تصبحي سليمة معافاة ؟ هل تريدين العيش كفتاةٍ طبيعية ؟

ـ « إن استطعت ! » .

شعر سلتفليت بمدى الخوف والتردّد في جوابها :

ـ « تستطيعين » .

وأعجب سلتفليت بإيمان مورو . ذلك الاقتناع الراسخ الهادىء الذي يجعل جميع المشاكل تبدو تافهة .

ـ « سأخبرك كيف . الخطوة الأولى هي فهم سبب المشاكل وما إن تعرفي هذا حتى تكوني قد قطعت أكثر من نصف الطريق . والآن أخبريني ما هو الاسم العيادي لمرضك ، لا تخافي من ذكره » .

فقالت بتردّد : « الشخصية المتعددة » .

ـ « صحيح ، وهل تعرفين ما الذي سبّبه ؟ » .

هزّت رأسها .

ـ « سأحاول أن أفسّر لك الأمر . هل رأيت تلك الشجيرات في الحدائق التي تحاط بأقفاص خشبية لحمايتها وهي صغيرة ، ما الذي يحدث لو تركت هذه الأقفاص عندما تكبر الشجيرات ؟ » .

ـ « سوف . . . سوف تكون صغيرة جداً » .

ـ « أجل ، لكنّها لن تمنع الشجيرة من النمو ، بل إنّها ببساطة ستكسر القفص . كل المخلوقات تحتاج إلى النمو والتوسّع ، هذا هو قانون طبيعتها الخاصّة . والبشر أيضاً بحاجة إلى النمو عقلياً وجسدياً . وكما يوجد في كل ثمرة بلّوط شجرة سنديان فإنّه يوجد إنسان بالغ داخل كل طفل . وكما أنّ كل طفل هو شخص بالغ كامل النمو في حالة جنينية ، فإنّه أيضاً إنسان كامل في حالة جنينية . لكن هذا هو الشيء المثير ، إذ لم يصل أي إنسان على الأرض إلى مرحلة الانسان الكامل ، أنا لست كاملا بالطبع ولم ألتق ابداً بأي إنسان كامل . فجميعنا يتوقف عن النمو قبل وصوله إلى هذه المرحلة ، وبالتالي فأنت لا تختلفين كثيراً عن أي شخص آخر ، فالمسألة نسبية . أليس كذلك ؟ » .

فأومأت برأسها وابتسمت ، ولم تحوّل عينيها عن وجهه .

ـ « والآن ثمّة شيء مميّز يتعلّق بهذه المشكلة . مشكلة الشخصية المتعددة ، إنّها لا تصيب إلاّ الذين شهدوا وقتاً عصيباً في طفولتهم . هل تعرفين ما الذي يسبّب هذا المرض ؟ » .

فهزّت برأسها .

ـ « إنّه يحدث عندما يتعرّض الشخص للأذى والضيق الفعليين فيشعر بالاحباط الكلّي ولا يعود راغباً ببذل أي جهد . ويشعر بهبوط معنوياته إلى درجة يفقد فيها الشعور بأهمية القيام بأي شيء ، أنت تعرفين هذا الشعور أليس كذلك ؟ » .

فأومأت برأسها .

ـ « إلاّ أنّه في حالتك ، كان الأمر عبارة عن غلطة . فأنت فتاة ذكيّة ولديك حاصل ذكاء يفوق المعدّل ، ولأنّ والدك حملك على الشعور بالذنب والتعاسة فقد قرّرت أن تتوقفي عن النمو وأن تتوقفي عن بذل أي جهد ، وهذا قرار خاطىء مهما كانت الظروف فماذا عن ذلك الشخص في داخلك .

تلك الفتاة التي تنتظرين أن تتحوّلي إليها . إنّها هناك في داخلك ، كشجرة السنديان داخل ثمرة البلّوط . غير أنّك ترفضين أن تسمحي لها بالخروج .

أنتِ تحرمينها من فرصتها بالحياة . وأخيراً لقد حوّلتها إلى إنسان متمرّد جداً حتى أنّها صمّمت على المضي في طريقها الخاصّ بدونك ، لقد نمت وأصبحت فتاة تدعى دوروثي وهي تصرّ دائماً على طردك واستخدام جسدك » .

وأمسك بكتفيها بحنان .

ـ « ليس هناك ما يدعو إلى هذا الحزن ، فالأمر ليس سيئاً إلى هذا الحد . فأنت دوروثي ، إنّها جزء منك ، حاولي أن تفهمي ، في داخل كل منّا عشرات الأشخاص : يوجد « أنت » قبل أن تكتسبي القدرة على التكلّم ، و« أنت » في السابعة من عمرك ، و« أنت » في سنّ البلوغ ، و« أنت » عندما تصبحين امرأة . ولو لم يكن البشر كسولين جداً ولو كان لديهم الشجاعة للاستمرار في النمو ، لوجدت عشرات « الأنت » الأخرى .

فمهما تموت ستوجد دائماً « أنت » أخرى يمكن أن تنتمي إليها .

والشيء الأكثر غرابة هو أنّها دائماً هناك ، كالسنديانة في داخل ثمرة البلّوط . حتى أنّها احياناً تتمكّن من الاتّصال بك ، وأحياناً إذا كنت على وشك القيام بشيء احمق أو خطر فإنّ إحداها ستقول لكِ : لا تفعلي هذا فقد تحرميني من فرصتي في الوجود .

وأخذ يديها .

ـ « هل تعرفين لماذا توقفت عن النمو ؟ » .

وعندما رأت أنه ينتظر جواباً قالت : « لأنّ . . . لأنني لم أحاول بما فيه الكفاية » .

ـ « ليس هذا فقط ، بل لأنك كنت تهربين بشكل دائم . فكلّما واجهتك مشكلة دفنتِ رأسك في الرمل كما تفعل النعامة . عندما كنتِ تفعلين ذلك ، كانت دوروثي تأخذ مكانك . كل ما عليك أن تفعليه حتى تتحسني هو أن تقلعي عن الهرب . اعرف أنّ هذا مؤلم ، إلاّ أنه لا توجد طريقة أخرى . إن لم تكفي عن محاولتك الهرب فسوف تزداد حالتك سوءاً ، يجب أن تتقبلي حقيقة أنّ الحياة غالباً ما تكون صعبة ومؤلمة وتحاولي النهوض مجدّداً . وليس

ثمّة ما يخيف ، فمن الأحسن بكثير أن تكوني هنا فوق من أن تكوني هناك تحت . هنا تشعرين أنك أقوى وأكثر سعادة وتعلّقاً بالحياة . وكل ما عليك فعله هو أن تبدئي بتحمّل المسؤولية ، وتتصرّفي كإنسان ينتظره مستقبل مثير » .

رفعت عينيها فقال : « اعرف أنك تتساءلين إنْ كنت تملكين القوة الكافية ، لكن ليس من المفروض أن تفعلي ذلك وحدك ، أنا هنا لأساعدك ، لكن جهودك أنت هي التي سيكون لها أبلغ الأثر ، هل أنت مستعدة للمحاولة ؟ » .

ـ « أجل » . كان صوتها واضحاً وثابتاً .

ضحك مورو فجأة ، ولاحظ سلتفليت الارتياح الذي بدا عليه .

ـ « حسناً ، سأسألك الآن بعض الأسئلة الشخصية الخاصّة جداً . وأريدك أن تجيبي عنها بأكثر ما يمكنك من الصدق . هل يزعجك وجود السيد سلتفليت ؟ هل تفضلين أن أطلب منه الانتظار في غرفة أخرى ؟ » .

فقالت بهدوء : « كلا » .

ـ « حسناً إذاً » .

انتهز سلتفليت الفرصة ليجلس ، فهو لم يجرؤ على التحرّك من قبل حتى لا يحوّل انتباهها عن حديث الطبيب .

قال مورو : « أريدكِ أن تخبريني عن عمّك جريج . إنّه مفتاح آخر لهذه المشكلة ، أليس كذلك ؟ » .

تحاشت النظر إليه وهي تومىء برأسها .

ـ « أولاً قال لك أبوك إنّك مومس صغيرة وإنّك ستذهبين إلى جهنم . ثمّ حدث شيء ما مع عمّك جريج ، ما الذي حدث ؟ » .

بذلت جهداً واضحاً للسيطرة على نفسها . « لقد . . . لقد . . . » .

ـ « لقد حاول أن يمارس الحبّ معك ، أليس كذلك ؟ هل فعل ؟ » .

فأومأت برأسها .

ـ « هذا ما ظننته ، أخبريني كيف حدث ذلك ؟ » .

ظنّ سلتفليت أنّها على وشك البكاء . غير أنّ صوتها كان هادئاً وثابتاً .

ـ « حدث ذلك في يوم كنّا فيه وحدنا في البيت . كانت العمّة « في »

تعمل في وول ورث بعد الظهر ، وجوي الذي يكون عادةً في البيت في مثل هذا الوقت خرج في ذلك اليوم . أمّا أنا فكنتُ في الحمام أغسل جواربي ، عندما دخل العمّ جريج وأخذ يدغدغني . . . . » .

ـ « هل كنتِ مرتدية ثيابك كلّها ؟ » .

ـ « لا ، كنت قد خلعت فستاني حتى لا يتبلّل . أخذ يقبّلني ، لم أمانع في البداية فقد كان يقبّلني دائماً . لكني شعرت أنّ الأمر مختلف في هذه المرّة . كنت أشعر بضربات قلبه . ثمّ أخذ بيدي إلى غرفة النوم . . . . » .

ـ « غرفة نومك ؟ » .

أومأت برأسها .

ـ « وأين تقع ؟ » .

ـ « مقابل الحمّام ، طلب منّي أن أستلقي وأخذ يردّد ، لن يكون ذلك مؤلماً . . . » .

ـ « وهل تألمت ؟ » .

ـ « قليلاً » .

ـ « هل بكيت ؟ » .

ـ « بكيت فيما بعد ، عندما رأيت الدم . ظللت أنزف لساعات حتى غطّى الدم جميع أغطية السرير . . . . . » .

ـ « هل كنت خائفة من أن تعرف عمّتك ؟ » .

ـ « أظنّ ذلك ، إلاّ أنّي كنت خائفة أكثر من الدم . حسبت أنّي سأنزف حتى الموت » .

ـ « ماذا فعل العم جريج ؟ » .

ـ « وضع الملاءات في الحمام وطلب منّي أن أبقى في السرير مدّعية أنّ لدي وجع معدة . . . . . » .

ـ « وهل عرفت عمّتك ؟ » .

ـ « لم تعرف وقتها ، لكنّها بدأت تشكّ فيما بعد » .

ـ « هل حدث ذلك أكثر من مرّة ؟ » .

ـ « أجل استمرّ ذلك حتى تركت البيت » .

ـ « لكن إذا كنتِ أردته أن يكفّ ، فلماذا لم تطلبي منه ذاك ؟ أما كان ليتوقف لو طلبت منه ؟ » .

- « لم أكن أريد أن أضايقه » .
ثمّ فكّرت قليلاً وأردفت : « أظنّ أنّي أحببته أكثر مّما أحببت أبي ، كان أحسن من أبي ، فأبي كان يشعرني دائماً بأني سيئة ، أمّا عمّو جريج فكان دائماً لطيفاً معي ويشعرني بأني طيبة . . . ثمّ عندما . . . . عندما حدث ذلك ، بدأت أفكر أنّ أبي ربما كان على حق . . . ولعلّي لست طبيعية وأسبّب المشاكل بشكل دائم . . . » .
- « وكيف تنظرين إلى الأمر الآن ؟ » .
- « لا زلت أشعر بأنّه كان ينبغي عليّ ألاّ أفعل ذلك ، فقد خرّب كل شيء » .
- « هل هو المسؤول الوحيد عن هذا الخطأ » .
لاحظ حيرتها فقال : « أريدكِ أن تكوني صادقة » .
- « أنا أحاول » .
- « إذاً دعيني أعيد صياغة السؤال . هل أنتِ متأكدة من أنّكِ لم تقوديه إلى التفكير في أنّك تريدين منه أن يمارس الحبّ معك ؟ » .
صرخت بشكل شبه غاضب : « لا » .
- « لا أقصد أنّك فعلت ذلك عن عمد ، إلاّ أنّ الذكور البالغين يستثارون بسهولة فائقة . فليس على الفتاة إلاّ القيام ببعض الحركات أو الاشارات بطريقة معيّنة وستكون الاجابة آلية تماماً ، هل أنت متأكدة أنّك لم تفعلي ذلك ؟ » .
هزّت رأسها نافية .
فأضاف : « مثلاً ، كنت تستغفلينه ، وتضعين يديك في جيوب سرواله ، ألم تفعلي ذلك ؟ » .
ارتسم على شفتيها شبح ابتسامة وقالت : « كنت أفعل ذلك دائماً منذ أن كنت طفلة صغيرة » .
- « وأحياناً كنت تتظاهرين بأنّك تودين أن تهمسي في أذنه شيئاً ، ثمّ تدغدغين أذنه بلسانك » .
- « هذه مجرّد لعبة » .
- « إلاّ أنّكِ كنت تمارسينها عندما كنت في الثالثة عشرة والرابعة عشرة » .

- « أعرف » .
وأخذت تبحث عن الكلمات : « إلا أنّي كنت أشعر أنّي لا زلت طفلة . . . » .
- « لكنّه كان يرى أمامه مراهقة جذّابة » .
فأومأت برأسها متحاشية نظراته .
- « دعينا نرجع الآن إلى اليوم الذي حدث فيه ذلك . ماذا كان عمّك يفعل في البيت في ذلك الوقت من النهار ؟ » .
- « كان دائماً يأتي باكراً يوم الجمعة » .
- « ولماذا خلعتِ فستانك ؟ » .
- « لأنّني . . . كنت أغسل جواربي وخفت أن تتبلّل » .
- « ما نوع الجوارب ؟ من النوع السميك » .
- « لا » .
- « هل كانت جوارب جذّابة من النايلون ؟ » .
- « أظنّ ذلك » .
- « النوع الذي ترتديه النساء ؟ » .
- « أجل » .
- « هو الذي اشتراها لكِ ؟ » .
- « أجل » .
- « وأنت أحببتها لأنّك تعرفين أنّها تجعل ساقيكِ تبدوان جذّابتين ؟ » .
فأومأت برأسها .
- « وكنت تعرفين أنّه يحب أن يراكِ جميلة . لماذا إذاً خلعتِ فستانك لتغسلي الجوارب ؟ » .
- « خفت عليه من التبلّل » .
- « من غسل الجوارب ؟ ما كان ذلك ليبلّله كثيراً » .
- « لا أذكر . . . لعلّي كنت أغسل أشياء أخرى . . . . » .
- « ولم تقفلي باب الحمّام بالمفتاح ؟ » .
- « لا » .
- « لكنّكِ كنت تعرفين أنّه سيأتي باكراً ، وكنت في الحمّام بثيابك الداخلية وتغسلين جوارب هو الذي اشتراها لك . ماذا تقولين لو سمعت القصة عن

فتاة أخرى . هل تصدّقين أنّها لا تريد أن يأتي إلى الحمّام ؟ » .
قالت بنوعٍ من اليأس : « تجعل الأمر يبدو وكأنّي قد قمت بكل ذلك عن عمد » .

هزّ مورو رأسه : « لم أقل هذا ، أطلب منك فقط أن تنظري إلى الأمر من وجهة نظره : كنتِ فتاة جميلة ذات قوام جميل ، لا تزال تضع يديها في جيوب سرواله وتلعب ألعاب الدغدغة ، وتسمح له بتقبيلها . يرجع ذات يوم من عمله وهو يعرف أنّك وحدكِ في البيت فيجدكِ في الحمّام لا ترتدين سوى ملابسكِ الداخلية وقد تركتِ باب الحمّام مفتوحاً ، أليس من الطبيعي أن يشعر بأنها دعوة له لتخطّي ما كان يفعله في العادة ؟ » .

ـ « أجل » . بالكاد أمكن سماع صوتها .

ـ « إذاً ، أليس من المنطقي أن تتوقفي عن لومه ؟ » .

ـ « أنا لا ألومه » .

انتظر مورو ، وهو ينظر إليها فحاولت أن تتحاشى عينيه ثمّ قالت :

ـ « بلى ، أظنّ أنّي ألومه ، ألومه لأنّه أفسد كل شيء » .

فقال مورو بهدوء : « جيد ، تخلّيتِ عن اختلاق الأعذار » .

احمرّ وجهها ونظرت مباشرة في عينيه : « كان من المعقول أن يكون الأمر مختلفاً لولا أنّ وجود جوي وعمّتي « لي » في البيت قد جعل الأمر يبدو حقيراً جداً » .

ـ « هل كان الوضع ليختلف لو استطعت الحصول عليه وحدكِ ؟ » .

فقالت برقّة : « ربما ، إلاّ أنّ جوي هو الذي كنت أريده بالفعل » .

تنهد مورو ووقف : « لم يعد بوسعنا أن نفعل أي شيء ، لكن بإمكانك على الأقل أن تسامحيه فسوف تشعرين بالتحسّن والارتياح » .

فقالت : « أنا أشعر بالفعل بالتحسّن » .

ضحك مورو ، ونفش شعره وقال : « والآن ، هل تحبّين التحدّث إلى صديقي السيّد سلتفليت ؟ » .

فاستدارت ونظرت إليه بفضول : « عن أي شيء ؟ » .

فاقترب سلتفليت وجلس على الكرسي التي أخلاها مورو .

ـ « هل تسمحين لي بأن أدعوك روزي ؟ » .

فابتسمت وأومأت برأسها .

ـ « قبل كل شيء من الأفضل أن أخبرك أنّي شرطي » .

كان من الواضح أنّ ذلك لم يزعجها . كانت لا تزال متحصنة بشعورٍ من الثقة والاطمئنان .

ـ « أريد أن أحدّثك عن صديق لك في مشكلة » .

التفتت نحو مورو بشكل غريزي فقال سلتفليت :

ـ « لا ، ليس د . مورو . إنّه فرانكي » .

فسألت بسرعة : « ما الذي حدث له ؟ » .

ـ « هل تذكرين أنّك ذهبت إلى ملهى جورج في شارع بورتوبيلو يوم السبت الماضي ، وأنّ فرانكي لحق بك ؟ . . . » .

تجهّم وجهها ، ونظرت إلى مورو بكآبة .

فقال مورو : « لا تخافي ، أخبريه بما تذكرينه فقط » .

فقال سلتفليت : « وهناك التقيت ببحّار بولوني أليس كذلك ؟ » .

أومأت برأسها .

ـ « وحاولت إيجاد فندق لتمضي الليل معه ؟ ثمّ ذهبتما معاً وأكلتما في مطعم . وحاولت أن ترجعي به إلى هنا ، لكن غرفة هاريت كانت لا تزال مضاءة ، فقرّرتِ ألاّ تغامري . ماذا حدث بعد ذلك ؟ » .

فقالت : « ذهبنا إلى مكان آخر » .

ـ « إلى الحدائق في الجهة الأخرى من الشارع » .

ـ « أجل » .

ـ « وما الذي حدث بعد ذلك ؟ » .

تردّدت فقال مورو : « لا تخافي » .

ـ « بدأ . . . بدأ يمارس الحب معي » .

ـ « كيف ؟ هل نزع عنك ثيابك ؟ » .

هزّت رأسها .

ـ « إذاً ماذا فعل ؟ » .

ـ « طلب مني أن أستلقي على العشب ثمّ نام فوقي » .

ـ « ألم يكن ذلك ما تريدينه ؟ » .

هزّت برأسها .

ـ « لماذا ؟ » .

- « لم أكن . . . مستعدة » .
- « لماذا ؟ ماذا كنت تريدين منه أن يفعل ؟ » .
نظرت إلى مورو وقالت : « كنت أريده أن يهزّني » .
- « يهزّك ؟ ! » .
أذهل الأمر سلتفليت فتحاشت نظراته وقالت :
- « كانت يداه كبيرتين وقويتين . وأنا في المطعم ظللت أنظر إليهما وأقول في نفسي ما أجمل أن يمسك بكتفيّ ويهزّني . . . ويهزّني ويهزّني » .
- « ومن ثمّ يمارس الحب معك » .
- « أجل » .
- « وهل فعل ذلك ؟ » .
- « لا . . . لا أظنّ ذلك ، لم أستطع أن أجعله يفهم . ظنّ أنّني أريد أن يهزّ يدي عندما يصافحني » .
وابتسمت ابتسامة باهتة . « ثمّ غضب وضربني على وجهي » .
- « كنت لا تزالين نائمة على العشب » .
- « لا ، كنت جالسة ، راكعة » .
- « ماذا حدث بعد ذلك ؟ » .
هزّت رأسها وقالت : « لا أعرف . لا أستطيع أن أتذكّر » .
- « حاولي ، هل كان لا يزال مرتدياً ثيابه ؟ » .
- « أجل ، ولكنه كان قد فكّ أزرار سرواله » .
- « ثمّ أمسك بشعرك » .
أخذت تبكي وقالت : « أجل » .
- « تذكرين أنّه أمسك بشعرك ، هل تذكرين أنّه ضربك ؟ » .
هزّت رأسها .
- « كان معه سكّين . . . » .
أعطاها مورو منديل ورق ، فمسحت دموعها .
- « كان يمرغ وجهي على سرواله ، ثمّ أظنّ أنّه قد أغمي عليّ » .
تبادل سلتفليت ومورو النظرات وقال سلتفليت :
- « وأين كان فرانكي كل هذا الوقت ؟ » .
- « لا أعرف » .

وضع يده على كتفها ليحملها على النظر إليه وقال :
- « روزي ، هذا البحّار قُتل ، من قتله » .
- « آه ، لا ، غير ممكن » . كانت صدمتها عفوية وفورية .
- « هناك من طعنه بسكين ، هل هو فرانكي ؟ » .
عادت للبكاء مرّة أخرى : « لا أعرف . . . لا . . . فرانكي لا يفعل ذلك » .
- « لكنه قد يقتله إن هاجمك » .
لم تستطع أن تردّ بل هزّت رأسها .
اقترب مورو وجلس على الكنبة وأمسك بيدها وقال برقّة : « أرجوك حاولي أن تتذكري » .
تمكّنت من السيطرة على نفسها : « لا أقدر » .
فسألها مورو : « هل تريدين ؟ » .
فنظرت إليه دون أن تفهم ما يرمي إليه .
فقال : « هل تحبّين أن أجعلك تتذكّرين ؟ » .
فقال سلتفليت : « بواسطة التنويم ؟ » .
هزّ مورو رأسه قائلاً : « لن يؤدّي إلى نتيجة » .
أخذ المحرمة من الفتاة ومسح دموعها وقال :
- « هل تذكرين ، عندما جئت إلى هنا قلت لك إنّي أستطيع أن أشفيك » .
فأومأت برأسها .
- « لكنّي قلت أيضاً إنّ ذلك سيحدث عندما تكونين مستعدّة . هل تعرفين لماذا قلت ذلك ؟ » .
حدّقت إليه دون أن تتكلّم .
فأردف : « لأنّه لا يمكنني أن أفعل شيئاً ما لم تكوني تريدين فعلاً أن تشفي . فلو حاولت قبل ذلك ، لساءت حالتك أكثر . هل تريدين أن نحاول الآن ؟ » .
فأومأت برأسها وقالت : « إن كان ذلك يساعد فرانكي » .
- « إنّه يساعده » .
فقالت بثبات : « حسناً » .

- « قبل كل شيء أريدك أن تعديني بأنّك لن تتراجعي مهما حدث » .
فهمت على الفور وأومأت برأسها .
- « هل تعدينني بأنّك ستقاومين من الآن فصاعداً ؟ » .
أخذت نفساً عميقاً وقالت : « أعدك » .
- « حسناً ، وأنا بدوري أعدك بأنّي سأساعدك على الشفاء » .
عادت للبكاء من جديد .
فقال : « لا تفعلي ذلك ، امسحي دموعك ، وارفعي رأسك ، هكذا أحسن » .
- « الآن ، اسمعي ، هل تعرفين لماذا لا ينفع التنويم المغناطيسي الآن ؟ » .
هزّت رأسها .
فقال بسرعة : « فكّري » .
- « لأنّ . . . لأنّ . . . » .
- « لأنّ ذلك سيعيد دوروثي مرّةً أخرى . وهي أقوى منك » .
بدا أنّها تتقبّل ما قاله بوصفه نوعاً من التأنيب المبرّر . فأومأت برأسها .
وقال مورو : « هل هي أقوى منك ؟ هل أنت متأكدة ؟ » .
أخذ مورو يشدّ على يديها : « متى تسيطر دوروثي ؟ عندما تكونين متعبة ومكتئبة ، أو مريضة ، أليس كذلك ؟ لكن عندما تشعرين بالسعادة وتتمتعين بصحّة جيدة ، لا تستطيع أن تسيطر لأنّك تتمتعين بالقوة نفسها » .
كان واضحاً أنّه من الصعب عليها تصوّر ذلك فقال : « أنت تظنين أنّها أقوى منك ، إذاً أجيبي على هذا السؤال ، لماذا لا تسيطر عليك بشكل دائم وترفض السماح لكِ بالرجوع ؟ ألا تعتقدين أنّها تحبّ أن تفعل ذلك ؟ إذا فلماذا لا تفعل ؟ لأنّها لا تقدر ، فهذا جسمك ، أنت جئت إليه قبلها » .
نظرت إليه بأمل مفاجىء .
- « لا يمكنها أن تسيطر على جسدك ، إلّا عندما تهربين من المواجهة . فهي تسيطر عليك لأنّك تتراجعين دائماً إلى طفولتك . فإذا ما أقلعت عن ذلك لن يبقى بإمكانها الدخول . يمكنك أن تمنعيها من الدخول » .
لاحظ سلتفليت أنّها رغم القلق الذي استولى عليها مصمّمة على المواجهة .

وقال مورو : « أخبريني ما الذي تشعرين به عندما تطردك من جسدك ؟» .
قبضت على عنقها من الخلف وقالت :
- « أشعر بإحساس غريب هنا ، وكأنّي على وشك الغياب عن الوعي ، ثمّ أشعر وكأنّها تشدّني من الخلف » .
- « تشدّك ؟ » .
- « ليس بالضبط . . . فذلك يحدث بسرعة هائلة » .
- « وماذا يحدث بعد ذلك لو قاومت وشددت بالاتجاه المعاكس ؟ » .
هزّت رأسها وقالت : « لست أدري » .
مشى مورو نحو روزي ووقف خلفها ، ثمّ وضع يديه على كتفيها وأخذ يدلّك عضلاتها . بعد لحظات تنهدت الفتاة وبدا أنّها ارتاحت .
قال : « هل تذكرين الجملة التي أستخدمها عندما أريد منك أن تسترخي كليّاً ؟ ماذا أقول لك ؟ » .
- « حلّ الظلام في الخارج » .
- « وعندما أريدك أن تنامي أتكلم عن . . . » .
- « المطر » .
- « هو ذلك ، المطر ، والآن سوف أقول لك ماذا ستفعل . سنحاول أن نلعب لعبة نخدع بها دوروثي » .
- « لن تنجح » .
- « لماذا ؟ » .
- « لأنّها تسمعك » .
اتقدت عينا مورو حماسةً : « كيف تعرفين هذا ؟ » .
هزّت رأسها .
- « هل يمكنك أن تشعري بوجودها في داخلك ؟ » .
- « أجل » .
- « ولكنّك لم تقدري من قبل . أليس كذلك ؟ » .
أومأت برأسها وأخذت تضغط على مؤخرة عنقها .
- « هل تحاول الرجوع ؟ » .
- « أجل » .

ـ « روزي ، إصغي إليّ ، لا أريدها أن ترجع ، يمكنك أن تمنعيها . هي تعبة الآن وأنت قويّة . وهي تريد أن ترجع لأنّها تخاف أن تزدادي قوّة . أريدك أن تظهري لها أنّك أقوى منها ، دعينا لا نترك لها الفرصة حتى ترجع » .

جلس مورو مجدداً وأخذ يديها في يديه . كانت شاحبة وعصبيّة .

قال مورو بصوت ناعم : « الظلام يحلّ في الخارج » .

لم يكن لكلامه تأثير منظور إذ أخذت تنقل نظرها بين سلتغليت ومورو .

فقال مورو مجدّداً : « الظلام يحلّ في الخارج » .

وهذه المرّة بدأت تتنفس بشكل عميق وارتخت عضلاتها .

فقال مورو بصوت ناعم : « روزي » .

فنظرت إليه .

وقال : « لا تسمحي لها بالعودة » .

وبينما هو يقول لها ذلك ، أجفلت الفتاة كأنّها تعرضت لهجوم مفاجىء ، وبدا الذعر في عينيها وارتدّ رأسها إلى الوراء ؛ حاولت أن تدير رأسها كما لو كانت تودّ التطلّع إلى الوراء ، إلاّ أنّها لم تستطع تحريك رأسها سوى بضع درجات . خطر لسلتغليت أن يقف وراءها ويضع يديه على عنقها ، فشعر بإحساس غريب كأنّ هناك من يحاول أن يشدّها إلى الوراء بينما هي تحاول أن تقاومه بالاندفاع إلى الأمام . حاول سلتغليت أن يساعدها في الاتجاه نفسه .

وكان مورو يقول : « امنعيها لا تدعيها تدخل » .

فجأة أخذت تتمايل بعنف ولم يعد قادراً على تثبيتها ، فوقعت على الأرض . كانت تتقلب كمن أصيب بنوبة الصرع . وعندما ركع مورو بالقرب منها ، أخذت تتقلّب بعنف حتى كاد أن يقع على ظهره . خاف سلتغليت أن تؤذي الفتاة نفسها فحاول وضع يديه تحت رأسها . ارتطمت ركبتاها برأسه فشعر بدوار ، ثمّ حاول الرجلان الامساك بيديها ، وتمكّن مورو من أن يرمي بثقله على ساقيها ، كانت قوتها هائلة ، فبالكاد تمكّن كلاهما من تثبيتها ، وفجأة هدأت الفتاة ، وجلس الثلاثة على الأرض يلهثون بشدّة .

قال مورو : « ساعدني في وضعها على الكنبة » .

قاومته الفتاة وقالت : « أستطيع أن أفعل ذلك بنفسي » .

ووقفت ثمّ جلست على الكنبة .

ركع مورو أمامها ونظر في وجهها وقال : « هل تعرفينني » .

أومأت برأسها .

فقال : « من أنا ؟ » .

ـ « دكتور مورو » .

ـ « ومن أنت ؟ » .

ـ « روزي جود » .

لم يكن سلتغليت بحاجة إلى معرفة الاجابة عن هذا السؤال .

فهي روزي بلا ريب .

قال مورو : « وأين روزي ؟ » .

بدت الحيرة على الفتاة وقالت : « أنا روزي » .

ـ « ودوروثي ؟ » .

في خلال الصمت الذي خيّم بعد ذلك ، بدت الفتاة وكأنّها سهت عن وجود الرجلين فغرقت في محاولة لاختبار مشاعرها الداخلية . ثمّ ابتسمت فجأة وقالت :

ـ « أعتقد أنّي أنا دوروثي . . . » .

ووقفت ومشت صوب المرآة في الزاوية وقالت وكأنّما داهمها خطر مفاجىء : « د . مورو حدث أمر غريب ، أنا لا أشبه نفسي » .

فقال مورو : « دوروثي !! » .

استدارت نحوهما ، فجفل سلتغليت من الصدمة . كان وجهها قد تغيّر بالفعل ، فالشفتان مشدودتان ، والعينان تتقدان بنظرة التحدّي العدائية المباشرة التي تتميّز بها دوروثي . ولاحظ مورو ذلك أيضاً ، فارتسمت تعابير خيبة الأمل على وجهه . وبينما هما يحدّقان إليها بدا الارتباك على الفتاة ، وفجأة كانت روزي هي التي تقف أمامهما .

مضى مورو إلى الفتاة وأخذ بيدها وقال : « أنت هي أنت ، أنت روزي ودوروثي » .

حدّقت إليه : « إنّه شيء غريب . . . أن أكون شخصيتين » .

فسألها سلتغليت : « وهل يمكنك الآن أن تري إلى عقل دوروثي ؟ » .

فقالت على الفور : « أجل » .

ـ « هل تخبريني بما حدث ليلة البارحة » .
لاحظ سلتفليت جفوها .
وقال مورو بسرعة : « لست مضطرة إلى قول أي شيء إلاّ إذا كنت ترغبين بذلك » .
فقال سلتفليت : « هل فرانكي هو الذي قتل البحّار ؟ » .
هزّت برأسها وقالت : « لا ، دوروثي قتلته » .
قال مورو : « ألستِ دوروثي ؟ » .
فقالت الفتاة بهدوء : « بلى » .
قال مورو : « ولكنّك روزي أيضاً ، وروزي لم تقتله » .
ضاق سلتفليت بهذه المقاطعة فقال : « لماذا قتلته ؟ » .

ـ « كانت غاضبة جداً » .
ـ « لماذا ؟ » .
ـ « كان يتصرّف كالخنزير . ثمّ عندما وضع السكّين على عنقي ، حلّت مكاني . كان يحاول أن يجعلني . . . افعل شيئاً لم أكن اريد أن أفعله » .
فقال سلتفليت : « ماذا ؟ » .
احمرّ وجهها : « شيء . . . مثير للقرف والاشمئزاز » .
قرّر سلتفليت أن يكتفي بهذا التوضيح وسأل : « كيف حصلت دوروثي على السكّين ؟ » .
ـ « وقعت من يده عندما عضّته » .
وظهرت ابتسامة خبيثة على وجهها . وللحظة شعر الرجلان بوجود دوروثي .
ـ « لكن لماذا طعنته ؟ لماذا لم تهربْ ؟ » .
ـ « لم تستطع ، إذ كان ممسكاً بشعري ، ممّا أفقدها أعصابها ، فهي لا تطيق أن يمسك أحد بشعرها » .
ـ « فطعنته في صدره . لماذا استمرّت في طعنه بعد أن وقع على الأرض ؟ » .
ـ « لم تكن تعرف أنه مات » .
ـ « ماذا فعلت بعد ذلك ؟ » .

أكون قد أخفيت دليلاً أساسياً ، ومن الجهة الأخرى لن يكون من المرّ أن أقول للمفتش فينش إنّي وجدت المجرم فأنا لم أجده » .
وضع السكّين في جيبه وقال : « سأرى ماذا يمكنني فعله » .
تقدّمت منه روزي وقبّلته على زاوية فمه ، تماماً كما تفعل جيرالدين عندما تودّ أن تعبّر عن شكرها له . فنظر إليها وقال :
ـ « لا يمكنني أن أعد بشيء » .
إلاّ أنّه كان يعرف أنّ ذلك ليس صحيحاً ، لأنّه كان قد وعد نفسه .

ـ « رمت السكّين في حوض الزهور ، وخرجت من خلال الفتحة في السور » .
ـ « ثمّ جاء فرانكي » .
ـ « لا ، لحق بها إلى البيت » .
ـ « متى عاد ليأخذ السكّين ؟ » .
ـ « فيما بعد ، عندما أخبرته بما حدث » .
ـ « هل أرسلته أم ذهب من تلقاء نفسه ؟ » .
ـ « هي التي أرسلته » .
ـ « ثمّ جعلته يمسح البصمات ، ويضع السكّين في الخزانة الزجاجية مع السكاكين الأخرى » .
ـ « هي التي مسحت البصمات ، ثمّ طلبت من فرانكي أن يضعها في الخزانة » .
نظر سلتفليت إلى مورو مبتسماً ابتسامةً مريرةً وقال : « وهكذا فإن كان هناك من سيذهب إلى السجن فهو فرانكي » .
قال مورو : « والآن ، ماذا ستفعل ؟ » .
ـ « إن واجهت دوروثي هيئة المحلّفين فلن تحظى بعطفهم . ارتكبت جريمة قتل في حالة هياج وغضب ومن ثمّ عمدت إلى إخفاء جريمتها عبر تلفيق الأدلّة . سينتهي بها الأمر إلى السجن » .
فقال مورو : « وكذلك روزي » .
قالت روزي : « ستلقي القبض عليّ ؟ » .
ـ « لا » .

- « لماذا ؟ » وهنا أيضاً كان من المحتمل أن تكون دوروثي .

فقال سلتفليت : « لن أعتقلك من أجل جريمة ارتكبتها دوروثي . فنحن نبحث عن دوروثي ، فإذا منعتها من السيطرة عليك والحلول محلك ، فلن نتمكّن من القبض عليها ، أليس كذلك ؟ » .

ابتسمت ، ومجدداً كانت روزي هي التي تنظر إليه .

مضى سلتفليت إلى الدرج وأخذ السكّين الملفوفة في المنديل . فقال مورو : « ماذا ستفعل ؟ » .

- « بصراحة لست أدري ، عليّ أن أفكّر في الأمر ، إن لم أسلّم السكين

11

عاد المطر بعد ليلتين تصحبه العواصف معلناً انتهاء « الصيف الهندي » . تلك الأيام القليلة التي ينعم الناس فيها بالدفء خلال خريف بريطانية البارد .

عندما استيقظ سلتفليت في صباح اليوم التالي كانت الريح قد سكنت إلاّ أنّ المطر كان لا يزال ينقر على نوافذ غرفة النوم . دخل إلى الحمّام ، وكان يسمع وهو يحلق ذقنه ، صوت تدفّق سيول المطر في المجاري . استخدم موسى حلاقة بدلاً من آلة الحلاقة الكهربائية التي يستخدمها عادة ، ففي أيام الآحاد والأعياد ، كانت المياه الساخنة ورائحة صابون الحلاقة تزيد من إحساسه بالراحة . كان يمسح ما تبقى من الرغوة عندما سمع جرس الهاتف . ثمّ سمع ميرندا تنادي : « إنه المفتّش فيتش يريد أن يعرف ما إذا كان بإمكانه أن يأتي لرؤيتك بعد الفطور » .

- « بالطبع ، فنحن لن نخرج قبل الحادية عشرة » . كان قد وعد ميرندا باصطحابها إلى المعرض الصيني في الأكاديمية الملكية .

كانت ميرندا تقلي شرائح اللحم مع بعض الفطر . وفي الخارج كان « التراس » مغطىً بأوراق الأشجار المخضلة ، وكراسي الحديقة قد بعثرتها الريح .

قال سلتفليت : « كنت أتساءل ما الذي حدث لفيتش فلم نره منذ يومين » .

- « هذا يعني أنّ القضية تسير بشكل جيد ، وإلاّ لكنا رأيناه مرتين في اليوم » . كانت ميرندا تميل إلى السخرية المريرة كلما شعرت أنّ هناك من يستغلّ زوجها .

ـ « أرجو ذلك . ألا يستحقّ ذلك المسكين أن يبتسم له الحظ » .
صبّت له كوباً من عصير البرتقال الطازج وكوباً آخر من القهوة .
ـ « اتصلت جيرالدين بعد أن أويت إلى فراشك البارحة . وهي تريد أن تعرف إن كنا نسمح لها بالذهاب إلى المدرسة الأسبوع القادم كي تقضيه هنا » .
فتح صحيفة التلغراف وقال : « ماذا قلتِ لها ؟ » .
ـ « قلت إنّي سأسألك » .
ـ « لا أحبّ أن تفوتها بعض الدروس خصوصاً في السنة التي تتقدم فيها لنيل المرحلة الأولى من شهادتها الثانوية » .
ـ « لا يزال أمامها سنة على ذلك » .
ـ « لا بأس ، إن كنت ترين أنها فكرة جيّدة » .
نظرت إليه بفضول شديد : « كنت أظنّ أنك تودّ إبعادها عن صديقها » .
وضع الصحيفة جانباً : « هذا ليس صحيحاً تماماً ، إنّي أتمنى ألاّ يحدث ذلك على الإطلاق وكنت أتمنى لو أنّها انتظرت بضع سنوات أخرى ، إلاّ أنّنا لا نستطيع إعادة الساعة إلى الوراء » .
ـ « أنت على حق » وكسرت بيضة ووضعتها في المقلاة . كان موقفه يحيّرها : « هل تعني أنّه لا اعتراض لديك على تشارلي » .
فقال بحدّة لم تصل إلى حدّ الغضب : « بالطبع لدي اعتراض . لكن علينا أن نكون عمليين ، فلن نستطيع أن نقيّدها في حزام العفّة إذا كانت تريد أن تأتي وتقضي معنا أسبوعاً ، فهذا يعني أنّها تعرف أنّنا قلقون عليها . وأعتقد أنّ هذا هو الأمر الوحيد المهمّ » .
ـ « هذا يبدو ليبرالياً جداً » .
ـ « ليس ليبرالياً ، بل فلسفياً ، منذ أيام قال مورو شيئاً هزّ كياني ، لا أذكره بالضبط ، لكن ما معناه أنّ كل مخلوق بحاجة إلى النمو والتوسّع . وإنّ هذا هو قانون الطبيعة . انظري ماذا حدث عندما حاول والد روزي أن يوقف نموها » .
وجدت ميرندا المقارنة غريبة : « ثمّة فرق كبير بين روزي وجيرالدين » .
ـ « أعرف ذلك ، إلاّ أنّ هذا لا ينفي صحّة ما قاله مورو : ماذا كان

يحدث لو أنّ والد روزي لم يخفها إلى هذا الحدّ ؟ بالتأكيد لم تكن لتتحوّل إلى امرأة شبقة فهي ليست من هذا النوع ، لقد تأكدت من ذلك من حديثي معها ، فما تريده من الحياة هو الحب والعطف والأمان ، تريد أن يُعنى بها الآخرون ، مثلها مثل جيرالدين » .
وضعت الفطور أمامه وقالت : « إذاً ماذا أقول لها ؟ » .
ـ « قولي لها أن تأتي ، إذا كانت هذه هي رغبتها . وفي الحقيقة ، أريد أن أجمعها بروزي فقد يكون ذلك مفيداً لكليهما » .
كان قد انتقل إلى غرفة الجلوس ، وبدأ بقراءة الصفحة الأخيرة من التلغراف عندما رنّ جرس الهاتف .
ـ « السيد سلتفليت ، أنا روبرتو مورو » .
ـ « آه ، أهلاً ، هل كل شيء على ما يرام ؟ » .
ـ « ثمّة أمر أرغب في التحدّث إليك بشأنه » .
ـ « تفضّل » .
ـ « أفضّل أن أراك ، أمِنَ الممكن أن تأتي إلى هنا ؟ » .
نظر إلى ساعته : « ربما فيما بعد ، فأنا أنتظر ضيفاً » .
ـ « هل آتي أنا لأراك ؟ » .
ـ « بالطبع ، أهلاً وسهلاً بك ، هل تعرف البيت ؟ » أعطاه سلتفليت العنوان وقال : « أرجو ألاّ يكون قد حدث مكروه » .
ـ « لا شيء خطير ، إلاّ أنّه أمر لا بدّ لنا من مناقشته » .
سمع صوت سيارة فينش وهو يقفل الخطّ . ففتح الباب قبل أن يقرع فينش الجرس .
ـ « أهلاً جورج ، كيف حالك ؟ » .
ـ « في أحسن حال » كان فينش يبدو مرحاً وودياً رغم المطر . « آمل أن تكون بصحّة جيدة » .
أخذ سلتفليت معطف فينش وقبعته ، لكن فينش ظلّ مرتدياً قفّازيه .
ذهبا إلى غرفة الجلوس وكان فينش يحمل حقيبة جلدية قديمة وقال :
ـ « قبل كل شيء ، أعبر لك بتواضع عن امتناني » .
وأخرج من الحقيبة كيس ورق بنياً كان بداخله زجاجة كبيرة (نصف غالون) من الويسكي .

ـ « يا إلهي لم هذه ؟ » .

ـ « تلك المساعدة كلها . . . . » .

ـ « لن أستطيع أن آخذها » .

كانت زجاجة ويسكي « بل » هي الهدية التقليدية للشرطي الذي يؤدي خدمة شخصية صغيرة ، إلاّ أنها كانت تقدّم عادة إلى مكتب التحقيقات الجنائية وتفتح في « يوم المذكرات » ، ذلك اليوم الذي يجلس فيه رجال التحرّي لكتابة جردة بتحركاتهم لتراجع من قِبَل المسؤولين وللمطالبة ببدل نفقاتهم . لذا تردّد سلتفليت في قبول زجاجة من الحجم الكبير من زميل له للاستهلاك الشخصي .

ـ « سأتضايق جداً إن رفضت » . كان فيتش يتحدّث بثقة واضحة بنفسه لم يعهدها سلتفليت به . فقرّر التخلّي عن هواجسه .

ـ « حسناً شكراً لك على هذه البادرة اللطيفة ، هل تشرب كأساً الآن ؟ » .

ـ « إن شاركتني فقط » .

ـ « لا يزال الوقت مبكراً ، لكنّي قد آخذ جرعة صغيرة جداً » .

تبادلا الأنخاب ، ولم يستسغ سلتفليت مذاق الويسكي القويّ في التاسعة والنصف صباحاً فشرب كأسه دفعة واحدة كأنّه يشرب دواء . أمّا فيتش فبدا أنّه يتلذّذ في شرب كأسه .

قال سلتفليت : « هل حدث شيء مهم ؟ » .

ـ « آه » . وضع فيتش الحقيبة على الطاولة وأضاف : « أحضرت معي شيئاً ، أريدك أن تراه ، رغم أنّه لو عرف أحد بالأمر لسبّب لي المشاكل » . وأخرج من الحقيبة كيساً أبيض من النوع الذي يستخدمه ضابط المستندات وقال : « لكنّي أعتقد أنّه ينبغي لك أن ترى هذه » وقلب الكيس فانزلقت سكين على سطح الطاولة . كانت السكين ذات القبضة الخشبية التي قتلت تشورومنسكي فشعر سلتفليت بتقلّص معدته .

أمسك فيتش السكّين بحرص شديد ، وحملها من طرفيها بيديه المغطاتين بالقفازين .

ـ « هذا ما كنّا نبحث عنه » .

ـ « سكّين تشورومنسكي ! » .

ـ « صحيح » .

ـ « أين وجدتها ؟ » .

ـ « وجدها البستاني البارحة ، بينما كان يكنّس أوراق الأشجار » .

ـ « في الحديقة ؟ » مشى سلتفليت إلى النافذة ، كان يودّ أن يخفي وجهه فهو يكره التمثيل .

ـ « كيف لم تجدها الشرطة ؟ » .

ـ « كانت داخل الشجيرات على طرف الحديقة المحاذي لشارع لادبروك غروف . أظنّ أنّ ما حدث هو أن سبراغز رمى بها في حوض الزهور ، ثمّ انتبه إلى أنّها قد تحمل بصماته فرجع وراءها . ثمّ مسحها ورماها بين الشجيرات وقفل راجعاً » .

ـ « هل أنت متأكد أنّه سبراغز ؟ » .

متأكد جداً ، مقاس حذائه ـ ١١ ـ يتطابق مع مقاس آثار القدم في حوض الزهور ، كنّا نبحث عن حذاء نعله من الكريب ، إلاّ أنّنا لم نجد حذاء من هذا النوع في منزل سبراغز » .

ـ « إذاً ، لقد حصلت على مذكرة التفتيش » .

ـ « آه ، نعم ، ليست مشكلة ، بالمناسبة ، طلبت منّي أن أعيد لك هذه » ، وأخرج من جيبه الداخلية مغلفاً يحتوي على الصورة التي كان سلتفليت قد أخذها من مورو .

ـ « شكراً » .

ـ « أجل ، حصلنا على المذكرة ، وأدخلنا صاحب البيت بواسطة مفتاحه الخاص ووجدنا الغرفة التي يستخدمها لإقامة حفلاته . لم ترَ في حياتك شيئاً شبيهاً به . فلديه ذلك « البروجكتور » ذو العدسات الملونة الدوائر . عندما يدور يسلط الضوء على الثريا البلورية المضلعة المتدلّية من السقف والتي تدور هي أيضاً ، لم ترَ في حياتك شيئاً كهذا . ستائر مخملية سميكة لا تسمح للضوء بالدخول إلى الغرفة . عندما أدرنا ذلك الجهاز ، غطّت الجدران تلك الألوان القبيحة التي جعلتني أشعر بإحساس غريب يشبه الهلوسة في العاشرة صباحاً ، بإمكاني الآن أن أتخيّل أثرها في أولئك الفتيان بالإضافة إلى أثر الحبوب .

- « هل وجدتم حبوباً ؟ » .

- « وجدنا الكثير : ماريوانا ، غراء ، أمفيتامين ، حبوب للقلب ، ال أس دي ، سمّ ما شئت ، وكذلك وجدنا قليلاً من الكوكايين ، فقبضنا عليه بتهمة حيازة المخدرات ، كما وجدنا سياطاً وسلاسل وأعضاء ذكرية من البلاستيك وجميع أنواع الصور التي لن تخطر لك على بال ، هل تصدّق أنّه يمكن لرجل أن يدخل يده حتى الكوع في مؤخرة رجل آخر » .

- « يا إلهي » .

- « قبضنا عليه ، إنّه إنسان قذر بالفعل ، وأتمنّى أن يقضي عشرين عاماً في السجن » .

- « هل ثمّة أدلّة على ارتكابه الجريمة ؟ » .

قطب فيتش جبينه قائلاً : « كلا » .

- « إذاً ، فلماذا أنت متأكد من أنّه هو القاتل ؟ » .

- « كل شيء يشير إلى ذلك ، فالصور تظهر أنّه مولع بالسكاكين ، إحدى الصور تظهره وهو يكتب الأحرف الأولى من اسمه بخنجر صغير على بطن رجل آخر . ولم يستطع أن يقدّم لنا إثباتاً عن وجوده في مكان آخر ليلة السبت ، فهو يزعم أنّه كان يقرأ في غرفته وهذا يشبه القول بأنّ جاك السفّاح يقضي نهار الأحد في الكنيسة » .

- « لكنّك تحتاج إلى شاهد رآه مع تشورومنسكي » .

- « نحن نعمل على ذلك » .

- « وماذا عن الصبي الذي تعرّض للاعتداء ، هل وافق على الشهادة ؟» .

- « أجل ، وقد أخذنا إفادته وإفادة والديه » .

قال سلتفليت بعد تفكير عميق : « لا أريد أن أثبّط عزيمتك لكن عليك ألّا تأمل كثيراً في إدانته والحكم عليه » .

- « لِمَ لا ؟ » .

- « أولاً ، سوف يركّز الدفاع على أنّ الصبي ذهب بمحض إرادته وهو يعرف ما الذي ينتظره ، وسيدّعي على الأرجح أنّ الولد قبض مبلغاً من المال . أمّا الكوكايين فهم على الأرجح سيتهمونك بدسّه في المنزل » .

- « أعرف » ، وتجهّم وجه فيتش الذي قال : « لكنّي آمل بأن أجد بعض

الفتيان الآخرين وأحملهم على الشهادة . فلو استطعنا الحصول على مزيد من الأدلة . . . » .

غيّر سلتفليت الموضوع : « وماذا عن ذلك الجاسوس في تشلتنهام ؟ » .

حمل فيتش السكّين ، وقال : « لديّ شيء مثير أريد أن أريك إيّاه » ، وأخرج مسواكاً من جيبه وضغط برأس المسواك على رأس مسمار نحاسي في المقبض الخشبي ، ثمّ ضغط على قاعدة المقبض بإبهامه ، فانثنى إلى الداخل ، وبدت في الداخل فتحة صغيرة بطول ٢,٥ سم وعمق ٣ ملم .

- « هل وجدتم شيئاً في داخلها ؟ » .

نظر فيتش إليه وقال مبتهجاً : « ميكروفيلم » .

فضحك سلتفليت وقال : « هذا رائع ، إذاً على الأقل استطعت أن تبرهن أن تشورومنسكي جاسوس » .

- « برايس - ذلك الموظّف في مركز قيادة الاتصالات العامة - كان غبيّاً بما فيه الكفاية لترك جزء من بصمة إبهامه على علبة الميكروفيلم ، جزء صغير جداً ، لكنه كان كافياً للتعرّف إليه ، ولقد ألقى القسم الخاص القبض عليه البارحة ، وسيصدر قرار الاتهام بحقّه اليوم أو غداً » .

ربّت سلتفليت على كتفه وقال : « أحسنت ، أظن أنّ هذا يعني الترقية » .

حاول فيتش أن يخفي اغتباطه لكنه لم يكن ممثلاً جيداً .

- « لمّح ماكفيل إلى شيء من هذا القبيل » .

- « كبير المفتشين فيتش » يجب أن نشرب هذا النخب . . . » .

رنّ جرس الباب ، فنظر سلتفليت من خلال الستائر ، ورأى مورو ، فسرّ بمجيئه ، كان المزيد من الويسكي يسبّب له النعاس .

بدا مورو أنيقاً على غير عادة بمعطفه الصوفي وقبعته الشتوية ، كان يحمل مظلّة كبيرة جداً ، ثمّ تذكّر سلتفليت السكين وهو يأخذ معطف الطبيب فتمنى أن يكون مورو ممثلاً جيداً . بحيث لا يبدو عليه أنّه رأى السكّين من قبل . ثمّ نظر إلى الطاولة فأدرك أنّ قلقه لا مبرّر له . كان فيتش قد أعاد السكّين إلى الحقيبة .

قال سلتفليت : « المفتش فيتش ، د . مورو » ولاحظ أنّ الاسم لم يعنِ لفيتش شيئاً .

قال فيتش : « لن أزعجك أكثر من ذلك ، تحياتي لزوجتك » .
ساعده سلتفليت على ارتداء معطفه « أخبرني بما يحدث » .
ـ « سأفعل . . . بالمناسبة . . . » وقف أمام الباب : « بالنسبة إلى ذلك الرجل جو الأميركي الجنوبي . . . » .
ـ « نعم ؟ » .
ـ « لقد أخبرت المسؤولين عنه . . . عن مدى مساعدته لنا ، سيتم إسقاط الدعوى » .
ـ « أنا جد ممتن لك » .
ـ « يُسعدني أن أخدم في أي وقت » .

فكر سلتفليت وهو يراقب مشية فيتش عبر الشارع ، والتي تنم عن اعتداده بنفسه ملاحظاً الطريقة التي أغلق بها باب سيارته : كيف يمكن لقليلٍ من النجاح أن يُحسن الرجل . . . وشعر بالرضا والسعادة فهو يكن عداءً غريزياً لمشاعر الإحباط والخيبة .

قال مورو : « أهو يعمل على هذه القضية ؟ » .
ـ « إنه المسؤول عنها » .
بدا له أن مورو مشدود ومتوتر فقال : « لماذا ؟ » .
ـ «روزي تريد أن تتحدث إليه » .
ـ « ماذا !؟ » وحدّق إليه بدهشة شديدة . تنهد مورو بإحراج :
ـ « أرجوك ، حاول أن تفهم ، إنها تواجه مشكلة صعبة . لقد وافقت على أنها سوف لن تستسلم من الآن وصاعداً وستحاول أن تمنع دوروثي من السيطرة عليها مرة أخرى . ولكنها تحتاج لتحقيق هذا إلى التفاؤل تحتاج إلى الإيمان بالمستقبل ، فكيف يمكنها أن تفعل ذلك ، إذا ظل موت ذلك الرجل يثقل ضميرها ؟ » .
ـ « لكنها لم تقتل الرجل » .
ـ « رغم ذلك فهي تشعر بأنها المسؤولة ، فهي التي « اصطادته » وهي التي أخذته إلى المكان الذي لاقى حتفه فيه ويدها هي التي قتلته ، فهي تشعر بأنها تتستر على فعلتها » .
ـ « وما الذي تنوي أن تفعله ؟ » .
ـ « بالطبع ، تريد أن تكشف عن هذا السر » .

ـ « تعني أنها تريد أن تذهب إلى المحكمة ؟ » .
ـ « إذا كان ذلك ضرورياً » .
ـ « وهل توافقها ؟ » .
ـ « جئت أطلب رأيك » .
ـ « رأيي أن ذلك يورطنا في تعقيداتٍ مزعجة . لنبدأ بأنني ارتكبت جنحة بعدم إلقائي القبض عليها قبل يومين » .
ـ « آه ، لن تورطك على الإطلاق . سوف تقول ببساطة إنها قررت أن تعترف بما تعرفه . دون أن تذكر أنك كنت على علمٍ بذلك » .
فكر سلتفليت ملياً ثم قال :
ـ « هناك مشكلة أخرى ، السكين ، لقد تخلصنا منها بإلقائها في الحديقة . فعثروا عليها ، سنضطر إلى أن نقنع فرانكي بالاعتراف بأنه هو الذي رماها » .
فقال مورو بارتباكٍ ظاهر : « لا تريد أن تورط فرانكي أيضاً » .
ـ « هذا غير ممكن ، إلا إذا اعترفت بأنها رجعت وأخرجت السكين من حوض الزهور ومسحت عنه البصمات . وإذا اعترفت بكل هذا فستثير الشكوك في نفوس المحققين . وسيكون من الصعب عليهم القبول بمنح الأسباب التخفيفية لمن يفكر في الأشياء كافة بمثل هذه الدقة » .
ـ « إذاً ماذا تقترح ؟ » .
فكر سلتفليت في الأمر ثم قال : « يجب أن تفهمها أنه من المستحيل عدم توريط فرانكي ، وأنها إن فعلت فسيواجه تهمة التستر المتعمد على مجرم ، وأنا أعرف أنها لا تريد ذلك » .
هز مورو كتفيه غاضباً : « أعرف ، لكن ما يقلقها أكثر هو احتمال أن يُتهم شخصٌ آخر بالجريمة » .
رنا إليه سلتفليت بسرعة وقال : « هل أنت متأكد أن هذا ما يقلقها ؟ » .
ـ « بالطبع ، لقد تحدثنا في المسألة عدة مرات » .
ضحك سلتفليت : « في هذه الحالة يمكنك أن تقول لها إنه ليس لديها ما تقلق بشأنه فالمفتش فيتش متأكد تماماً أن القاتل هو صديقك سبراغز . الذي يأمل في أن يُحاكم بتهمة الاعتداء الجنسي على قاصر . لكنه لن يجد أي دليل

ضده . . . وأنا متأكد أيضاً أن تهمة الاغتصاب لن تثبت . أظن أن سبراغز سيخرج بحكم مع وقف التنفيذ وسيخضع لفترة من المراقبة .

فقال مورو بسرعة : « هل أنت متأكد » .

ـ « متأكد تماماً ، القضية محلولة بالنسبة إلى ڤيتش ، لكنه لا يستطيع أن يظهر البرهان ، يحاول أن يستمر في البحث عن القاتل ، بالنسبة إليه القضية أقفلت » .

نمّت ابتسامة مورو عن الارتياح فقال : « هل تأتي معي وتشرح هذا كله لروزي » .

ـ « بالطبع ، دعنا نذهب الآن ، وعدت زوجتي بأن نخرج سوياً هذا الصباح » .

واحضر معطف مورو وقبعته وقال : « قبل أن نذهب هناك شيء أود أن أسألك عنه ، سؤال يحيرني منذ عدة أيام » .

ـ « نعم » .

ـ « ما هو الأمل بشفائها على المدى البعيد ؟ تقول إنها قدرت أن تصمد وتقاتل . ولكن إلى متى ؟ » .

ـ « يصعب تحديد ذلك ، لكن المهم هو إقناع روزي بأن تُقاتل، كي لا يتسنى لدوروثي أن ترجع وتُسيِّر الأمور كما تشاء، ومع ازدياد قوة روزي وثقتها بنفسها ستشعر دوروثي بأنها « محشورة » كما يقولون . وعندما يحدث ذلك ، سأحاول أن أدمج الشخصيتين بواسطة التنويم المغناطيسي » .

قال سلتفليت : « هناك مشكلة أخرى تزعجني ، أنت تبدو متأكداً جداً أن دوروثي هي جزء من شخصية روزي الإجمالية . ولكنها لا تبدو جزءاً من أي شيء . فهي شخص آخر مختلف تماماً ، فهل بإمكانك ، في مثل هذه الحالة ، أن تحاول الجمع بيني وبينك في شخصية واحدة » .

أشار مورو بيديه بحركةٍ تعبيرية وقال :

ـ « أعرف عالم باراسيكولوجيا(*) يحمل الرأي نفسه . ويؤمن بأن العديد من حالات الشخصية المتعددة ليس سوى حالات ما كان يدعى سابقاً بالشخص « المسكون » إذ تسكن الشخصية روح غريبة . ويجب أن أعترف

(*) الباراسيكولوجي : فرع من فروع علم النفس ، يبحث في إمكانية التنبؤ .

لك أنني اضطررت للموافقة على رأيه في بعض الحالات » .

ـ « إذاً ، كيف يمكنك الحديث عن دمج دوروثي وروزي ؟ » .

قال مورو : « اسمح لي أن أسألك سؤالاً بالمقابل . أنت تشعر بأن سبراغز يستأهل السجن ، ما هو شعورك لو صدر بحقه حكم مع وقف التنفيذ ؟ » .

قال سلتفليت على الفور : « لن يؤرقني الأمر كثيراً » .

ـ « لماذا ؟ وأنت تؤمن بأنه مذنب ؟ » .

ـ « لأنه لا يمكنك دائماً أن تصل بالقضية إلى نهايتها المثالية ، عندها تقبل بأفضل الممكن . وهذا هو ما يقوم عليه كل عمل الشرطة » .

قال مورو بحزن : « وهو أيضاً يا سيدي العزيز ، كل ما يقوم عليه علم النفس العيادي ، لا أستطيع أن أضمن شفاء روزي، لكني أعرف أنه لا بد لي من بذل كل جهد ، هل يجيب هذا على سؤالك ! » .

تنهّد سلتفليت وقال : « لا ، لكن أظن أنه لا بد من الاكتفاء به » .

وأعطاه المظلة وقال : « سآتي معك وأتحدث إلى روزي » .

ملحق

حول « الشخصية المتعددة »

سجل الأطباء حالة الشذوذ النفسي الغريبة المعروفة بـ « الشخصية المتعددة » منذ أوائل القرن التاسع عشر . ففي صباح أحد الأيام من عام ١٨١١ استيقظت ماري رينولدز ـ من مواطني ولاية بنسلفانيا الأميركية ـ لتكتشف أنها فقدت كل ما تذكره حتى اللغة التي تتحدث بها . وكان من الضروري أن تتعلم مرة أخرى كالأطفال . وبعد ذلك بخمسة أسابيع استيقظت مرة أخرى مستعيدة شخصيتها السابقة وفاقدة أي ذكرى عن الأسابيع الخمسة السابقة . وخلال بقية حياتها ظل أقرباؤها غير متأكدين أي شخصيةٍ من الشخصيتين ستظهر في صباح اليوم التالي .

كانت الشخصيتان مختلفتين تماماً . الكاتبة « ماري ١ » امرأة مملة ذات ميول اكتئابية ، أما « ماري ٢ » فكانت مرحة و« شيطانة » ، وفي منتصف حياتها امتزجت الشخصيتان بطريقة أو بأخرى . ولقد عرضتُ في مناقشتي لهذه الحالة في كتابي « Mysteries » رأياً يقوم على النظر إلى الشخصية الإنسانية وكأنها مؤلفة من قطع تركيبية (من النوع الذي يُستخدم مثلاً في تركيب نماذج الطائرات الخشبية وغيرها) . استخدمت « ماري ١ » القطع الجدية كافة فاضطرت « ماري ٢ » إلى استخدام قطع المرح والهرب والفقدان الكلي للتبصر في عواقب الأمور . كانت « ماري ١ » تكره الطبيعة ، بينما « ماري ٢ » تحبها وهكذا . . . .

مع تكاثر تسجيل حالاتٍ من هذا النوع ، أخذ يتضح أن أغلب حالات

الشخصية المتعددة تبدأ بصدمةٍ عنيفة . في عام ١٨٧٧ أصيب صبي فرنسي يُدعى لويس فيفي بنوبة رعب بعد أن هاجمه ثعبان ضخم ، فأصيب بنوبة صرع هستيري استمرت ١٥ ساعة ، ولدى انتهاء النوبة أصبح شخصاً آخر . كان « لويس ١ » صبياً هادئاً حسَن الأخلاق مصاباً بشللٍ جانبي ، أما « لويس ٢ » فكان ثرثاراً سيىء الأخلاق ، يدعو إلى الإلحاد وإلى قلب النظام القائم بواسطة العنف ، ومصاباً بشللٍ في الجانب الآخر من جسده ـ الجانب الأيمن ، وعندما اكتشف الأطباء أن ضربه بالفولاذ يغير موطن الشلل من الجانب الأيمن إلى الجانب الأيسر من جسمه ؛ لاحظوا أنه في اللحظة التي يتغير فيها مكان الشلل يكتسب لويس شخصيته الأخرى .

أما حالة « كريستين بيوتشامب » التي سجلها الدكتور مورتون برنس فقد أصبحت حالة كلاسيكية . فكريستين واسمها الحقيقي كلارا فولر عاشت طفولة قاسية ؛ إذ توفيت أمها بمرض عضال وكان أبوها مدمناً على الكحول . فحولت كل إعجابها به إلى صديق له . وعندما حاول هذا الرجل أن يعتدي عليها « انقسمت » كريستين وسيطرت عليها فجأةً شخصية طفلة مرحة ، شقية ، تمتلىء حيوية ونشاطاً وتسمي نفسها سالي . كانت كريستين هادئةً مطيعة وسريعة الشعور بالإرهاق ، أما سالي فكانت مرحة ، صاخبةٌ ، وتتمتع بصحة جيدة . وكانت إذا أرادت أن تمزح ، تتمشى في المناطق الجبلية المحيطة ببوسطن ثم تسمح لكريستين بالعودة إلى جسدها فتضطر كريستين للعودة إلى البيت مشياً على الأقدام . كانت سالي أقوى من كريستين ، وتستطيع أن « تحل مكانها » في أي وقتٍ تشاء ، أخضعها برنس للتنويم المغناطيسي فظهرت شخصية ثالثة شابة متوازنة تمتاز برباطة الجأش والهدوء وتبدو مختلفة تماماً عن الشخصيتين الأخريين . وعندما كانت كريستين تشعر ح والتفاؤل كانت سالي تشعر بأنها « معصورة » . كان برنس مقتنعاً بأن هذه الشخصيات جميعاً هي جزء مما كان « يجب » أن تكونه الفتاة لو لم يُعق البؤس والشقاء والصدمات نمو طفولتها . وفي النهاية توصل إلى علاج جزئي يقضي بـ « دمج » الشخصيات الثلاث بواسطة التنويم . تزوجت كريستين من أحد مساعدي برنس وعاشت حياة عادية إلى حدٍ كبير ـ فيما عدا بعض الانتكاسات العارضة ـ .

وتجدر الملاحظة إلى أن كلاً من « لويس ٢ » و« كريستين ٢ » « سالي » قد

عانا من صعوباتٍ في النطق . مما يُشير إلى حلٍ واحد لمعضلة الشخصية المتعددة (حاولت استكشافه) في كتابي « حصن فرانكنشتين » .

كشفت الأبحاث الدماغية الجديدة عن أنه يبدو أن لنصفي الدماغ ـ الأيسر والأيمن ـ وظائف مختلفة ؛ فبينما يتولى النصف الأيسر وظائف النطق واللغة يقوم النصف الأيمن بعمليات الحدس وإدراك الأنساق . كما يتولى القسم الأيسر السيطرة على النصف الأيمن من الجسم والعكس بالعكس . كذلك اكتشف أنه يمكن معالجة نوبات الصرع عبر فصل عقدة الأعصاب التي تصل بين نصفي الدماغ (الجسم الثفني ـ Corpus Callorum) . ويصبح المريض ذو الدماغ المنقسم بمعنى ما ، شخصين منفصلين ، حاول أحد هؤلاء المرضى أن يضرب امرأته بيده اليسرى (المرتبطة بدماغه الأيمن) بينما كانت يده اليمنى تحاول الدفاع عنها . وعندما عرضت صورة « قذرة » على أحد المرضى ليراها بواسطة عينه اليسرى فقط (المرتبطة بدماغه الأيمن) احمرَّ وجهه وعندما سُئل عن السبب أجاب : « لست أدري » . وهذا يحمل على الاعتقاد بأن الشخص الذي دعوناه « ـ ١ » يعيش في الجانب الأيسر من الدماغ ، وأن الشخص « الآخر » غريب بالنسبة إليه . « فكريستين ١ » و« لويس ١ » وعلى الأرجح « ماري ١ » كانوا جميعاً شخصيات تعيش في الدماغ « الأيسر » ، بينما يبدو أن الشخصيات « الشيطانة » والمرحة تنتمي إلى الجهة اليمنى .

لكن كيف تفسر ، في هذه الحالة ، شخصية كريستين الثالثة ـ المرأة الناضجة ؟ ـ ويصبح السؤال أكثر إثارةً للحيرة والارتباك إذا أخذنا بعين الاعتبار حالة « دوريس فيشر » ـ وهي الحالة التي سجلها والتر فرانكلين برنس والتي تضاهي في شهرتها حالة كريستين . « انقسمت » دوريس عندما جذبها أبوها من ذراعي أمها وهو في حالة سكر شديد ورماها بعنف على الأرض . فقدت دوريس وعيها ولم تستعده إلا في صباح اليوم التالي عندما نزلت إلى الطابق السفلي لدى إحساسها بنوعٍ من الطقطقة في مؤخرة عنقها . ثم بدأت تفقد ذاكرتها لعدة ساعات في كلّ مرة ، وخلال هذه الفترة كانت « تسيطر عليها » فتاة « شيطانة » تضج بالحركة والحياة تسمي نفسها « مارغريت » وأخذت توقع دوريس في المتاعب . فقد كان بإمكان مارغريت أن « تسحب » دوريس من جسدها عندما تشاء . وعندما بلغت دوريس السابعة عشرة توفيت والدتها في ظروفٍ سيئة جداً . فسيطرت عليها شخصية ثالثة ـ

فتاة متعبة ، مملة : أطلق عليها برنس اسم « دوريس المريضة » . بعد ذلك بعام تعثرت دوريس ووقعت على رأسها واستولت عليها شخصية أخرى طفلة تمتلك ذاكرة فوتوغرافية لكل ما حدث لدوريس في سنواتها الأولى . واكتشف برنس أنه إذا أيقظ دوريس من نومها في الليل تظهر شخصية أخرى مختلفة أكثر توازناً ونضجاً أطلق عليها لقب « دوريس النائمة » ، إذاً كانت دوريس فيشر خمس شخصيات .

والغريب في الأمر أنَّ هذه الشخصيات تشكل نوعاً من البنية التراتبية السلطوية . إذ تتربع دوروثي النائمة على القمة وتعرف كل شيء عن الشخصيات الأربع الأخرى . ثم تأتي مارغريت ، وهي بدورها تعرف كل شيء عن الشخصيات الثلاث الأدنى منها . ثم دوريس التي تعرف كل شيء عن الشخصيتين الأدنى وهكذا . ومرة أخرى يبدو أن هذا الأمر شائع في حالات الشخصية المتعددة ـ وكأن الشخصيات مرتبة على شكل سلم ـ وقد قادني ذلك في كتابي « Mysteries » إلى اقتراح نظرية « سلم الشخصيات التي تؤلف بنية الشخصية » .

ويعني ذلك عملياً أن مارغريت تستطيع أن « تطرد » دوريس من جسمها عندما تشاء وأن « دوريس النائمة » ، بإمكانها طرد مارغريت عندما يحلو لها ذلك . ففي أحد الأيام طردت مارغريت دوريس بينما كانت الأخيرة تتحدث مع برنس . فتغير وجه دوريس فجأة واستبدل بوجه « دوريس الشيطانة » فغضبت « دوريس النائمة » غضباً شديداً « فأمسكت » بمارغريت وأخرجتها من جسم دوريس . وفي وقتٍ لاحق من اليوم نفسه عادت مارغريت لتقول لبرنس : « أتعلم يا دكتور أن هناك شخصاً آخر في هذا الجسم ؟ عندما أخرجت دوريس هذا الصباح جاء أحدهم وأخرجني » .

نجح برنس ، عبر تحويله دوروثي إلى شخص أكثر مرحاً وتفاؤلاً في أن يزيل تدريجياً الشخصيات الدنيا التي تحللت تدريجياً . حتى أن « دوريس المريضة » خرجت في نزهة وداعية مع برنس وودعته بكلامٍ مؤثر قبل أن « تموت » . أما مارغريت فأخذت تصغر وتصغر حتى أصبحتْ طفلاً صغيراً ومن ثم طفلاً رضيعاً ، إلى أن تلاشت في النهاية . أما الشخصية الأعلى « دوريس النائمة » فلم تختفِ بشكل نهائي ، إلا أنها لم تكن لتحدث

مشاكل . أكثر من ذلك فقد زعمت أنها ليست جزءاً من دوريس ، بل أنها روح أرسلتها والدة دوريس لمساعدتها في صراعها ضد مارغريت . ورغم أن ذلك قد يكون سخيفاً ، فتجدر بي الإشارة إلى أن تاريخ دوريس اللاحق ، كما سجله برنس يتجه إلى تأييد « دوريس النائمة » في ادعائها هذا .

إحدى أهم الحالات المسجلة في القرن العشرين حفظت في كتاب يُدعى « الوجوه الثلاثة لحواء » تأليف : « C.H. Thigpen, H.M. Cleckley » (١٩٥٧) . كان اسم « حواء » الحقيقي هو « كريستين سايزمور » . في السادسة من عمرها أخذت تغار بشدة من أختيها التوأمين الحديثتي الولادة . وفي أحد الأيام « وجدت نفسها » مضروبة بشدة بسبب مهاجمتها لهما وهما راقدتان في سريرهما . وكان ذلك هو الظهور الأول « لحواء السوداء » . تزوجت في العشرين من سائق سيارات سباق لم يكن ليصل إلى الرعشة الجنسية « الأورغازم » ما لم يضربها ضرباً مبرحاً بقبضة يده . ثم تزوجت مرة أخرى زواجاً أقل تعاسةً بقليل . وأخذ ظهور « حواء السوداء » يتكرر . وبينما كانت « حواء البيضاء » مسيحية متزمتة كانت « حواء السوداء » شيطانة تحب اللهو والمرح ، تدخن وتشرب الخمرة وتحب الذكور الأقوياء جنسياً . لعب طبيباها دوراً هاماً في مساعدتها إلا أنهما لقيا استياءً شديداً لدى نشرهما تفاصيل الحالة في كتاب لاقى رواجاً كبيراً وتحول إلى فيلم . ثم ظهرت شخصية ثالثة : « جاين » وهي أكثر نضوجاً من الشخصيتين الأوليين . و« جاين » هذه التقت وتزوجت رجلاً عطوفاً يُدعى دون سايزمور . لكن كريستين لم تشعر بالاطمئنان ـ إذ كانا يعيشان في بيتٍ متنقل ـ وكانت النتيجة ظهور عددٍ كبير من الشخصيات الجديدة (تصف كريستين سايزمور في كتابها « حواء » حوالى الثلاثين منها) .

والغريب جداً في حالة سايزمور أن « حواء ١ » و« حواء ٢ » كانت لديهما صفات جسدية مختلفة ، فحواء السوداء لديها حساسية من النايلون الذي يُسبب لها طفحاً جلدياً يختفي حالما تسيطر حواء البيضاء . وعندما تُنوَّم إحدى الشخصيتين بواسطة مخدر تسيطر الأخرى دون أن يكون للمخدر أي تأثير فيها .

كان كتاب « سيبل » لمؤلفته فلورا ريتا شرايبر أحد أكثر الكتب التي دارت

حول موضوع الشخصية المتعددة ، فقد تعرضت سيبل في طفولتها لمعاملة قاسية جداً . كانت أمها امرأة عصابية تنزع عن الفتاة ثيابها وتعلقها إلى السقف ثم تُدخل أعواد الثقاب المشتعلة في مهبلها . انقسمت سيبل إلى أربع عشرة شخصية ، كل واحدة منها متميزة عن الأخرى . ومن بينها شخصيات الكاتبة والرسامة والموسيقية وعاملة البناء وعاملة النجارة . ومن الغريب جداً أن بعض هذه الشخصيات كان ينسجم بشكلٍ جيد مع بعض الشخصيات الأخرى بينما كان بعضها لا يطيق البعض الآخر . وكانت كلها تتصرف كشخصياتٍ حقيقية .

ولقد خصصت د . شرايبر الفصل الأخير من كتابها لوصف نتائج الاختبارات الطبية التي أُخضعت لها حالات أخرى ، ففي إحدى الحالات [وهي حالة مريضة منقسمة إلى أربع شخصيات] أظهرت الشخصيات أربع استجابات مختلفة تجاه اختبار رائز الترابط [وهو اختبار مصمم ليُحدد طبيعة الارتباط الانفعالي أو العقلي ما بين المنبه والاستجابة] وأظهرت آلة قياس « موجات الدماغ » أن للشخصيات المختلفة تموجاتٍ دماغية مختلفة ، رغم أن الموجات الدماغية متميزة تماماً لدى كل إنسان ، مثلها مثل بصمات الأصابع .

تُعتبر حالة بيلي ماليغن من أغرب الحالات المسجلة حديثاً . اعتُقل بيلي في عام ١٩٧٧ في كولومبيا بولاية أوهايو بتهمة الاغتصاب ، أصر بيلي لدى مقابلته لأحد العاملين في الشأن الاجتماعي أنه ليس بيلي بل دافيد وأن بيلي نائم « هنا » وأشار إلى صدره . كان عمر دافيد ثماني سنوات ، ثم اتضح تدريجياً أن بيلي شخصية مركبة من ثلاث وعشرين شخصية مختلفة . وفي أغلب هذه الحالات شهد بيلي طفولة معذبة وادعى بأن زوج امه قد اغتصبه وضربه بشدة . استولت أولى شخصياته الأخرى عليه للمرة الأولى عندما حاول أن يرمي بنفسه من على سطح المدرسة . ومن بين شخصياته شخصية ذلك الرجل الانكليزي المهذب ـ الرقيق الذي يتكلم الانكليزية بلهجة بريطانية خالصة ـ وهو يقرأ اللغة العربية ويكتبها ويضع نظارة ، وشخصية اليوغوسلافي القوي البنية الذي يتكلم اللغة الكرواتية ـ الصربية ، وشخصية النصاب ، وشخصية خبير إلكترونيات . وشخصية الطفل ذي الثلاث سنوات . وشخصية أخيه الذي يبلغ من عمره ثلاث عشرة سنة . والشخصية

السحاقية غير الاجتماعية . ولعل كتاب دنيال كس حول هذه الحالة « عقول بيلي ماليغان » هو أكثر ما كُتب ، حتى الآن ، حول الشخصية المتعددة إثارة للدهشة . وفي النهاية اكتشف أن السحاقية (وهي الشخصية التي ارتكبت جرم الاغتصاب) وإحدى الشخصيات الأخرى هما اللتان وشيا ببيلي وسلماه إلى الشرطة .

وهنا أيضاً كانت هناك شخصية عليا يُشار إليها « بالأستاذ » وبحسب اليوغسلافي فإن بيلي كان طفلاً عبقرياً وكانت كل شخصياته مجتمعة في شخصية واحدة ـ ولكن بسبب المصاعب التي عانى منها في طفولته لم يتح له المجال لتطوير قدراته وطاقاته . والأستاذ هو الذي علّم اليوغوسلافي كيفية صنع الأسلحة ، كما علّم شخصية أخرى كيف تكون خبيرة في الإلكترونيات وهكذا . . . أما كيف « علّم » الأستاذ اليوغسلافي اللغة الكرواتية الصربية فهذا ما لا نجد تفسيراً له .

في كتابي « Mysteries » عرضت لنظرية « حول الشخصية المتعددة » ويبدو أن حالة ماليغان تدعمها (وقد ظهرت هذه الحالة بينما كنت أؤلف ذلك الكتاب) ونظريتي تقول بأننا جميعاً نتألف أساساً من « شخصياتٍ متعددة » ، تبدأ من الرضيع إلى الطفل وتنمو ببطء إلى شخصياتٍ أكثر تعقيداً . فإذا حدث لسبب ما أن توقفنا فجأة عن النمو بفعل صدمة عنيفة تقضي على ثقتنا بأنفسنا خضعت جميع الشخصيات الكامنة فينا للكبت والإعاقة ، ويمكن لحادثٍ ما أو صدمة عنيفة أن تمنح هذه الشخصيات الفرصة « للسيطرة » . . . وهذا يعني بالطبع أن شخصياتنا « المستقبلية » موجودة في داخلنا إلا أنها في حالة جنينية ، إذا جاز التعبير ، وأنها تنمو وتتطور خلال نضوجنا . وأننا « ننتقل » من شخصية إلى أخرى كمن يصعد سلماً . ولقد صعد أمثال بيتهوفن وليوناردو درجات أكثر مما صعد معظمنا ، ولكن حتى هؤلاء فشلوا في الوصول إلى القمة ، كما يمكن أن نرى لدى دراستنا حياة كل منهم .

تصعب هذه النظرية حول الشخصية على الفهم لأنه من الطبيعي بالنسبة إلينا أن نعتبر ذلك « الأنا » الذي ينظر الآن من خلال عيني كل منا ، ساكناً وحيداً في الدماغ ، لكن ألا يصعب بالقدر نفسه على « الأنا » عندما كان

عمره سبع سنوات أن يتخيل ذلك « الأنا » الذي أنا عليه الآن ، وأنا أكتب هذا الكتاب ؟ وبتعبير آخر يمكننا القول إن صعوبة فهم ظاهرة الشخصيات المتعددة يرجع ببساطة إلى أن معظمنا قد غلب عليه التصور الخاطىء بديمومة « الأنا » الحالية ، تماماً بالطريقة نفسها التي نميل فيها إلى اعتبار اللحظة الحالية أكثر ديمومة وثباتاً بكثيرٍ مما هي عليه في واقع الأمر . فلو كان الوعي الإنساني قوياً بما فيه الكفاية لإدراك حقيقة حياتنا ، لأدركنا أن ديمومة وحقيقة شخصياتنا مثل ديمومة وحقيقة سحابة الدخان المنبعثة من نارٍ مشتعلة في الهواء الطلق . . . إننا نمر دائماً « بذوات » مختلفة بحسب الظروف وبحسب من يصادف أننا نتحدث معه ، فالحازمون من الناس يجعلوننا نشعر بأننا عديمو التأثير ، بينما يمنحنا الوديعون احساساً بالقوة ، والمعجبون بنا يجعلوننا نشعر بأننا أهلٌ للإعجاب بينما يحملنا محتقرونا على التفكير في أننا مدعاة للاحتقار وهكذا .

ولكن بالرغم من أن هذه المعلومة على درجةٍ كبيرة من الصحة ، إلا أنها ببساطة لا تفسر لنا كيف يمكن لشخصيتين أن تكونا مختلفتين تماماً ، والأهم من ذلك كله كيفية معرفة الواحدة للأخرى . فأنا مثلاً قد أتصرف بشكل مغاير كلياً لما أعهده في نفسي عندما أكون سكراناً . إلا أنني ما لم أكن سكراناً إلى حد الثمالة فإني أبقى متذكراً « لأناي » الآخر . في عام ١٩١٧ حقق العالم النفسي سريل بروت في قضية تلقى فيها عدد من الناس رسائل فاحشة من فتاةٍ صغيرة حسنة الأخلاق تُدعى ماي تايلور . وكشفت ماي تحت التنويم المغناطيسي ، أنها قامت بالفعل بكتابة هذه الرسائل ، لقد كانت بالفعل جيكل وهايد في آنٍ . تسيطر عليها دورياً فتاة محبة للانتقام ذات عقلية قذرة . وكما هو معتاد في هذه الحالات عانت الفتاة من طفولة قاسية ، كانت أمها تخون أباها بشكلٍ دائم ، وكانت ماي أحياناً تُشاهد أمها وهي تُمارس الجنس ، ثم طلق أبوها زوجته وتزوج مرة أخرى . وبينما تحملت ماي في الظاهر كل هذه الصدمات إلا أن السيد هايد كان قد نما في داخلها .

يمكننا أن نفهم كل هذا ، بمساعدة من معرفتنا بمسألة الدماغ الأيسر والدماغ الأيمن بالإضافة إلى فهم اللاوعي الفرويدي . إلا أنه من العسير علينا أن نفهم لماذا بقيت ماي تجهل تماماً أنها كتبت الرسائل . . إلا أن بيرت

تمكن في النهاية من « دمج » الفتاتين بطريقة جعلت الفتاة القاسية التي كتبت الرسائل تختفي تماماً .

أما ماكس فريدوم لونغ ، عالِم الأنثروبولوجيا الذي درس الديانة السرية لهنود الهونا في هاواي ، فقد اعتنق تدريجياً معتقدهم القائل بأن للإنسان ثلاث « أرواح » أو « أنفس » ، « الذات السفلى » و« الذات الوسطى » و« الذات العليا » . والأنا العادية هي « الذات الوسطى » أما الذات السفلى » فيمكن اعتبارها كاللاوعي لدى فرويد ، أما « الذات العليا » فهي نوع من العقل الذي يتمتع بوعي فائق ، « أعلى » من الوعي العادي بمقدار ما هو اللاوعي « أدنى » منه . ولقد حلل لونغ في كتابه الرائع « أسرار العلم وراء المعجزات » وهو (عنوان غير موفق لأحد أروع أعمال عصرنا) عدة حالات من المصابين « بالشخصية المتعددة » - بما فيها حالتي ماري رينولدز وكريستين بيوتشامب - وفقاً لمعتقدات قبيلة الهونا ووصل إلى استنتاج غير تقليدي على الإطلاق ، يقول بأن هذه الحالات تتضمن « استحواذاً » لشخصية غازية (على الشخصية الأصلية) .

ولعل هذه الفكرة لا تبدو مقبولة لدى أغلبيتنا الساحقة ، إلا أنه لا بد من الاعتراف بأن هناك أدلة تدعم هذه النظرية على الأقل في بعض الحالات المحددة . ففي عام ١٨٧٧ غرقت فتاة تدعى لورنسي فينوم (من ولاية إلينوي) في سبات عميق تحول إلى نوع من الغيبوبة ، وأخذت عدة شخصيات تتكلم من خلالها ، ومن بينها شخصية عجوز مقيتة أخذت تظهر بكثرة حتى فكر أهل الفتاة في إرسالها إلى مصح . كانت لورنسي قد أصبحت « وسيطاً » . وفي العادة يكون لدى « الوسطاء » الروحيين نوع من « المشرف » وهي « روح » تعمل كسيد أو رئيس للاحتفالات وتسيطر على « الأرواح » التي تود أن تستخدم الوسيط لتتكلم عبره . كانت لورنسي تحت سيطرة كائنة تدعو نفسها ماري روف قالت إنها توفيت قبل اثني عشرة سنة (عندما كانت في الثامنة عشرة) . ثم « أصبحت » لورنسي ماري روف ، وعندما أخذت إلى منزل ماري في المدينة نفسها ، لم تدع مجالاً للشك عند أحد بأنها فعلاً ماري ، فتعرفت إلى أشخاص كانت قد التقت بهم خلال حياتها وأظهرت معرفة بتفاصيل حياة ماري . وقالت إنها لن تستطيع أن تبقى أكثر من أربعة أشهر ،

وخلال تلك الفترة عاشت مع عائلة روف وكأنها ابنتهم . ولم يكن لديهم أدنى شك في أنها كذلك إنما في جسدٍ آخر . وفي اليوم المحدد ، استأذنت ماري من أهلها وعادت لورنسي إلى جسمها طبيعية جداً وتتمتع بصحةٍ جيدة .

ولقد وصف د . أيان ستيفنسون حالة حقيقية أخرى في كتابه « عشرون حالة توحي بالتقمص » هي حالة طفل في الثالثة من عمره يدعى جابر لال جات « مات » بمرض الجدري ، ثم استيقظ بعد عدة ساعات ، ولكنه « أصبح » شخصاً آخر ، مدعياً أنه ابن كاهن هندوسي في قرية مجاورة ، كان قد مات بجرح في رأسه ، وعندما أخذ إلى القرية تعرف إلى الأقارب ، واستطاع أن يصحب مرافقيه إلى عددٍ من المنازل ، كما أنه أظهر معرفة دقيقة بشؤون عائلة الكاهن ، حتى لم يعد لديهم أدنى شك في أنه ابنهم وسمحوا له بقضاء العطلة معهم .

تتمثل وجهة نظر « الروحانيين » ، بالطبع ، في أن الشخصية لا تنتهي بموت الجسد ، وأنه يمكنها في ظروف معينة أن تتحدث مع الأحياء بواسطة « وسيط » يقدم جسده « للروح » كأداة مؤقتة للتحدث . في عام ١٩٧٧ ، سُجِّلت إحدى هذه الحالات في تاريخ القضاء ، عندما وجد المحلفون رجلاً في ولاية شيكاغو مذنباً في جريمة قتل بناء على شهادة « روح » . كانت ممرضة فيليبينية تُدعى تريستا باسا قد طُعنت حتى الموت في شقتها ، كما سرق الفاعل المجوهرات . . . بعد ذلك بأسبوعين ، دخلت إحدى زميلات القتيلة ، وهي أيضاً امرأة فيليبينية تُدعى رِمي تشوا ، في غيبوبة ثم أعلنت أنها القتيلة تريستا باسا وأن رجلاً أسود يُدعى آلان شويري هو الذي قتلها . وكان قد جاء إلى شقتها ليصلح جهاز التلفزيون . ثم وصفت الجريمة وقالت : إن آلان أعطى قطع المجوهرات لإحدى صديقاته وسمت أسماء عدة أصدقاء بإمكانهم أن يتعرفوا إلى المجوهرات . وبعد أن تكرر ذلك عدة مرات ، ذهب زوجها إلى الشرطة فوجدت المجوهرات في منزل زوجة شويري العُرفية ، واعترف شويري بأنه قتل الممرضة عندما ذهب ليصلح التلفزيون . حاول الدفاع أن يكسب القضية على أساس أن شهادة « الروح » لا يمكن الركون إلى صحتها ، إلا أن المحكمة لم تأخذ باعتراضه .

ليس هناك تناقض جوهري بين وجهة نظر لونغ القائلة « بالاستحواذ »

ووجهة نظر علماء النفس أمثال : مورتوس برنس وسيريل برت التي تعتبر تعدد الشخصيات مجرد مسألة « شخصية محطمة » انقسمت إلى جزءين أو أكثر . ويبدو أن حالة دوريس فيشر توفر الدلائل على وجهتي النظر . إذ تناسب نظرية « الشخصية المجزأة » « الشخصيات الطفولية » بينما تنطبق نظرية « الروح » على « دوريس النائمة » الموزونة والناضجة ، التي كانت « أكبر » من دوريس نفسها وأكبر مما أتيح لها أن تبلغ في أي وقت . ويمكن اعتبار شخصيتي د . جيكل والسيد هايد لدى ماي تايلور أو لويس جنفس مجرد حالات شاذة من ظاهرة انقسام الدماغ إلى جانبين أيسر وأيمن الموجودة لدى كل منا ، وقد تكون الحالات مثل حالة لورنسي فينوم أو جابر لال جات ، حالات « وساطة » حقيقية أو « استحواذ » روحي ، فمن الخطأ فعلاً استثناء أحد الاحتمالين . ومن المثير أيضاً أن نلاحظ أنه في العديد من الحالات مثل حالة المريضة ليوني التي عالجها بيار جانيه - عرضتها في كتابي « Mysteries » - أو حالة « الآنسة الأولى » (التي عرضها فريدوم لونغ) تظهر شخصية ثانوية عندما يُوضع المريض تحت تنويم مغناطيسي عميق ، يكاد يتوقف فيه القلب عن النبض ويصبح المريض فيه بالتالي في الحالة نفسها التي يتعرض لها « الوسيط » عندما يدخل في « غيبوبة عميقة » .

تقدم الحالة التي عرضها العالم النفسي يونغ تحذيراً مهماً من المغالاة في التبسيط . فعندما كانت ابنة عم يونغ هيلين بريسريك في الخامسة عشرة من عمرها بدأت تجري تجارب على الكتابة الآلية ، ثم دخلت في أحد الأيام غيبوبة وأخذت تتكلم بصوتٍ مختلف ، ثم بدأ عدد من الأرواح بالتحدث عبرها ، وادعى أحدهم أنه جدها . وأغرب هؤلاء امرأة تدعو نفسها إيفين ، وهي امرأة ناضجة ومثقفة ، أخذت تعرض فلسفة باطنية معقدة ومثيرة للإعجاب . كانت ابنة عم يونغ فتاة خجولة هادئة ، استجابت بشكلٍ رائع لعناية يونغ بها ، ثم أخذت الجلسات اللاحقة تُسبب خيبة أمل متزايدة ، وعندما اعترفت إلى يونغ بأنها اخترعت إحدى الشخصيات فقد أي اهتمام بها . ماتت في السادسة والعشرين من عمرها - وكانت لا تزال أقل نضجاً من ذاتها العليا إيفين - وفي وقتٍ لاحق أطلق يونغ النظرية المثيرة القائلة : بأنها عرفت بطريقة ما أنها ستموت مبكراً ، وأن « إيفين » إنما هي محاولتها للتعويض عن ذلك . وفي كتابه ، « حول سيكولوجية وباثولوجية ما يُسمى

بظاهرة « الماورائيات » وهو أول كتاب نُشر له ، اعتبر حالة ابنة عمه إحدى حالات « الشخصية المتعددة » الناتجة عن الهستيريا والكبت الجنسي : وبتعبير آخر فإنه لم يعرها اهتماماً كافياً باعتبارها إحدى حالات والتر ميتي المتضخمة (وهو إنسان عادي غير مغامر ، يسعى للهرب من الحقيقة عبر أحلام اليقظة) . وبعد ذلك بحوالى عشر سنوات وعندما عثر يونغ مصادفة على رمز الماندالة (والماندالة كلمة سنسكريتية تعني الدائرة) الذي اعتبره « رمزاً دينياً بدائياً » تذكر بدهشة أن هذا الرمز تكرر غير مرة في فلسفة إيفين الصوفية .

ومع تقدمه في العمر أخذ يونغ يقنع نفسه بحقيقة الخارق للطبيعة ، فأمضى عام ١٩٢٠ نهاية أسبوع تميزت بالاضطراب الشديد في أحد الأكواخ المسكونة - وأخذ يحضر الجلسات . ولا بد من أنه أدرك أن حالة ابنة عمه ليست حالة « الشخصية المتعددة » بل هي ببساطة حالة « وساطة » . إلا أن الاعتراف بذلك كان سيؤدي بلا ريب إلى عاصفة في عالم علم النفس المرضي . ويبدو أنه أجبر على تبني « تفكير مزدوج » ، فهو يقول في مقال له في الثلاثينات بعنوان « الأسس النفسية للإيمان بالأرواح » : إن الأرواح هي « مركبات مستقلة » (أو أجزاء من الشخصية) . وفي أحد الهوامش التي كُتبت في عام ١٩٤٨ ، وكان قد بدأ بالاعتراف علناً باهتمامه بالظواهر الخارقة ، علق قائلاً : « بأنه تعمد أن يحتفظ لنفسه بالجانب النفسي للمشكلة وتحاشي الخوض في مسألة وجود الأرواح » . وكان هذا التصريح هو أقرب ما توصل إليه للاعتراف علناً بخطإ نظرياته السابقة ، لكنه أضاف - في الهامش نفسه ، وبشكلٍ مغاير للحقيقة ، أنه لا يملك أي تجربة تتيح له أن يحسم المسألة سلباً أو إيجاباً (مسألة وجود الأرواح) ، وأقول بشكلٍ مغاير للحقيقة لأنه يصف في مقدمة كتابه (الأشباح حقيقة أم وهم) نهاية الأسبوع التي قضاها في الكوخ المسكون ، عندما استيقظ في وقتٍ ما من الليل ليجد نصف رأس يتطلع نحوه من الوسادة الأخرى .

وبشكلٍ عام ، فمن الأفضل أن نتحاشى المزيد من الغوص في هذه المعضلة ، عبر اعترافنا بأنه يبدو من المستحيل فعلاً إنتاج تفسير مقنع تماماً لظاهرة « الشخصية المتعددة » ، سواء بواسطة التفسير النفسي أو التفسير الغيبي .